



أيقونات جبيلية

مضارات قصصية

عز الدين نجيب

دورّ الشاعر الكبير
محمود بيرم التونسي

الطريق إلى الأبد يا بيرم



34

2019

بور سعيد



الهيئة العامة لقصص الثقافة
المؤتمر العام لأدباء مصر

مختارات قصصية

أيقونات جبالية

عزالدين نجيب

الدورة الرابعة والثلاثون - محافظة بورسعيد - ٢٠١٩م.

المؤتمر العام لأدباء مصر
الدورة الرابعة والثلاثون، ٢٠١٩م

رئيس المؤتمر
عزالدين نجيب
أمين عام المؤتمر
حازم حسين

الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد عوض
أمين عام النشر
جرجس شكري
رئيس الإدارة المركزية
للشؤون الثقافية
د. هاني كمال

مدير عام النشر الثقافي
عبد الحافظ بخيت
مدير إدارة المؤتمرات وأنشطة الأدب
وليد قواد

الإعداد والتنفيذ
مسئول المؤتمرات الأدبية
السعيد المصري
الإشراف الفني
أ.د. إسلام عبد الحميد زكي

مختارات قصصية
أيقونات جبلية
عزالدين نجيب

الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة ٢٠١٩م
تصميم الغلاف، أمينة كامل
المراسلات باسم مدير التحرير على
العنوان التالي،

١٦ شارع أمين سامي - القصر العيني - القاهرة
رقم بريدى ١١٥٦١ / ت. ٢٧٩٤٧٨٩١ داخل ١٨٠

حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة
لقصور الثقافة. ويحظر إعادة النشر أو النسخ أو
الاقتباس بأي صورة إلا بأذن كتابي من الهيئة
العامة لقصور الثقافة. أو بالإشارة إلى المصدر.

أيقونات جبلية

بدلاً من المقدمة

القصة... هوائي الأول!

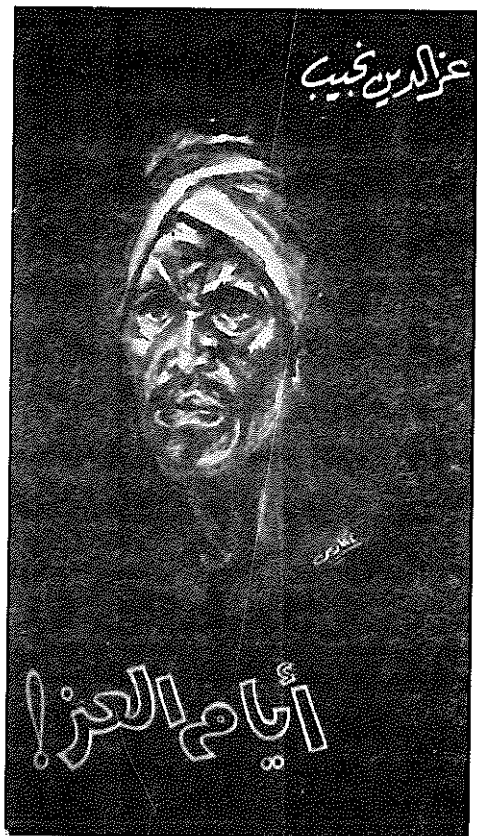
تضم هذه المجموعة القصصية مختارات من ثلاث مجموعات منشورة، وقصة واحدة لم تضمها أي من مجموعاتي على مدار أكثر من ربع قرن... فهناك ثلاث قصص من مجموعة «أيام العز» الصادرة عام ١٩٦٢م، وهي تمثل المرحلة الواقعية الاجتماعية في مشواري الأدبي، وهناك ثماني قصص من مجموعة «المثلث الفيروزي»، الصادرة عام ١٩٦٨م، وتمثل مرحلة الانتقال إلى الواقعية التعبيرية، مع إضفاء الرؤية التشكيلية وجماليات الحدائثة الأدبية إلى أسلوب السرد، كما نوه إليه الأستاذ يحيى حقي في تقديمه للمجموعة، مشيراً إلى أن ذلك رافد جديد للقصة المصرية.

ومن مجموعة «أغنية الدُمّية»، الصادرة عام ١٩٧٥م اخترت عشر قصص، تحمل ملامح عالم خيالي يرمز لحالات وجودية للإنسان في صراعه مع الواقع، أو مع قوى تدفعه إلى الاغتراب أو الوحدة أو الضياع، وهو ما يعبر عنه الأديب والناقد إدوار الخراط واصفاً إياه بعالم المتاهة واللايرانت، أو عالم الفتازيا والكابوس.

أما القصة الأخيرة «أيقونات جبلية» المنشورة بمجلة إبداع عام ١٩٨٨م - والتي سميت مجموعة المختارات باسمها - فتومئ إلى تطور جديد لأسلوبي في المبنى والمعنى، يعكس جو الحلم الذي يغلف العلاقات والمواقف المركبة بين الإنسان والطبيعة والكون، مع اقتراب أكثر من الرؤية التشكيلية بتأكيد جماليات الصورة البصرية، كاشفاً عن آلام واحباطات مسكوت عنها بداخل كل شخصية، وهي تبحث عن خلاص إنساني بعيد المنال.

وإذا كانت المختارات لا تُعني عن قراءة الأعمال الكاملة، فإنها على الأقل تعطي للقارئ قبساً من مشوار أدبي، نازعني فيه التزامي بالرسم والنقد والعمل العام، فجار هذا الالتزام على حق القصة، لكنها تظل هوائياً الأول، والأقرب إلى نفسي!

«عز الدين نجيب»



أيام العز

«أيام العز»، مجموعة قصصية، دار القومية العربية للطباعة والنشر، ١٩٦٢.

الشحم

وضع موظف الاستقبال سماعة التليفون وقال بمدوء:

- تقدر تفوت عليه الساعة واحدة.. لأنه عنده اجتماع دلوقت..

نظرت في ساعتي والضيق يخنقني.. كانت حوالي العاشرة.. طبعاً كان عليّ أن أنتظر هذه الساعات الثلاث في مكان آخر غير غرفة الاستعلامات نزلت إلى الشارع.. وفكرت في حيرة أين أمضي هذه الساعات.. لم تكن بي أية رغبة للسير والتسكع... وبعد تردد طويل كنت أتجه إلى تلك القهوة بالميدان الذي تطل عليه العمارة الضخمة.. حتى أنه يمكنني أن أرى مدخلها من جلستي هناك.

ولكن لم يكده يمضي ربع ساعة على جلوسي حتى كان الملل والضيق قد ضيقاً الخناق تماماً على أنفاسي.. وأصبح كل شيء سخيفاً مزعجاً من حولي: صوت الراديو الذي فتحه الجرسون حتى أقصاه.. طرقات قشاط الطاولة وصرخات اللاعبين.. أصوات باعة النفتالين والإبر واليانصيب وباغات القميص.. ضجة الجرسون بلا مبرر.. الأفكار في رأسي حول البلد والوظيفة وعبد الرازق بيه والثلاث ساعات.. وفكرت أن أقوم، ولكن

فجأة توقفت عيناى عند شيء، خف الضغط قليلاً عن صدري وأنا أمعن النظر فيه.. كان مدخل العمارة.. فأمامه كانت تقف مجموعة من العربات الأنيقة المختلفة الألوان والأشكال، تتوهج بألوانها وسطوحها المصقولة تحت ضوء الشمس.. بلا شك هي خاصة بمن في هذه العمارة. ومن بينهم طبعاً عبد الرازق بيه، لا بد أن له واحدة بينها، لقد يمحمد أفندي كثيراً عنه، عن مركزه وأهميته وثرائه.. والعربة التي يملكها.. هه؟ نعم يحيل إلي أنه قال شيئاً عن العربة، وإن كنت غير متأكد تماماً، لكنني لا أستطيع أن أتخيل عبد الرازق بيه بغير عربة.. إن العربة من مستلزمات الرجل ذي الشأن.. أنا شخصياً أمنيى الأولى منذ صغري أن تكون لي عربة.. بل إنني منذ سنتين وقبل أن أحصل على الليسانس كنت أعددتها أهم من الوظيفة... أوه!.. هل أستطيع أن أقول ذلك الآن؟.. لم أكن وقتها أعرف ما هو التعطل. وما هي مرارة الانتظار في قرية نائية.. انتظار نتائج امتحانات ديوان الموظفين و"إنترفيو" الشركات.. أو انتظار وظيفة تهبط من السماء... تلك اللحظات التي يشعر الإنسان فيها أن العمل - أي عمل - هو أقصى درجات النعيم..

ترى هل ينجح مسعاى هذه المرة؟.. ونظرت بضراعة إلى السماء.. إنها المرة الأولى التي أعتد فيها على "واسطة".. إن يجيى الآن خطاباً من محمد أفندي - قريبي الذي يشغل وظيفة لا بأس فيها في القاهرة - إلى أخيه وصديقه عبد الرازق بك "هكذا كتب على مطروف الخطاب" ليعمل على تعييني معه أو في أي مكان، بما يملك من نفوذ.

هذا الإنسان الغريب الهام الذي لم أره في حياتي، والذي يتوقف على كلمة منه مستقبلي.. ما شكله؟.. كيف يتكلم؟.. كيف يسلم على الناس؟.. ماذا سأقول له ويقول لي؟.. وبأي هجة؟.. وقفزت إلى ذهني كلمات محمد أفندي الخنفاء.. "ده راجل عظيم.. لا تملك نفسك من احترامه... لما تفهمه وتقدره... يخدمك بعينه... بس إزاي تفهمه وتقدره؟... هو ده المهم...".

وشعرت ببعض الاضطراب، ماذا يعني محمد أفندي بقوله: بس إزاي تفهمه وتقدره؟.. ورحت أحاول أن أرسم له صورة في خيالي ولكن ذهني كان مشتتًا ففشلت.

إنها المرة الأولى التي أقابل فيها شخصًا من هذا النوع.. هذا النوع من المسئولين المهمين الذين يملكون مصائر الناس.. أعترف بأن محصولي من الخبرة العامة، أو الخاصة بالنسبة لهذا الصنف، محدودة بل ربما معدمة.

وأحسست ببعض السعادة لأني عرفت - أو بسيلي إلى أن أعرف - واحدًا من هؤلاء... أعرفه عن قرب معرفة شخصية.

وعدت أنظر إلى صف العربات في انبهار، و عاد الحلم يستيقظ في نفسي.. العربة!.. ورحت أتخيل نفسي في قلب إحداهما، أقودها في شوارع القاهرة، وظهري "مجموعس" إلى الوراء، ونظري تمتد إلى بعيد في غير مبالاة. واستمرأت خيالاتي فانسقت معها، وكأني أكمل قراءة رواية تركتها منذ مدة..

ورجعت مرة أخرى إلى عبد الرازق بيه، وكان قد أصبح صديقًا حميمًا لي، في الخيال طبعًا. ولم يكلفني هذا كثيرًا، إذ لم أفعل سوى أنني كنت

أوافقه في كل رأي يراه، وأطري كل تصرف يأتيه مهما كان تافهاً.. بل مهما كان خاطئاً.. ولكن ذلك لم يستمر أكثر من عدة مقابلات. وجد نفسه بعدها يسألني رأبي في أخص خصوصياته بمنتهى الاهتمام وهو يدعوني بصديقه العزيزاً.. عندئذ أصبح في إمكاني أن أثنيه عن رأي وأقنعه برأبي آخر، بنفس البساطة التي أخلع بها خاتمي من إصبع وأضعه في إصبع آخر.. تماماً كما قال (ديل كارنيجي) في كتابه الذي قرأته مؤخراً "كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس".

هكذا أصبحت من موظفي عبد الرازق بيه المقربين في نفس هذه العمارة.. وأصبح امتلاكي لعربة أمراً يسيراً بل مؤكداً جداً.. كلها كم سنة ويرتفع مرتبي.. - والبركة في عبد الرازق بيه - وأستطيع شراء عربة بالتقسيط، هناك عربات ذات أقساط مريحة جداً، عربات مثل تلك الحمراء التي تقف على اليمين.. ترى عربة من هذه؟... من يدري ربما كانت عربة عبد الرازق بيه.. إنها صغيرة جداً.. "فولكس واجن" ولكنها رائعة.. أو هذه الـ "أوبل" بجانبها.. بصراحة.. إن "الفولكس" ألد.. إنها تبدو كقطة صغيرة وادعة..

لو سارت الأمور كما أشتهي، فربما ركبت اليوم إحدى هذه العربات، إنني سأقابل عبد الرازق بيه الساعة الواحدة، فلأذهب الواحدة والرابع. وأمكث معه - لنقل - نصف ساعة، يكون ميعاد الخروج قد حان فأصعبه إلى أسفل، عندئذ - وهذا مؤكد - يعزم عليّ أن يوصلني إلى حيث أذهب، ويلح في العزومة، حتى أقبل في النهاية "مرغماً"، وغبت في خذر لذيد، وأنا أتخيل نفسي جالساً بجوار عبد الرازق بيه، وهو يحدثني حديثاً ودياً عن مستقبلي أو عن مشاكل المرور.

لم أعد أطيع صبراً، هناك طاقات تتفجر في داخلي، تدفعني إلى أن أقفز..
أجري.. أفعّل أي شيء آخر غير الجلوس هكذا.. ما زالت هناك ساعتان
بأقيتان على الواحدة، فلأقم وأصيها في أي مكان.

دفعت الحساب سريعاً، ولم أنس أن أنفح الجرسون بقشيشاً.. وسلمت
نفسى للشارع الكبير، ورحت أتأمل كل شيء بتمعن وشهية: واجهات
المحال التجارية.. إعلانات الأفلام الضخمة.. القودود الرشيقة المتمايلة..
وأسلمني الشارع إلى شارع وشارع، ولم أعد أشعر بنفسى، كنت قد
عرفت في هذا التيار المتدفق من الحياة.

ومع ذلك فقبل الواحدة بعشر دقائق كنت أقف أمام مدخل العمارة
أنتظر في قلق تمام الواحدة، كصائم ينتظر مدفع الإفطار.. وأتاح لي موقفي
هذا أن أمعن النظر عن قرب في العربات الواقفة، ولاحظت أنها نقصت
عدة عربات.. وانبثق قلق صغير في نفسى وراح ينمو... خشيت أن تكون
عربة "البية" إحداها..

وأنقذت نفسى من قلقي بالصعود. ومرة أخرى وقفت أمام موظف
الاستعلامات أنتظر الإذن لي بالدخول، وبعد قليل.. كان الساعي يقودني
إلى غرفة البية.. ودخلت.. ودقات قلبي تتسارع وتهمزني.

صمت... صمت رهيب حيّ يتمدد في كل مكان من الحجر.. في
الأرض، داخل السجادة السمكية، أخاف أن أطأه بقدمي فينتفض فرعاً..
في الهواء من حولي أنتفسه فيدخل إلى صدري ويكاد يزهق أنفاسى، في
المقاعد الوثيرة التي كانت تبدو وكأنها قطع أثرية لم تستعمل منذ آلاف
السنين.. حتى عبد الرازق بيه - ولا بد أنه هذا الجالس وراء ذلك المكتب

الضخم - كان يبدو وهو منكب على أوراقه وكأنما لم يلحظ وجودي،
قطعة من هذه القطع..

بصراحة.. خفت.. خوفاً قمت معه أن أفرّ، كأنني في عالم خرافي مجهول،
ولكنه أنقذني من خوفي عندما رفع رأسه في بطاء ونظر إلي بنظرة متسائلة.
واستطعت لأول مرة أن أمعن النظر فيه. ودهشت.. فقد كنت أتخيله
كهلاً ضئيل الحجم على عينية نظارة سميكة.. فمثل هذا المكتب الذي يجلس
فيه لا يصل إليه الإنسان إلا بعد صراع رهيب يستنفذ صحته وعمره..
ولكنني وجدت أمامي رجلاً.. إن لم يكن شاباً.. فهو على الأبواب الخلفية
للشباب، أعني للخروج من الشباب.. لم تكن على عينية نظارة، بل كانت
عيناه بارزتين، كبيرتين.. كل شيء فيه كان كبيراً وقويًا.. تقاطيع وجهه،
جسده الذي يشغل الجزء الأعلى منه مساحة كبيرة من المكتب.. وجاني
إحساس بأن هذا الرجل من الممكن أن يظل على تربعه الرصين على مكتبه
هذا عشرات أخرى من السنين، دون أن يستطيع أحد أن يزحزحه.

قلت في اضطراب ويدي تبحث في جيبي عن الخطاب:

- صباح الخير..

- صباح الخير..

قالها باقتضاب بصوت لم أكد أسمعه، مددت إليه يدي بالخطاب في
صمت وأنا أحاول أن أجد كلمة أقولها، تناوله مني في صمت أيضاً.. كل
شيء يتم في صمت، حتى الكلمات، تجس أن الصمت يغلفها حتى يختصرها
إلى أقصى درجة ممكنة للتفاهم، أحسست بذلك عندما قال بعد أن نظر في
المظروف من وجهه وظهره:

- من مين؟

- من الأستاذ محمد عبد الباقي..

زم حاجيه ونظر في حدة إلى لا شيء، وأحسست بوضوح أن السؤال المستفسر عن الاسم يقف على طرف لسانه وهو يمنعه، كأنما يخشى أن يخذش الصمت..

وفض الخطاب وبدأ يقرأه، ووجدت الفرصة في أثناء ذلك لكي أضحك بيني وبين نفسي من الكلمتين اللتين كتبهما محمد أفندي على ظرف الخطاب: "أخي وصديقي" .. ترى هل كل أخوته وأصدقائه يذكرونه بنفس الطريقة؟!

أطبق "اليه" الخطاب ووضعه في مظروفه بنفس الصمت دون أن يبدو على وجهه أي تعبير.. ولو حتى ما يدل على أنه عرف مرسل الخطاب وحتى تلك اللحظة لم يكن تنبه - أو لم يتظاهر بأنه تنبه

- إلى أنني ما زلت واقفاً أمامه.. قال:

- أنت من دفعة السنة اللي فاتت.. هه؟

- أيوه..

ظل برهة صامتاً يعبت بالخطاب بين أصابعه ثم رفع بصره نحوي وقال:
طيب استريح خمسة..

يخيل إلي أنه لو لم يعطني هذا الإذن، لكنت تماويت بنفسي على أقرب مقعد، كنت أريد أن أفرّ من هذا الموقف بأي شكل ولو بالارتقاء على مقعد.. عاد يقلب فيما أمامه من أوراق ودفن رأسه فيها وكأنما نسيتي

تماماً.. ولا أدري كم من الوقت مر على ذلك، ولكنني كنت أحس أن كل دقيقة تمر، تجرني معها إلى أعماق سحيقة من الصمت المضي الذي يزهق الأنفاس.. وانتشلي فجأة جرس التليفون وهو يرن بشدة.. ورفع عبد الرازق يبه السماعه وتمتم بكلمة آلو.. وفجأة انبسطت أساريه وهلّل وجهه وهو يقول:

– أهلاً أهلاً سامي بيه.. إزاي سعادتك.. بنسأل عنك كثير والله..
أفندم؟ أيوه...

واسترسل في حديث ودي طويل مع "سعادة البيه" وأنا لا أكاد أصدق ما أرى وما أسمع.. حتى عبد الرازق بيه يقول: يا سعادة البيه!.. وكيف يقولها؟... إنه ينطقها بأرق وأعذب لهجة تخطر على البال، وتذوب بهذه السرعة كل كآبته وغطرسته التي كانت تفرش وجهه منذ لحظة... إنه الآن يرسم على وجهه تعبيراً مدهشاً... ينظر بعين ونصف إلى الفضاء من خلال النافذة وشفته السفلى تمتد وتطبق على شفته العليا، وهو يدور بكرسيه المتحرك يميناً وشمالاً، إنها حركة رائعة تذكّرني بحركات ممثل سينمائي معروف.. وأحسست بأن كل ما أمامي تمثيل في تمثيل، وأنه لا حقيقة هناك...

ووضع السماعه أخيراً... وجع بسرعة كل ما أمامه من أوراق وأدخلها درج المكتب، وقد عاد وجهه يكتسي بما كان عليه قبل المكالمه.. هكذا بهذه السرعة.. ووقف.. والتقت عيناه بعيني وتمتم وهو يتحرك نحو الباب: يللا بينا..

وغمرتني الفرحة فجأة،، إنه يدعوني لأنزل معه.. الحلم الذي كنت أحلم به في القهوة والذي كنت نسيته تحقق! وخرجت خلفه وقد نسيت كل ما قاسيته منذ الصباح.

وتقابلنا في الردهة مع زميل له. وركبنا المصعد جميعاً، وأتمك الاثنان في حديث طويل، حتى خرجنا من العمارة واتجهنا إلى العربات الواقفة.. وتوقف عبد الرازق بيه أمام إحداهما: "جلانت"، ليست جديدة، ولكنها جيدة، وفتح بابها وما زلت وراءه، وأنا أقول لنفسي: ستركب معه يا ولد... هذا مؤكد.. بدليل أنه لم يكلمك عما سيفعله في أمرك حتى الآن..

إنه بلا شك يؤجل ذلك حتى نركب العربة ونصير وحدنا... ولكنني فوجئت به يقول لي بعد أن دخل العربة وأمسك بعجلة القيادة:

قول محمد أفندي إن شاء الله حاعمل اللي في إيدي.. بس أنت كمان تعمل اللي في إيدك.. هه؟

نطق الجملة الأخيرة بنغمة خاصة نقلت إلى ذهني معناها دفعة واحدة، إن خطاب محمد أفندي لا يكفي، هناك ما هو أهم من الخطاب..!

وقبل أن أقول شيئاً كان قد أغلق الباب وبدأ يدير محرك العربة ولكن زميله - الذي لم يكن قد ركب بعد - صاح فجأة وهو يشير إلى العجلة الخلفية:

- استنى يا عبد الرازق ... العجلة اللي ورا نايمه...

ونزل البيه ثانية وراح ينظر إلى العجلة ويفحصها، ثم رفع رأسه وأخذ يتلفت حوله كأنما يبحث عن شيء.. فجأة وقع بصره علي وأنا ما زلت

واقفاً بالقرب منه، إشارة صغيرة من يده، كلمة، كلمة واحدة أمرة، انطلقت كالغيار الناري لتصيب قلبي وتمزني هزاً..

ولكني وجدتي أسير نحوه كالمنوم بقوة خفية كرهتها وأنا لا أدريها.. وسبقني قبل أن ينظر إلي، وفتح الباب الخلفي للعربة، ثم قال، بابتسامة مصنوعة:

لو سمحت هات الكريك اللي عندك ده.. أيوه ده.. هاته وتعالى.. عاوزين نرفع العجلة دي.. تعرف إزاي؟.. كده.. ركّب الكريك هنا.. اقعد.. اقعد.. خذ الجرنان دا افرشه.. أبو كده برافو.. خش لجوه.. هه ركب، خلاص؟.. اطلع بقي.. إمسك دي.. ودور.. كده..

أمسكت بيد "الكريك" وأخذت أديرها، كانت ثقيلة، مرهقة ولكني لم أتوقف، لا أدري أي قوة هذه التي تدفعني: إنني أكرهك ولكني أضعف من أن أقف أمامها.. وأنا أكرهها ألث من ثقل الآلة، ولكني أدير، والعربة ترتفع من جانبي شيئاً فشيئاً، وشمس أغسطس الرهيبة مسلطة على رأسي في خط عمودي، والعرق يغرقني من رأسي إلى قدمي. وأنقذني صوته يقول أخيراً.

- كفاية...

ولم أكد أرفع رأسي وأتدارك أنفاسي وأجفف العرق عن وجهي الملتهب، حتى قال وهو يعود إلى الباب الخلفي للعربة:

- تعالى بقي... طلع العجلة دي...

وحملت العجلة الثقيلة إلى مكان "العمل" وأخذت أفعل كما يأمرني.. حللت صواميل العجلة الفارغة وأنزلتها، ثم ركبت مكانها العجلة

الاحتياطية وأخذت أربط الصواميل من جديد ثم قمت أدير الكريك مرة أخرى لأعيد العربة إلى وضعها. وأخيراً زحفت تحتها بظهري من جديد لأحل الكريك.. لم أكن أفكر ماذا أفعل؛ لقد تحولت تقريباً إلى آلة، ورغبتى فى التمرد على أوامر البيه المتتالية فترت بل تالشت، مشاعري كلها تبدلت، ولم أعد أفكر إلا فى الخروج بسرعة من تحت العربة.. وبعد ذلك أفكر..

وسمعت وأنا مستلق على ظهري تحت العربة صوت زميل البيه يقول:

- عملية شاقة.. أمثال تعمل إيه لو عملتها معاك وأنت ماشي لوحذك؟..

- بسيطة قوي.. أي سواق تاكسي ماشي أوقفه يعملها فى خمس

دقايق.. وأجرتها معروفة.. عشرة صاغ بس..

توقفت يدي عن العمل لحظة، وحلقت فى بطن العربة الأسود وأحسست أنما تدور بي.. وخرجت أهث، وجسمي كله جهرة ملتبهة والعرق يغرقني، ونظرت فى يدي، كانتا ملوثتين بالشحم.. شحم أسود لزج.. أحسست أنه دم الجريمة التي ارتكبتها..! وفي هذه اللحظة فقط استطعت أن أقف أمام القوة التي كانت تسيرني وأكرهها.. بل وأعلن التحدي لها.. عندما طلب مني البيه أن أضع العجلة والأدوات مكانها بحقيبة العربة الخلفية.. فقد رددت ويدي تترتجفان:

- متأسف.. مش حقدرو أشيلهم..

وتدارك زميله الموقف وقال بسرعة: وهو ينقل الأدوات: معلش أصله

تعب أوي.. كتر خير..

ثم بدأ ينقل الأدوات بنفسه، بينما اقترب مني عبد الرازق بيه وقال في لهجة رقيقة والابتسامة المزيفة على شفثيه:

- تعبت صحيح؟ والا زعلت؟.. لازم تتعود على الحياة العملية من دلوقت... والحياة العملية عاوزة كدا وأكثر من كدا.. خد الخرقه دي امسح إيدك.. خد..

ورغم اللهجة الودية التي حدثني بها، ورغم أنه ربّت على كتفي بيده النظيفة، إلا أنني لم أكن أتمالك نفسي من كرهه..

وركب أخيراً، وركب بجواره زميله وعزم عليّ أن يوصلني ولكني رفضت، رفضت بصدق.. وقال كلمات أخرى سمعتها ولكني لم أعها.. وسارت العربة، وتابعتها عيناى حتى اختفت، ونظرت إلى يدي، كان ما زال بهما بعض آثار الشمع.. أخرجت منديلي في الحال ورحت أحكهما به حتى أزلتها ثم رميت المنديل بعنف، مكان العربة تماماً.. وسرت.

الضربة الأخيرة

كإنسان أممكه الجوع يقيق فجأة على مائدة حافلة بأشهى الأطعمة، راح "حامد" يعب من كل ما فى ساحة مولد "الجوهري" بشرامة مسعورة كأنما ينتقم من شقائه الطويل خلال سنين كثيرة مضت، خالية من نسمة رقيقة تخفف من وطأة هذا الشقاء. فهذه أول مرة يقام فيها مولد بقرته.

وعندما كان خارجاً من السيرك، استلقت نظره تجمع كبير حول لعبة لم يرها، فخرج عليه لتوه، وشق لنفسه مكاناً بين الحشد المجتمع حول الحاجز الخشبي الذي يحده ساحة اللعب، راح يحملق أمامه فى شبه بله، محاولاً أن يفهم هذه اللعبة: "علب صفيح.. كرات شراب.. تنشين!.. وشيئا فشيئاً بدأ فمه ينفرج فى ابتسامه عريضة، بانت وراءها أسنانه الناصعة فى ضوء (الكلوب) فتراقص بالتالي فوق فمه شارباه الطويلان المبرومان لأعلى، حيث يحصران أنفه فى شبه قوسين، فقد فهم الآن اللعبة تماماً، إذ ما على اللاعب إلا أن يأخذ هذه الكرات الثلاث، "وينشن" بها - واحدة واحدة - على تلك العلب الست الصغيرة، المرصوفة فى صفين على ذلك الرف، فإذا أوقعها جميعاً فاز بعلبة (ملبن) أو بثلاثة قروش.. كما يشتهي.

ومع أن هذه اللعبة كانت تشبه إلى حد كبير لعبة (الميس) التي لا بد قد مارسها كل رجال القرية أيام طفولتهم وصباهم، إلا أنهم وقفوا أمامها في شبه عجز، فكل كراتهم التي يقذفونها تطيح بعيداً عن العلب، أو تتعدها بستيمترات قليلة.

ظل حامد في وقفته مدة دون أن يحس بوجود أحد. وينظر أمامه والابتسامة على فمه تزداد اتساعاً، كأنما يستخف باللعبة ولاعيها الفاشلين، ثم بدأت العدوى تسري إلى يده وامتدت أول الأمر تتحسس القروش القليلة المتبقية من أجره في جيبه.. وتردد للحظات عندما قفزت إلى ذهنه فجأة. صورة زوجته وهي تطالبه هذا المساء بقرشين لتشتري بهما جنباً لعشاء العيال، وهو يراوغها ويخرج حتى لا يحرم من متعة الليلة.. وبينما كانت هذه الصورة في رأسه، كأن يخرج من طيات ملابسه سيجارة مشية ويضعها بين شفتيه ويشعلها، ثم بدأ ينفث دخانها وهو يتقدم قليلاً حتى لاصق الحاجز الخشبي.

وبعد قليل كانت الكرات تستقر بين يديه؛ ليُقذف إحداها إلى أعلى ثم يلتقطها ويتلوها بالثانية ثم بالثانية معاً.. وثبت سيجارته في جانب من فمه، وبدأ التصويب في ثقة.. وتمكّن.. وهدأت الضجة قليلاً وازداد الواقفون اقتراباً من الحاجز، وفي داخل الساحة الصغيرة يتحرك صاحب اللعبة رانحاً غادياً دون توقف أو ضرورة محدثاً ضوضاء تفوق ضوضاء المتفرجين، وهو يحاول - معتمداً على مفعول كلمة "الملبن" - إغراء الواقفين باللعبة.. وثمة امرأة تجلس في ركن مزو على مقعد في تراخ ظاهر، ويدها تحت ذقنها، تنظر بعينين باردتين جهيلتين.. ببلادة ولا مبالاة، وكأن الأمر لا يعينها.

قذف حامد أولى كراته فاصابت العلب الصفيح وأطاحت بنصفها بعيداً عن الرف، ثم تلاها بالثانية فاطاحت بعلبتين، وصاح الرجل مغطياً على ضجة المتفرجين "وقد بدأ الفأر يلعب في عبه":

- أهو كدا اللعـب.. شد حيلك فاضل واحدة بواحدة.

وانطلقت الكرة الثالثة، قوية رصينة لتطيح بالعبة الأخيرة.

وضج الواقفون بالصياح مبهورين ثم راحوا يعبرون عن إعجابهم بقدرته الخارقة عن طريق الشتائم التي أمالوا بها عليه وهم يضحكون.. فمع أنهم جميعاً يعرفون رميته التي لا تخيب أبداً في "التنشين" على الميس منذ صغره، إلا أنهم استكثروها عليه أن يفعلها من أول مرة.. فليس شيء، والعلب الصفيح المقفولة، الآتية من البندر - والتي لا بد أن بداخلها شيء يبعد الكرة عنها - شيء آخر!

وسلمه الرجل علبة الملبن على كره حاول مداراته، وهو يقول بلهجة أقرب إلى الغيظ:

- جدع.. تلعب تاني؟..

قال حامد بنشوة وزهو وهو يتناول علبة "الملبن" بينما عبارات الإطراء تنهال عليه من كل صوب.

- أيوه إن شاء الله.

وفي هذه المرة تطايرت العلب كلها بعد الكرة الثانية.

وازداد الضجيج، وازدادت التعليقات والشتائم المرححة الموجهة إلى حامد، تعبيراً عن الإعجاب.

ولعب للمرة الثالثة والرابعة والخامسة حتى امتلأت جيوبه بعلب
"الملبن"، وحتى نفذت القروش المتبقية معه من أجر اليوم.. فاكفى بغيمته
الدسمة، وإن لم يكن شبع لعباً بعد، وسار وسط ضجيج المتفرجين وهتافهم
مزهواً كقائد منتصر، سعيداً سعادة لا يذكر أنه شعر بمثلها من قبل..
فالليلة سيصبح هو وزوجته والعيال من أكل "الملبن" بدلاً من العيش والجن
الذي تشاجرت معه زوجته بسببه ساعة المغرب.. سيأكلون الملبن الذي
طالما حلموا به واتخذوه مثلاً لألد شيء في الدنيا..

وفي الليلة التالية كان أسبق الحاضرين إلى ساحة اللعب.
وفي الحال كانت الكرات قد وصلت إلى يديه وكانت الحلقة تزدهم
بالتفرجين، وعبارات التشجيع تصل إليه من كل ناحية.
ميت مسا يا بو شوارب.. ياللا ورينا همتك.. عايزينك تلعلع الليلة
كمان..

وأصابها أبو شوارب من أول مرة ببساطة، وفمه مفتوح يلعب فيه صفان
من الأسنان الناصعة، لمعاً يتجاوب مع لمعان وجهه الأسمر، ولما أعطاه
الرجل علبة الملبن (المعهدودة)، فضل أن يأخذ بدلاً منها الثلاثة قروش،
ولكن الرجل رفض.. عندئذ ثار عليه كل الواقفين وأصر على رفضه،
وذهب إلى أكثر من ذلك فقال أن (أبو شوارب) لن يلعب مرة أخرى..

وازدادت ثورة الثائرين، بل هددوه بالطرد من المولد كله.. لم يكونوا
يدافعون عن حامد في ذاته وإنما عن شيء يملكونه جميعاً، شيء خارق
يجعلهم يشعرون بالزهو أمام أبناء القرى المجاورة الذين جاءوا يتفرجون
على المولد.

وفي هذه اللحظة حدث شيء.

تحركت المرأة الجالسة بجوار المنصة في هدوء، وقامت، ثم سارت بخطوات بطيئة متساوية ليظهر عودها الفاتن الملفوف بفستان أحمر فاقع جذب أنظار الثائرين.. كانت هذه أول مرة في تلك الليلة - بل ربما منذ أقام الرجل لبعته في المولد - تُبدي فيها اهتمامًا ما نحو ما يدور حولها.. تقدمت من زوجها وقالت له بصوت لا يكاد يسمع:

- ربح الزباين يا عبده.. سيهم يلعبوا زي ما هم عايزين.

التفت إليها الرجل صائحًا:

- زي ما هم عايزين إزاي.. دول عايزين يخربوا بيتنا!

لم ترد عليه، وإنما نظرت إليه نظرة ما، وهي تمد يديها إليه وتأخذ الكرات في هدوء.. وفهم الرجل مغزى النظرة فانسحب من الساحة كلها في الحال.. بلا كلمة. واتجهت هي ناحية الحاجز الخشبي حيث يقف حامد متحفزًا، وقالت له بنفس لهجتها الخافتة جدًّا، وكأنها مستيقظة لتوها من النوم.. وثمة ابتسامة على شفيتها.

- طلباتك إيه يا بو شوارب؟

- عاوز تلاته ساغ...

- بس كده؟.. من عينيا...

قالت (من عينيا) وهي تسكب عليه من عينها حقًا... نظرة أرجفت كل كيانه، ثم استدارت في دلال إلى البنك، حيث صندوق النقود،

وامتدت نظراته تتابع ردفها الرجاجين مع سيرها، حتى عادت وناولته القروش الثلاثة، وهي تصوب نحوه بسخاء نظراتها المكهربة...، وتقول:

- مبسوط؟.. تحب تلعب كمان؟..

هز رأسه موافقاً وهو يناولها قرشاً، وأحس بقشعريرة عندما لمست أنامله بالقرش راحتها البضة، وناولته الكرات؛ وحرصت هي هذه المرة على أن تلمس أصابعها أصابعه.

واستدارت بمحركة فاتنة، وأخذت تجري بدلال ناحية العلب الصفيح وعدلتها، ثم وقفت بجوارها مستندة بذراعها العاري على الرف وهي تنظر إلى حامد بنظرات نفاذة وتقول له بلهجة بطيئة مغرية:

- على مهلك.. خذ بالك كويس يا بو سمرة...

كان المتفرجون خلال ذلك يتابعون ما يجري أمامهم بعيون جاحظة تسلط على المرأة نظرات ملتبهة جائعة، تحكى حرمانهم الطويل، وقد انفرجت شفاههم وتدلّت، غير مصدقين أن هذه المرأة هي نفسها التي كانت تزوي منذ قليل صامتة غير مبالية وكأن لا وجود لها... ونسوا حامداً ونيشانه..، حتى إذا ما قالت وهي تتأود، خذ بالك كويس يا أبو سمرة.. راحو يصيحون ويصفرون ويضربون بعضهم في خبل، ثم اتجهوا إلى حامد يكيلون له الضربات.. وارتيك حامد، وراح يدافع عن نفسه وهو يضحك في بلاهة.. وهدأت العاصفة تدريجياً، ثم ساد السكون تماماً وهو يميل إلى الوراء قليلاً متأهباً لقذف الكرة.. وهوت علبتان.. ثم ثلاثة... ثم واحدة...

ودوت عاصفة من التصفيق والضجيج، وتزايد دويها عندما اتجهت
المرأة بالكرات إلى حامد وهي تضحك بدلال وتغمز بعينها قائلة:

- فل عليك يا واد يا سمارة...

واقتربت منه وهي تقول بصوتها الهامس والنظرة المنسكبة بالسحر.

- عايز فلوس وللا ملين يا بو شوارب.

- اللي تجيبه...

- حاجيب لك ملين... أنا عارفك بتحب الملين.

قالتها وهي تستدير متأودة وتسير تهر ردفها معها.. أراد أن يرد:

"وأموث في الملين"، ولكن الصوت لم يخرج لشدة ذهوله..

وعادت إليه بعد قليل بعلبة حلوى ومالت جداً على الحاجز وهي
تعطيها له، حتى كادت خصلة من شعرها النافر من تحت مندبها الأحمر
تلمس وجهه، وحتى استطاع أن يشم رائحة فمديها اللذين يكادان أن يقفزا
من فتحة صدرها وهي مائلة عليه تقول، تحب تلعب كمان؟

واستطاع أن يقول، وهو يحس أن أذنيه تلتهبان.

- يا سلام.. دانا ألعب ونص..

ولعب والجسد الفائر يتخايل أمامه، ويجتذب نظراته من على العلب
اجتذاباً... ووجد نفسه يقارن بينه وبين جسد زوجته... وأحس بالرغبة في
أن ييصق!..

وانتهت الكرات الثلاثة، وما زالت هناك على الرف.. علبة!..

وخيم الصمت قليلاً على المكان، صمت متوتر مشدوه، ثم عادت الضجة تعلو وتعلو، وهو يحس أنها تسخر منه...
كانت هذه أول مرة يخيب فيها تصويب حامد..
وجاءه صوت المرأة قائلاً في سخرية لسعته.
- معلهش يا بو شوارب.. فرقت بنطاً..

وأعطاها قرشاً آخر في سكون، وهو يجاهد لكي يبدو غير مبال بفشله..
وجاءته بالكرات، واقتربت منه جداً وهي تناولها له، حتى أحس أنفاسها الحارة تلمح وجهه وتسري في كل دمه، ونظر إلى صدرها المكشوف قليلاً، ثم رفع عينيه بسرعة إلى وجهها، فالتقتا بعينها اللتين تصرخان بالنساء، وراودته نفسه أن يلبي نداءهما ولكنه أغمض عينيه خائفاً، ولما فتحهما كانت هناك واقفة بجانب الرف، ذراعها البض مستند إليه، ويدها الأخرى على خصرها، وكأنها تتحداه.. وأحس بكل كيانه يضطرب.. وأصبحت اللعب أمامه مضاعفة تعلو وتهمط مع أنفاسه اللاهثة في غير انتظام، بينما كانت ضجة الحاضرين تصل إلى أذنيه وكأنها آتية من غيطان بعيدة..
ولم يصب الهدف هذه المرة أيضاً..

ولم يشأ أن يسلم فشله.. فلعب مرة أخرى، وفشل.. وازدادت حرارة أنفاسها على وجهه.. وتعلو وتهمط.. وفشل.. وفشلت أنفاسها بعض الشيء، ولم تعد تقترب منه جداً، وازدادت الضجة وصيحات السخرية، وتضخم أمامه فشله، فلعب.. ولم يعد يرى الهدف.. وفشل.. وانتهت نقوده.. فباع لها عالية الملبن بقرشين ولعب.. وفشل.. ولعب.. وفشل...

وتراجع عن الحجز، واستدار مبتعدًا، وسط صيحات المتفرجين
وضحكاتهم.. وهو في منتهى الشقاء.. ووصل البيت.. بلا ملبن ولا نقود!
وجاء في الليلة التالية في نفس الموعد، وعنده يقين من أنه سينتشل كرامته
من الأرض، ويعوض فشله ليلة أمس.. وكان في جيبه الليلة (يوميته)
بأكملها.. وهي لا تزيد عن عشرة قروش.. جاء بها بعد أن تشاجر مع
امرأته مشاجرة انتهت بعلقة أرقدمًا تبكي وتندب حظها وحظ عيالها..

ولكنه ما أن وصل إلى الساحة الصغيرة واستقبلته المرأة - بعد أن نحت
زوجها جانبًا - بأهلاً يا بو سمرة.. وما أن وضع القرش في يدها ولا مست
أنامله راحتها الدافئة، حتى سرت الكهرباء من جديد في كل بدنه، وتذكر
كل ما اتابه أمس من سهاد معظم الليل بسببها..

وجاءت بالكرات وهي تبسم وتتميل، وصدرها الشامخ ينفر في وجهه
متحديًا، واقتربت منه، ومالت عليه، وأخس لفح أنفاسها، ومدت إليه
يديها بالكرات، ومد إليها يديه ليأخذها منها، والتقت أصابعه بأصابعها،
وزحفت إلى ظهر يديها.. تتحسسها، وتضغط عليها قليلًا، فلم تبس
اعتراضًا، فضغط أكثر، وحاولت يدها أن تمتد أكثر، فنظرت إليه نظرة
عتاب قاسية قليلًا وتركت في راحته الكرات وجرت مسرعة إلى العلب
تعدنها وتقف بجوارها في وضعها المتحدي المثير...

وغامت أمامه المرثبات برهة، ثم أخذت تتضح ثانية، كما يحدث له
عندما يرفع جذعه فجأة عن الأرض التي يعزقها..

وحاول أن ينظر إلى الهدف، ولكن عينيه اصطدمتا بالجسد الواقف في
تحد وانتظار.. ولما عاد إلى العلب وجدها عادت إلى التناقض والتكاثر
والعلو والهبوط...

ورمى أول كرة.. بلا هدف ولا تصويب، ولا حتى رغبة في الفوز ورمى في إثرها بالثانية، فالثالثة، فلم توقع جميعًا إلا عليتين فقط، وأخرج قرشًا آخر، وجاءته المرأة بالكرات، ولفحته أنفاسها، وتحسست أصابعه يدها وراحت تعدل العلب، ووقفت تنتظر...

وأخذ هو يضرب.. ويضرب.. وصدر المرأة يتجسم أمامه ويتضخم ويفشل.. وتلفحه أنفاسها.. ويلمس يدها.. ويضرب.. في جنون.. بلا هدف ولا رغبة في الفوز.. كل ما يريد أن يلعب، ويغلي دمه بحرارة أنفاسها ولمس يديها. كان في أقصى حدود النشوة.. كنشوة السكران.. والسياح حوله يشتد. والضحكات تدوي. والنكات يزاحم بعضها بعضًا في الأفواه، وهو لا يسمع ولا يحس بها.. والقروش تتسرب من جيبه الواحد تلو الآخر.. وأفاق فجأة عندما وجد أنها نفذت عن آخرها، فتلفت حوله وهو يلهث وكأنه يبحث عمن يعطيه قرشًا، وظل مترددًا برهبة، وتذكر شيئًا فوضع يده بسرعة في جيبه وأخرجها وبها سيجارتان. هما كل ما معه.. مدهما للمرأة وهو يقول:

- تاخديهم؟..

نظرت إليه وهي تضيّق عينيها وتقصع جسمها في وضع تمثيلي، وظلت تنظر إليه بهذا الوضع مدة خالها ساعة.. بهدوء غريب مدت يدها وتناولت منه السيجارتين. ثم ذهبت وجاءت بالكرات. ومدّتها إليه من بعيد، وهي تنظر إلى جهة أخرى.. وحاول أن يلمس يدها كما كان يفعل. ولكنها سحبتها بسرعة. وراحت تعدل العلب..

أحس كما لو أن أحدًا قذفه في بئر سحيق مترع بالماء، فراح يغوص إلى أن بلغ القاع، ثم أخذ يطفو من جديد.. وأفاق وأشياء كثيرة غامضة تشابك وتفاعل في أعماقه لتكون مزيجًا يكاد يزهق أنفاسه. ورمى بإحدى الكرات بلا تمنع أيضًا، ولكن بفتور لم يتعوده، وتلاها بالثانية، وبقيت على الرف ثلاث علب وفي يده كرة واحدة.. وظل برهة ساكنًا يحدق في اللعب حينًا. وفي المرأة الواقعة حينًا آخر ولم تعد في صدرها المغناطيسية التي كانت تستقطب بصره منذ قليل.. وطال سكونه، وتحديقته، والناس تضحج بالضحك، والسخرية، وترك بعضهم المكان ومضى.. في خيبة أمل! ولكنهم اتجهوا إلى أنه توقف عن اللعب ومازالت في يده كرة.. ومع يقينهم بالألا جدوى منها. إلا أنهم تشبثوا بهذا الأمل الواهي.. هذه المعجزة التي تنقذ بطلهم.. فحفت ضجتهم شيئًا فشيئًا حتى تلاشت تمامًا، وهو ما زال يحدق إلى الأمام في سكون. وطال الصمت.. مشحونًا بالتوتر.. وفجأة صاحت المرأة من مكانها عند الرف قائلة:

– ماتيلًا يا أخي خلصنا بقي خللي غيرك يلعب...

لم يكن أحد حتى الآن سمعها وهي ترفع صوتها.. لذلك فقد كانت صحتها غريبة على الجميع حتى ظنوا أنه ليس صوتها.. كان صوتًا غليظًا شرسًا محشرجًا مليئًا بالتعب والملل. ولأمر ما أحس حامد بأن هذا هو صوتها الحقيقي، أما ذلك الصوت الذي كانت تناجيه به أمس واليوم فقد كان صوتًا مزيفًا.. استعملته لتصل إلى غرضها.. وتحولت المرأة في عينيه إلى مسخ بشع تملكته رغبة قوية لأن ينقض عليه ويسحقه.. وفجأة جاءته فكرة ملحة.. جعلته يركز عينيه بقوة على جبينها ويميل بكتفه وذراعه

الأيمن إلى الوراء... و... ولكن شيئاً غامضاً جعل ذراعه يتصلب في مكانه،
ثم يتراخى إلى وضعه الأول..

وبدأت الهمسات تتعالى، والغمزات تتزايد، وشقت الصمت الهامس
فجأة صيحة جادة مشفقة.

مالك ياد يا حامد، العبها يا جدع وزبي ما يكون.. هو قدامك
وحش؟..

- وانتبه حامد إلى نفسه ونظر أمامه بعيون تلتمع بيريق وحشي،
واصطدم بصره بالعب الثلاث الباقية في غير نظام على الرف، وكأنها
شواهد كريمة على فشله ومهانتة، ووجد نفسه يميل بكتفه الأيمن إلى
الوراء، وبكل ما أوتي من قوة قذف الكرة في اتجاه العب، فأطاحت بها
جميعاً..

وضح المكان فجأة بضجة هائلة تصرخ في ظفر، واندفع بعضهم إليه
يحتضنه ويقبله.. بينما كانت المرأة تتجه إليه بعلبة من عب الحلوى، ثم تمد
له يدها بما، وابتسامة مرتعشة على شفثيها... ونظر إليها حامد في صمت،
نظرة طويلة جامدة وترك يدها معلقة بعلبة الحلوى.. وأخيراً تناولها منها. ثم
فجأة، وقبل أن يستدير قذفها باحتقار في وجهها، واستدار في هدوء، مخترقاً
الضجة المذهولة وسار في خطوات بطيئة واثقة، وهو يحس أنه استراح من
ذلك المزيج الذي كان يجثم على أنفاسه... وظل يسير.. حتى اختفى في
زحمة المولد.

الباب

فجأة صمت كل شيء، وجثم على صدر المرسم سكون مشحون بالتوتر والتحفز، وراحت كل العيون تتابع القميص وهو يرتفع ببطء، ليكشف تمامًا عن الجسد الأسمر، وعند الكتفين توقف؛ كانت الصرخة تدوي في رأسها وتحاول أن تصل إلى لسانها لتتطلق: "لا.. لا يمكن" .. وظل القميص معلقًا للحظات، والصرخة تزداد إلحاحًا، ولكنها بغتة نزعته وألقته بجانبها وأغمضت عينيها وهي توشك أن تنهاوى.

- اقعدى.

كان نصف الدائرة يزداد اقترابًا وتضييقًا عليها، وخرج من وسطه الأستاذ، بقامته القصيرة ونظارته المذهبة، وتقدم منها بعد أن جلست، ولمس يده ذراعها ليعدها في الوضع المناسب. اقشعر جسدها كله كأن يده مكهربة. والدفع الدم يلهب وجهها.. ولكنها - مرة أخرى استسلمت للأصابع والأوامر، وراحت تتحرك بلا مبالاة: تقوم، وتقعده، وتنام، على الجنب الأيمن مرة والأيسر مرة، وبعد كل حركة يتعد الأستاذ وينظر إليها وهو يضيق عينيه، ويميل برأسه على الكتفين؛ ليعود ويجر كهها في وضع

آخر. وأخيراً، استراح إلى الوضع الذي يريده، وأشار للطلبة أن يسدّوا الرسم وما أن ترك المكان، واتجه إلى الطلبة الذين يرسمون في الجانب الآخر، حتى انطلقت الضوضاء المعتادة لجرجرة الحوامل، وتثبيت اللوحات، والمشاحنات حول اختيار أماكن الجلوس أمام (الموديل). وأخيراً خيم السكون من جديد، ولكنه سكون هادئ وديع، خال من أي توتر، لم يعد يحدسه غير حفيف الأقلام وهي تخطط على اللوحات، لكن التوتر ظل باقياً في نفس (صفية)، وأصبحت العيون التي تنظر إليها إبراً مسمومة تنغرز في لحمها.. أغمضت عينيها حتى لا تلتقي بعيونهم. فعاجلها أحدهم طالباً منها أن تفتح عينيها، وطلب منها آخر أن تنظر ناحيته...

كانت مستلقية على ظهرها، ورأسها مائل إلى اليسار مستنداً إلى ذراعها.. فتحت عينيها. لم تكن الرؤية واضحة بالنسبة لها كأنما ترى الأشكال مقلوبة. فجأة اصطدمت عيناها بالفتاة الجالسة هناك في الطرف الآخر من الرسم وهي تجلس على مقعدها المرتفع أمام الطلبة الذين يرسمونها.

ازداد توترها، وأصبحت نظراتها تطفح بكل ما امتلأ به صدرها... كان هذا الصباح طبيعياً، قبل أن ترى وجه هذه الفتاة، كانت تقف مع زميلاتها الموديلات يثرثرن أمام باب الرسم عندما رأيتها تدخل مع الأستاذ.. صمتن فجأة عن التثرثرة، وبالرغم من أنه لم يكن يبدو عليها أبداً أنها جاءت لتعمل موديلًا، إلا أنهن أحسنن بذلك بشكل ما، ودخلت إحداهن الرسم لتؤكد، وخرجت بعد لحظات لتعلن لهن أن الأستاذ يعد لها وضعاً أمام طلبة سنة رابعة.. عندئذ أخذن يتسربن إلى الداخل الواحدة تلو الأخرى، ورحن

يتأملنها في انبهار... كانت نوعًا جديدًا تمامًا من الموديلات... لم يبق منهن
أخيرًا في المرسوم غير عزيزة وهي، كانتا تنتظران دورهما للعمل.. همست
عزيزة:

- يقولوا إن لها عربية ملاكي بتوصلها الكلية وترجعها.
نظرت إليها صفة في شك. ثم هزت كتفيها باستخفاف، وهمست بعد
قليل:

- حقلع؟

نظرت عزيزة في عينيها في صمت ثم مطت شفيتها وقالت:

- مش معقول.

- مش معقول ليه؟ هي مش موديل زينا؟

- لا يا حبيبي مش زينا.

قالت صفة بضيق.

- أما جايه ليه.

لعبت عزيزة حاجبها وقالت: غاوية ا

ثم أطلقت ضحكة خاصة...

وبان الغضب على وجهها، وأمسكت بذراع عزيزة في انفعال قائلة:

- اسمعي يا عزيزة مفيش حاجة اسمها غاوية ومش غاوية.. ما دام جت

هنا تبقى زينا تمام.. تعمل زي ما بنعمل...

وقبل أن تقول شيئًا آخر، رأت الأستاذ يتجه إليها مع بعض الطلبة وهو

يقول:

- يللا يا .. أنت .. يللا اقلعي عشان سنة تالته ..

وقفت أمامه مرتبكة والغيط يخنقها، وراحت توزع النظرات بينه وبين الفتاة الجديدة.. كان هناك كلام كثير يتدافع إلى فمها، ولكنها لم تستطع أن تنطق منه شيئاً، وزاد ارتباكها، بينما راح هو يستحثها بكلمة: يللا .. وبلا تردد انطلقت الكلمة من فمها:

- مش حاقدر أقلع النهاردة يا أستاذ.

قال بدهشة: ليه؟!

عادت توزع النظرات بينه وبين الفتاة، ولم تقو على أن تقول شيئاً - أعاد عليها السؤال بنفاد صبر، ووجدت نفسها تقول:

- أصلي تعبانة النهاردة.

- أمال جاية ليه لما أنت تعبانة؟

قالت بعد تردد:

- ممكن أشتغل بهدومي ..

اندفع يقول ويدها تشبكان بقوة وراء ظهره:

- اسمعي يا بنت .. اللعب ده أنا مش عايزه .. إن كان مش عاجبك

الشفغل هنا ممكن تروحي وما تجيش خالص .. حتقلعي وللا لأ؟

كان شيئاً غريباً أن يرفع الأستاذ صوته غاضباً هكذا داخل الرسم، اقترب منه معظم الطلبة صامتين، وخيم السكون رهيباً يطن فيه صدى

الصوت ووقفت صفة تملق في الرجل في حيرة مذهولة، وهو يثبت عليها عينيه متحدياً، ثم أطرقت برأسها الذي كان يدور كالطاحون، ووجدت نفسها تسير في صمت إلى المكان المعد لوقوفها، وتابعتها الواقفون والتفوا حولها في نصف دائرة، راحت بعيونها الكثيرة تجردها من ثيابها قبل أن تخلعها. نزعَت ملابسها الخارجية بشكل آلي، وعندما بدأت تزع القميص الأخير، بدأت الكلمة تعلو وتعلو وحتى تحولت إلى صرخة تعربد في رأسها! "لا.. لا يمكن!" لقد عاد الإحساس بأن جسدها يمتهن؛ تتحسسه الأيدي وتلتهمه العيون، كجسد ليل رخيص، عاد هذا الإحساس يملأها بالرعب..

فُتح باب الرسم فجأة، ودخل أحدهم وتركه موارباً فاندفعت تصيح:

— أنت يا أحياناً.. أقفل الباب.. مش شايف أن فيه عريان؟ وبينما عاد الطالب ليغلق الباب، كان صوت ممطوط يرتفع بسخرية:

— رجعتا تاني لحكاية الباب؟!

للوهلة الأولى، دهشت عند سماع الجملة، كانت قد نسيت هذا الموضوع تماماً، لقد مضت عليها شهور كثيرة، منذ جاءت إلى هنا لتعمل كموديل لأول مرة.. لم يكن يمر يوم دون أن تصرخ مائة مرة: الباب.. الباب..!!.. كان باب الرسم هو عدوها الأول، كلما تركه أحد مفتوحاً وهي عارية، أحست بأن عيون جميع البشر خارج الرسم تنفرج عليها، كان رعبها من الباب يصل في بعض الأحيان إلى حد الإغماء، حين يشور عليها أحدهم ردّاً على ثورتها لتركه مفتوحاً. وعندما تفيق، كانت تنخرط في بكاء طويل وتقرر أن تذهب ولا تعود أبداً ولو ماتت جوعاً.. لكنها

كانت دائماً تعود.. وتستسلم، في أول الأمر كانت تصرفاتها تثير الخوف في المرسم، ثم أصبحت تثير الرثاء، وأخيراً أصبحت تثير الضحك.. حتى هي نفسها صارت تخجل من فعلها.. حتى بات الأمر في النهاية عادياً تماماً؛ سيان عندها أن يراها الناس عارية أو لابسة.. كل شيء بالنسبة لها أصبح بلا معنى، غير أنه عمل؛ مجرد عمل كأى عمل آخر تنال عنه قروشاً.. مم تخاف؟.. من الناس؟ طظ!.. وعلى ماذا؟.. على جسدها؟.. طظ.. أيضاً!.. وهي تعمل لا تعده جسدها، إنها تسلمه لهم. يفعلون به ما يشاءون!..

مرة أخرى، التقت عيناها بالفتاة الجالسة هناك في الجهة الأخرى ومن وضعها المقلوب، راحت تحاول أن تتأمل الموديل الجديدة، وبدت لها في ارتفاع شاهق، وكلما أمعنت النظر فيها ازدادت ارتفاعاً.. في عظمة ملكية! كانت تنظر إلى الأمام بعيون واسعة لا تطرف دون أن يبدو عليها أنها تحس بأي شيء مما حولها... وبدأت صفة تكتشف فيها أشياء جديدة لم تكن لاحظتها من قبل: القفاز الأبيض الذي يمتد إلى نصف ساعدها.. الرقبة المفرطة الطول وفي نهايتها العقد اللولي يتألاً في صفتين.. الشفتان الصغيرتان المضمومتان بإحكام.. وسألت نفسها بدهشة: ماذا جاء بها حقاً؟.. إن كل ما يقال عنها جائز جداً.. حتى أن تكون لها عربة.. هل صحيح هي مجرد غاوية كما تقول عزيزة؟ لماذا لا تخلع ملابسها إذن؟!

تلملت الفتاة في هذه اللحظة، ونظرت في ساعتها برشاقة، ثم نظرت فيما حولها كأنها تبحث عن شيء، عندئذ وقع بصرها عليها. ثبتته لحظات على جسدها العاري، ولم تستطع صفة - لبعده المسافة - أن ترى ما بدا

على وجهها في تلك اللحظة، ولكنها رأقا بوضوح تجذب طرف الفستان الضيق؛ لتغطي به ركبتيها العاريتين، ثم تعتدل وتمد بصرها من جديد إلى الأمام، في ثقة بلا حدودا..

راودت صفة الرغبة في أن تضحك، ولكن فمها كان مطبقًا بشكل كان من الصعب جدًا أن ينفرج حتى في ابتسامة. وفي الداخل كانت أسنانها تتطاحن!..

انتهابا الملل فجأة، وألحت عليها الرغبة في أن تقوم وترتدي ملابسها. تحركت تسألهم عن الساعة.. انطلق أكثر من صوت يأمرها بأن تعود إلى وضعها ولا تتحرك.. اختنق صدرها بالغيظ، وازدادت رغبة في القيام. فكرت قليلًا، ثم قالت وهي تعتدل:

— أنا بردانة.. عايزة دفاية.

وخرجت "أوه" من أكثر من فم، مشحونة بالغيظ والسخط، ورمى أحدهم قلمه وجلس واضعًا رأسه بين راحتيه، وقال آخر من ذوي الأعصاب الهادئة بعد أن تنهد.

— طب نامي على ما نشوف لك دفاية.

ولكنها لم تنم، وأصرت على عدم النوم قبل أن تحضر الدفاية.. وخرج ذو الأعصاب الهادئة ليبحث لها عنها، ولاحقه صوتها، وهو عند الباب أقفل الباب وراك كويس!

مضت عدة دقائق ولم يعد: وفتح الباب، ولم يكن هو أيضًا، بل كان طالبًا من الرسم المجاور، اندفع إلى الداخل وهو يضحك لسبب ما، تاركًا الباب مفتوحًا..

وفجأة انطلقت تصرخ:

- الباب الباب الباب !!

ارتاع كل الطلبة، وأسرع الطالب الذي فتح الباب فرعًا فأغلقه من الخارج ومضى، بينما انتفض الشاب الذي ألقى بقلمه منذ قليل وراح يصيح:

- إيه هو ده؟.. الباب الباب الباب!.. جرى لك إيه النهارده؟. بلاش حد يدخل الآتيليه عشان خاطر ك؟..

فصرخت بأعلى من صوته:

- أنا قايلة ما حدش يسبب الباب مفتوح.. أنا مش ممكن أشتغل كده.. والله لألبس..

فعاد يصرخ فيها وهو يندفع إلى الخارج:

- وأنا والله لأناديلك الأستاذ.

انتفضت واقفة وراحت تصرخ وتدمدم بكلمات مختلطة، وفجأة أحست أنها تخور وتخور.. وتشابكت أمامها المرئيات.. ولم تعد ترى شيئاً.. وعندما فتحت عينيها، وجدت نفسها في حضن عزيزة، وهي تمرر أصابعها في شعرها.. فقالت بصوت واهن:

- الباب يا عزيزة... الباب..

ربت عزيزة خدها وهي تقول بحنان:

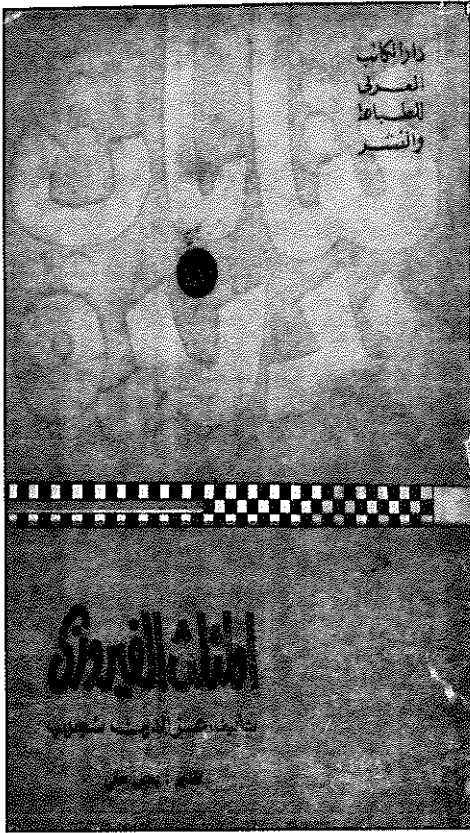
- باب إيه يا حبيتي؟. الباب مقفول!

عادت صفة تقول وقد انفع صوتها قليلاً:

- الباب مفتوح يا عزيزة.. اقلبيه والنبي.

وشعرت أصابع عزيزة بقطرات ساخنة تتخلل أصابعها التي تمسح خد

صفة.. وأخذت القطرات تنزايد.. وسرعان ما ارتفع النسيج...



المثلث الفيروزي

«المثلث الفيروزي»، مجموعة قصصية، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٦٨.

المثلث الضيروي

احتضنها وسار، وعند باب الحجرة تذكر شيئاً. عاد إلى الحامل فثبت عليه اللوحة وأمسك القلم الأزرق. تاهت عيناه وسط سحب مفضضة الأطراف من وراء زجاج النافذة، أخيراً راح يكتب على ظهر "القماش" بتؤدة: (صلاة لمن لا يعود).

بينما كان يلف اللوحة في الورق تاقت نفسه إلى أن يلقي عليها النظرة الأخيرة.. تركها على الحامل وتراجع حتى لاصق ظهره الجدار. ضيق عينه، عقد ذراعيه على صدره، أخذ يدلك فكه بإحدى يديه، حتى مالأ أذنيه صوت احتكاك أصابعه بذقنه الخشنة..

أصعب لحظات الفنان هي عندما يلقي على عمله النظرة الأخيرة، أين قرأت ذلك؟.

سيقولون عدت إلى تصور الأشخاص، هذا إذا اهتموا بأن يقولوا شيئاً على الإطلاق... عندما أرسم أمي يا سادة، لا أصور أشخاصاً.. أنا "فقط" أطل إلى الداخل.

اقترب خطوتين وأمعن النظر في عيني الطفلة أسفل اللوحة...

المثلث الفيروزي في حدقة العين يبدو زاهياً بعض الشيء... يجب أن يحس المشاهد أنها النافذة التي يعبر منها إلى العالم الشاحب وراءها، حيث تنتظر الأم إلى ما لا نهاية. لكن الطفولة تشع من وجه الطفلة في الحقيقة. هذا الإشعاع هو الذي يجب أن يبقى بعد كل شيء.. كيوم رأيتها في القطار.. ذلك القطار.. عندما عدت في المرة الأخيرة من القرية، تاركاً أُمِّي تغسل الدموع وجهها، تتوسل إليّ وتناديني من الشاطئ الآخر، وربما من قاع البحر... كان وجه الطفلة طوال ساعات يحرق في... ويتسم... تسلفت ظهر المقعد الذي تجلس عليه أمها وراحت تنظر من شبك القطار.. عيناها فيروزتان كبيرتان. نزلت الصغيرة في البحر حتى أخرجتها منه صديقتي ذات "الإشارب".

احتضن اللوحة وغادر حجرتة في "البنسيون" الرطب. على السلم تقابلت عيناها بمربعات ومستطيلات من الزجاج الملون بشقي الألوان في الشباك الكبير المائل على المنور. وفي الدرجة التالية من السلم واجته صورته منعكسة في المرآة الضخمة عند "البسطة"، الضوء المشع من الشباك يلون واجهته بألوانه المتداخلة، ويوحى له بغرابته عن نفسه.. نفس الإحساس الذي ينتابه منذ سنوات كلما مر بالشباك ثم واجهته المرآة، دون أن تفقده العادة جدته.

ذقني في حاجة إلى حلاقة. أبدو كأني تعديت الثلاثين، لكنهم يستطيعون أن يتأكدوا من سني الحقيقية.. سيكون ثلاثين إلا خمسة أشهر في الغد. إنها الفرصة الأخيرة. في العام القادم لن يكون من حقي أن أشترك في هذه المسابقة.

غادر العمارة فاستقبله مهرجان من أبواق العربات والملابس المتناقضة.
الشمس تملأ الشارع، دافئة ومغرية بالسير، اللوحة تحت إبطه. الإطار
الخشبي يحك إبطه.. يدغدغه. إطار اللوحة رفيع وبلا دهان.

سيكون ذلك في اعتبار لجنة التحكيم بلا شك.. يا له من مغرور! ربما
يقولون هذا، وربما قالوها قبل ذلك، في كل عام، حين أتقدم بلوحاتي إلى
المسابقة السنوية.. كانت إطارات لوحاتي دائماً رفيعة وبلا دهان، كما كان
أشخاصها رفيعين عراة، تتداخل وتتقابل فيهم الألوان الرمادية والسوداء
والبنية الداكنة في مواويل حزينة، وإن كانت عيونهم الواسعة لا تخلو من
أشواق وتساؤلات.

سيقول العضو ذو اللحية المدببة والوجه المتورد: أنت قمت بتصوير
الأشخاص، وهذا عيبك. إنك لا تستطيع أن تتخطى الواقع.. ينقصك
الـ"... ويحشو فمه بكلمة أجنبية ضخمة يهتز مع مخارجها القوية
"الباب" الأسود بين شفتيه. عضو اللجنة ذو اللحية المدببة يقول لي كلما
قابلته: لماذا لا تأتي إلى جمعيتنا؟.. وأعدده بالذهاب لكني لا أفعل.. فأنا
أعرف أن علاقتهم ببعضهم ببعض أهم بكثير من علاقتهم بالفن والرسم.

توقف أخيراً أمام "الفيلا" البيضاء في الحي الصامت. الإعلان ما زال
موضوعاً أمام الباب. اليوم آخر موعد لتقديم اللوحات. تناول منه
السكرتير اللوحة بابتسامته الواسعة التي يقابل بها الجميع، وأشعة الشمس
المنسكبة على زجاج مكتبه من النافذة تنعكس على زجاج نظارته، فتوحي
بسعادة بلهاء..

أمام الباب وقف مرة أخرى يقرأ الإعلان..

يشترط ألا تزيد السن على ثلاثين سنة.. الجائزة الأولى منحة ثلاثة أشهر إلى أوروبا.

أوروبا.. أوروبا!.. ثلاثة أشهر "فقط" يا أمي، وبعدها أعود. حينئذ لن أجد مشقة في الوصول إليك، حيث لا نفترق أبدًا..

من تحت زجاج مكتبه في المجلة التي يعمل بها ناداه وجهها.. أين هذا من وجهك الآن يا أمي؟

صورة الوجه الذابل والدموع تنحدر في خطوطه الغائرة.. تملأ الآن

خياله..

منذ سنوات، في قريتنا البعيدة، كفت أمي عن الإغمار.. جف عودها وتقدم بعد أن ظلت سنين لا تحصى تعطي!.. تعطي!.. تذوب في كل يوم قواها لتخرج من التربة القاحلة ثمرة هزيلة، فألتهمها لتعطيني القدرة على مواصلة الدراسة. وعندما كفت عن الإغمار هجرت الكلية واحترفت الرسم في مجلة لا يقرؤها إلا أصحاب الاشتراكات. وبقيت هي تنتظرني، وتصلي من أجلي..

- يا بني كفاك اغترابًا، وكن قريبًا مني.

- إنك معي يا أمي في كل لحظة.

- أخذت الشهادة يا بني؟

- لم أذهب إلى أوروبا بعد يا أمي.

- وجدت وظيفة يا بني؟

- إنهم هناك لا يعرفونك يا أمي.

- ألن تتزوج يا بني؟

- لقد تزوجت يا أمي.

- تزوجت؟.. وأين هي يا بني؟

- إنما ليست امرأة يا أمي. لكنك يوماً سترين أولادي، كباراً باهرين
يسعدونك ويعيدون الشباب إليك.

- أشعر أنني لن أراك ثانية يا بني.

- ولماذا نبقي أنا وأولادي إذا ذهب يا أمي؟

... وضع جبهته الساخنة على الزجاج، فوق صدر أمه تماماً. كان
الزجاج بارداً. دفى الزجاج وبردت جبهته. عادت إليها الحرارة بعد
لحظات. التصقت بالزجاج التحمت به... لم يعرف كم مر من الوقت على
ذلك، طاف بخياله سرب من البط يسبح في المرادة التي يطل عليها بيته في
القرية... عندما رفع رأسه أخيراً، كانت تغطي صورة أمه بقعة غزيرة من
العرق.

دار حول محطة "الأتوبيس" عدة مرات. الساعة الثانية ظهراً. امتلأت
الحطة بموظفين وموظفات... رآها أخيراً تقبل من بعيد... الشمس في
وجهها، تحول سمته إلى رغيف ناضج. "الإيشارب" فوق رأسها برتقالي
اللون. قلبه يدق بعنف. رفعت حاجبها وابتسمت عندما رآته. ضغط على
يدها بجمرة. كفها باردة رخوة.

- كيف حالك؟.. لم أرك منذ مدة.

- كنت مشغولاً في لوحة جديدة.

- وأتمتها؟

- نعم.. وقدمتها منذ أيام إلى المسابقة.

- أية مسابقة؟

- المسابقة التي حدثتك عنها.. لقد حدثتك عن فكرة اللوحة أيضًا.

قطبت حاجبيها تحاول التذكر. عبثت بخصلة من شعرها ثم ابتسمت

مخرجة.

أنقذها قائلاً:

- أمي!

- أوه!.. تذكرت.. تلك اللوحة التي.. أنا متأسفة جدًا.. رأسي

مشغول بأشياء كثيرة.. هل خرجت كما كنت تحب؟

تطوح بحقيبتها الحمراء في الهواء. تنقلها من يد ليد. تستقر الآن فوق

كتفها.

هل تسمع دقات قلبك؟.. إنها لا تسمع شيئًا.. لا ترى شيئًا.. لا تعرف

أنها التي أخرجت الطفلة من داخل البئر..

- لماذا لا تأتين إلى المجلة؟

- مشاغل والله. لكنني سوف آتي قريبًا. على فكرة!.. قرأت الكتاب

الذي حدثني عنه. لم أستطع أن أكمله. قصصه. لا أدري!.. ينتقصها شيء

ما.. لا أستطيع التعبير.. أبطاها يتعذبون حقيقة.. لكن لا أدري لماذا.. لا

أدري!..

- ومع ذلك قلت يوماً أنك تعرفين أمي !

لم تسمع جيداً ما قاله، فابتسمت وهزت الكتف الذي عليه الحقيبة. مد لها يده فجأة وقال:

- أظن "أتويسك" هو القادم.. فرصة سعيدة!

... يداه في أعماق جيوب المعطف الأسود. يسير بلا هدف. أمام "تراييزته" في المطعم المعتاد، راح يتأمل شارباً غليظاً فوق قم لا يكف لحظة عن المضغ.

... في المجلة كانت تأتي كل يوم. أحس بما حولي، في كل مكان عيونها حولي.. أسنلتها حولي.. رائحتها حولي.. في كل مكان، وكل يوم!.. أوصدت الباب فبحثت عن الشقوق. كانت الدموع تملأ وجه أمي.. فتحت لها، فدخلت، في توجس، وأخذنا نتكلم، وأريتها صورة أمي، "وفرجتها" على محتويات دولابي.. كان وجهها قريباً مني، يبدو كبيراً جداً، ونور "الأبجورة" على المكتب يسلط عليه، من الجبهة حتى الذقن وبقية جسمها غارق في الظلام. أشرق وجهها فجأة وقالت: أنا أعرفها، ليست غريبة علي.. وبينما كنت أتكلم أحسست فجأة بعطش شديد، وجف حلقي. أخبرتها بذلك فقالت لي إنما تملك بئراً في مكان ما لا ينضب منه الماء. وفتحت حقيبتها وأخرجت منها "إيشاربا" حريزاً لفته حول وجهها. أخذتني من ذراعي ورحنا نجري.. نجري!.. كنت ما أزال أتكلم، وقدماي تغوصان في الرمال وحلقي يلتهب، وكانت هي تضحك ولا تلهث من الجري "والإيشارب" فوق راسها يحميها من الشمس وأنا لا شيء يحميني.

أخيراً وصلنا إلى البئر. كان مترعاً. انبطحت على بطني ورحت أعب، كما كنت أفعل في القناة الصغيرة وأنا طفل في القرية. وعندما امتلأت بطني هضت، لاكتشف أن البئر فارغة تماماً وأني ما زلت ظامناً.. وفجأة سمعت صوت الطفلة.. كانت تنادي في فراغ البئر: "عطشانة!" "عطشانااه"!. نزلت فتاتي إلى البئر بحفة وخرجت تحمل الطفلة. بعد قليل شعرت نحوها بامتنان كبير برغم أنني ما زلت ظامناً...

* * *

كان صباحاً لم تشرق فيه الشمس ...
في المجلة وجد البرقية تنتظره. قرأها وشهق. هتف زميله:
- ماذا حدث؟ .

أغمض عينيه، غاص في المقعد، في الأرض، في البئر...

- لا شيء!

سحب جسده من البئر، عاد به إلى "البنسيون" .. وعلى السرير قرأ البرقية مائة مرة.. وضعها على "الترابيزة" وتناول من الزجاجة قرصاً منوماً، ابتلعه وأغمض عينيه. لم ينم... اعتدل وأحصى ما معه من نقود. ألقاها بجوار البرقية وتناول قرصاً آخر... ولم ينم... انكفأ على وجهه.. أراد أن يبكي.. أن يصرخ.. لم تقطل دمعة ولا خرجت صرخة. هض وأخذ النقود وغادر "البنسيون" على عجل.

في الترام كان يحاول أن يتذكر وجهها.. وجه أمه. لم يستطع.. ضاعت ملامحه. كل شيء غائم ضبابي. السحب الداكنة قريبة جداً من العمارات،

والدنيا كلها رمادية. ثقل رأسه وراودته رغبة ملحة للنوم. وعندما فتح عينيه وجد أن الترام في شبرا. أخذ مدة يجهد ذهنه ليتذكر هل مر الترام بميدان الخطة.. لم يستطع.

نزل، ثم ركب ترامًا في الاتجاه المضاد، ومنع نفسه بصعوبة من النوم. وفي ميدان الخطة وقف.. بقعة صغيرة سوداء في الفراغ الرمادي الهائل، عاد يحصي النقود.. لكن ماذا سأفعل بذهايي؟.. ماذا بقي لأفعله؟..

دس يديه في جيوب المعطف وسار على مهل.

تقوده قدماه آليًا إلى حيث تعمل صاحبتة ذات "الإيشارب"، وذهنه يحاول باستماتة أن يتشبث بملامح أمه. بحث عن البرقية في جيوبه كلها ثم تذكر أنه تركها في الحجرة.

هذا هو الموت إذن !!

أمام المصعد وقف مترددًا: لماذا أذهب إليها؟.. ماذا يوسعها أن تفعل أكثر من هز الرأس؟.. إنما لا تعرفها، كما لا يعرفها صاحب المجلة.

عاد إلى الشارع أصبحت محاولته لتذكر الملامح عذابًا فوق الطاقة. تملكته رغبة في أن يجري في شوارع المدينة ويظل يصرخ بأعلى صوته: ماتت أمي!.. وفجأة أطلت الطفلة.. انفتح الثلث الفيروزي في حدقتها فدخل منه ورأى وجه أمه. زلزل شيء بصدره.. نفضه وطوحه.. وانطلق يجري إلى الجمعية.

اتسعت ابتسامة السكرتير وهز يده مرحبًا.

- ألف مبروك يا سيدي. ظهرت النتيجة اليوم فقط.. الجائزة الأولى.

ومن خلفه سمع صوتًا يعرفه. التفت: إنه العضو ذو اللحية المدبية..
- كنت أقول دائمًا إنك تملك شيئًا آخر غير تصوير الأشخاص.. تملك
الـ "... ..". .. أهنئك يا عزيزي.. لقد أثارَت لوحتك من الجدل وتعارض
الآراء ما لم تفعله لوحة أخرى.. ووقفت أنا في صفك إلى النهاية.. لقد
ارتفعت فوق مستوى الواقع.. إلى مستوى الـ "ميتافيزيك" ..

بجمود قال للسكرتير:

- أين هي؟ .

- اللوحة؟ .. سيقام المعرض خلال أسبوع.

- أريد أن أراها.

صاحبه السكرتير إلى الحجرة الشاحبة الضوء التي تكدست فيها
اللوحات.. ومن بعيد جذبته صورة أمه. دق قلبه واقرب منها ببطء ثم
وقف أمامها خاشعًا. جلدجل صوت السكرتير:

- ما أسعدك اليوم يا عم.. أوربا مرة واحدة!

- وما الفائدة!.. إنهم في أوربا أيضًا لا يعرفونها.

ثم أضاف هامسًا:

- كانت ستلقى اليوم طفلي الأول.

- نعم؟ !

قالها السكرتير ونظارته تترلق على أنفه الضخم. التفت إليه قائلاً:

- لا شيء. فقط أرجو أن تتركنا وحدنا بعض الوقت.

- وحدكم؟. عمن تتحدث ؟.

لم يتلق ردًا فقال وهو يتراجع نحو الباب ويهز رأسه:

- غريبو الأطوار حقًا هؤلاء الفنانون!

حمل اللوحة بعد أن أغلق السكرتير الباب، ووضعها على مقعد في وسط
الحجرة. تراجع حتى لاصق ظهره الجدار. عقد ذراعيه على صدره. أخذ
يتلق بظهره على الجدار الأملس ببطء.. حتى جلس. ثبت كوعيه على
ركبتيه وأصابعه مشتبكة تحت ذقنه.

الآن فقط.. أصبح بوسع الدموع أن تنطلق.

ظل السكين

تخطى باب الحجر إلى السطح، فاجأته ألواح الظلام، في لطمات غليظة طمست عينيه. تمسس الفراغ بحثاً عن "الدرابزين" .. سار خطوات دون أن يراه، وحينما اصطدم به استند إليه بارتياح .. أين اختفت كل المصاييح؟ ونظر من أعلى "الدرابزين" إلى وسط البيت، كان الصمت والظلام جاثمين في كآبة. فكر أن ينادي أمه، ثم تذكر أنهم هناك يتجمعون حول البقرة. امتد بصره إلى سطح البيت المقابل. راح يبتش في الظلام عن شيء، ولم يعثر بأثر حياة.

استدار ليووجه الحجر المضيئة. إن مصباح الغاز موضوع في النافذة، لا يسمح لشعاع ضوء أن يتسرب إلى السطح. يمكنه الآن أن يرى ما بالحجرة بوضوح .. لأول وهلة جذبت عينه اللوحة المثبتة على الحامل، بألوانها الزيتية التي تلمع في النور. لقد تعبت عيناه من القراءة، لكنه الآن - في الظلام - يحس أن قوة إبصاره تضاعفت.

برغم بعد المسافة والضوء الخافت رأي بسهولة كل التفاصيل، صوامع الغلال الطينية الفارغة، المتناثرة على السطح، والسلم المتقل المثبت على

الجدار، وظله الذي تلقيه الشمس بجانبه.. ليست هناك ألوان تقريبًا فقط هناك الأبيض والأسود يرقصان في إيقاع حاد يوحي بالظهيرة.

يتسرب داخله ارتياح عميق كلما أمعن النظر في اللوحة.. سأسافر في الغد ومعى قطعة ينهر لها الأصدقاء لا شك!. أرايتم بيتنا؟. وهذه صوامعنا. مخازننا. فارغة مهملة!.

حف شيء في الظلام من بعيد. الفت بجدة، وقلبه ينتفض ككلب الحراسة. لم ير شيئًا، أتكون هي؟ ظل لحظات ينتظر وقلبه يدق، وسمع سعلتها الخافتة، وقبل أن يرد الإشارة، رأى النور يفرش أسفل البيت، ورأي أمه تحمل المصباح فوق رأسه وتتجه نحو السلم. لم يضع لحظة.. في عدة قفزات كان فوق السطح الآخر، وكانت يده تحتضن يدها الصغيرة، ظلا دقائق يجبران أنفاسهما، وهما يتابعان النور المرتعش يصعد السلم والخطوات الرتيبة المكتومة فوقه. وهمس: "دي أمي!". وعندما دخلت الأم الحجرة المضيئة، جلسا فوق "كوم" الحطب واستندا على الجدار.

- أتأخرتي ليه؟

- العيال كانوا "بيتعشوا".

عادت عينه إلى هناك. شاهد جريد النخلة التي تخترق السقف، تنعكس عليه أضواء المصباح المرتعش فوق رأس أمه، وهي تروح وتجيء، فبدأ كمروحة كبيرة على رقعة سوداء.. أتراها تبحث عني؟.. ستعتقد قطعًا أنني خرجت إلى الشارع!..

- إزيّ البقرة دلوقت يا فتحي؟

فاجأه السؤال. إنه لا يعرف. لقد تركهم منذ ساعتين، وكان الجزار بينهم والسكين في يده، بعد أن فشل المعلم عبده في إخراج الجنين. ولم يجد لديه شجاعة بعد ذلك ليترل ويراه تذبذب. قال في اقتضاب ووجهه في الأرض:

- زي ما هي!

أراد أن يضيف شيئاً، لكن الصمت كان أقوى، صمت كئيب بلا جلال. نظر نحوها. بدت كقطة سوداء حالكة تختمي به، كانت أقصر منه، ولم يكن يرى من وجهها إلا الأنف وأعلى الرأس، وبدا قميصه الأبيض في الظلمة بجانب ردانها الأسود فاضحاً، أحس بتيار بارد يسري في أوصاله، لم يدر مصدره، إذ كان الجو حاراً منذ لحظات. مد إصبعه ورفع وجهها إليه. طاوعته في استكائة، وتشبثت يدها بيده، وكانت ترتعش...

عاد إليهما الدفء، وبدأ الصمت والتوتر يذوبان تحته، أخذت أصابعه تتحسس تقاطيع وجهها الناعمة، ومسح عن خديها دموعاً..

كان لازم أسافر يا صباح.. إنتي فاهمني؟ كان لازم.. لكي حابقي أجي دائماً.. أحلف لك!

- بلاش تيجي! أنا خلاص حاروح دار أبويا.

- دار إيه؟!

- أنت وراك أهم مني.. ودي آخر سنة لك يا فتحي في الكلية.

- إيه الكلام دا يا بنتي؟ دا بيتك ولازم عيالك يتربوا فيه.

كانت ترم ضفيريها بعصية، وبدا صوتها ثقيلًا مجروحًا:

- مايقاليش حاجة هنا خلاص.. من زمان باقول لنفسي وآخرها؟.. كل شيء وله آخر.. إن ماكانش النهارده حيكون بكره.. سافر يا فتحي.. كلهم هنا منتظرينك.

ضمها إليه بشدة، وراح يمسح دموعها الغزيرة بشفتيه، وأكثر من أي وقت مضى أحس بحاجة إليها.. أراد أن يقول لها كلامًا كثيرًا. فكر أنها قطعًا لن تفهمه. خطر له: لماذا أحبته هو، ولم تحب أحدًا من إخوته أو أبناء عمه الفلاحين؟.. كلهم توددوا إليها وأغرقوها بالحنان، بعد موت "مرسى" زوجها..

... منذ سنة، قبل أن يموت "مرسى" ابن عمه، لم يفكر أنه يمكن أن تنشأ بينهما علاقة ما. كان يعود كل صيف في الإجازة فيجدها - برغم خشونة العمل وقلة الغذاء - نضرة محمرة الخدين، كأنما قامت لتوها من أمام القرن! لكن تفكيره فيها كان ينتهي بمجرد ابتعاده عنها أو انشغاله بكتاب أو بلوحة، فإذا عاد إلى المدينة نسيها تمامًا.. وقد تزوره في أحلامه، وقد يذكرها لحظة عندما يعضه جوع غامض، لكنها - على أية حال - لم تكن أكثر من زوجة أخ.

وملأت خياله فجأة صورتها:

... وجهها ملطخ بالطين.. شعرها محلول. ثوبها الممزق يكشف عن صدر أدمته أظافرها. عينها بلون الدم. وهي تدور كالملدوغة بين النسوة زائغة البصر، كأنما تبحث عن شيء ضائع، وهن يعولن ويلطمن الخدود.. .. لم يكن رأي في بيته مآثمًا من قبل، ولم يكن يخطر بباله أن أول مآثم يشهده سيكون مآثم مرسى زوج صباح. وعندما انتهى كل شيء، أحس

كان إصبعاً شير له نحوها ولا يرتجف، مضى إليها كالمنوم. فقط كان يشعر أنهما الاثنيان ساجنان في فراغ مخيف لا حدود له.. وقبل أن يسافر إلى الكلية في نهاية ذلك الصيف، بكت على صدره، وعندما حدثوها بعد ذلك عن الزواج قالت لن أتزوج.. سأربي الأولاد.. لم يجرؤ أن يسألها:

لم فعلت ذلك؟ ولم تجرؤ هي أن تفسر الأمر.

وعرفت أمه ذات يوم قائظ أنه يتردد عليها. لم تلمه ولم تتكلم. وظل صمتها يطارده ويقطر في أعماقه مرارة الخيانة.

- "فتحي!.. أنت زعلت؟".

قالتها وهي تنكمش تحت ضلوعه. ففكر أنه لو طلب منها الآن أي شيء فلن تتردد في عمله. تذكرها عندما كانت في عنقوان غرورها، كانوا يقولون أن راسها أصلب من الحجر!.. مرر أصابعه في شعرها من تحت المنديل، وعرك أذنها برفق:

- "طبعاً زعلت!.. دا كلام تقوليه؟.. مش أمي وإخواتي بس اللي حيتظروني لما أرجع يا بت.. حتكوني إنتي أولهم.. بس ماتستعجليش.. بكره تتعدل والنبي!".

وكان يسمع دقات قلبها ويرى حمرة خديها، وتذكر الأيام الأولى قبل رحيل مرسى. ضمها بجنان وأخذ يقبل كل جزء من وجهها المستدير.

فجأة مزقت السكون في ضراوة صرخة امرأة في أسفل الدار، وتوهج في الفراغ المظلم أمامه نصل سكين. انتفض يهم بالوقوف، فثبثت به صباح واحتضنته بكل قوتها حتى أعادته إلى مكانه، واختلط لهما بدقات قلبيهما..

- "سابقة عليك النبي ما تسييني.. أنا خائفة يا فتحي!"

وتمكنت مقاومتها، مع الرعب، من أن "تشل" قوته. وعندما تراخت عنه ذراعها أخيراً، تمنى لو بقيا يقيدانه، ربما ليجد مبرراً أمام نفسه للبقاء. وظلا دقائق يرهقان السمع، لكن بدا كما لو عم الفناء الأرض.

أصبحت السماء بيضاء في جهة الشرق وإن لم يظهر القمر، وبدا له جريد النخلة المهتز - في إطار السقف الذي يجلسان تحته - كطائر كبير أسود بألف جناح! لكن لماذا صمتوا؟.. لو كانوا ذبحوها لأمتألاً البيت بالعويل.. كان يبذل مجهوداً كبيراً ليمنع جسده من الارتعاش.

- يظهر إثم ذبحوها!

- "اسكت يا فتحي! أنا خائفة! أنا خائفة!"

وساد الصمت. ودنا وجهها منه حتى كاد يلاصقه. أصبح كبيراً كبيراً كوجه خرافي. وبدت العينان فجوتين كهاتيتين..! وفجأة انفجرت في نشيج مكتوم سرعان ما ارتفع، راحت تردد من خلاله: ليه يا ربي؟.. ليه؟..

جمده الرعب، وأومضت في خياله صورتها محلولة الشعر ووجهها ملطخ بالطين. أراح رأسها على صدره وأخذ يربت عليه حتى هدأت كطفلة دهمها النوم، خيل إليه أنه يسمع صوتاً خافتاً جداً، ككورس الأناشيد في الكنيسة أخذ يتأكد في سمعه بإصرار. فكر أنه سمع هذا الصوت من قبل. وظل دقائق يجهد ذهنه ليتذكر متى وأين. بلا جدوى.

وملأه الذعر حين رأى ضوء القمر يملأ السماء، بل ويستلقي بجوارهما فوق كومة الحطب.. وعندما رفعت صباح رأسها عن صدره الأيسر، خيل إليه أنه حدث تجويف عميق مكانه، وشعر أنه أصبح خاويًا يمكن أن ترى من خلاله الأشياء!

ما أن عاد إلى حجرتة، حتى ألقى بجسده على السرير وأغمض عينيه.

دخلت أمه بعد قليل، وعندما رأته غمغمت بصوت غريب:

- "إنت جيت يا فتحي؟".

همس وما زال مغمض العينين:

- "إزي البقرة يا امه؟".

تنهدت وقالت:

- "ربنا العالم يا بني! شفناها متأخرة من شوية قلنا ماتت. ولسه المعلم

عبده هناك بيطمنا ويقول إنهما حوولد بالسلامة..

تنفس بارتياح، وامتدت يده تتحسس صدره الأيسر..

سألته أمه:

- "أنت اتعشيت؟..".

لم يرد.. كان ما زال يتحسس مكان التجويف في صدره.

السجين والحارس

"سوف تكون المرة الأخيرة.."

وطوى الإيصال ثم غادر مكتب التلغراف.

ألف شمس فوق "الأسفلت"، تنفث الصهد ورائحة القار.

اشتاق فجأة إلى أن يرى البحر..

"كن رجلًا وافعلها. من هنا طريق المخطئة. حيث تستريح إلى الأبد من

تلك الرائحة.. سأنتظر هذه المرة. هذه المرة فقط.. وبعدها سأمضي. إنهم

لن يستطيعوا أن يصموا آذانهم اليوم أيضًا. هذه الصرخة كافية لأن

تنفضهم من أحلى نومة.."

"سجين بلا ذنب يطلب الرحمة.."

لكن صديقه منصور قال له في الصباح:

وفر فلوسك يا عم.. لمن تشكو؟.. البلد هجرها كل الأكابر إلى

المصايف وتركوها للغلابة. وفر فلوسك يا بني.. واشك الله وحده.

منصور غبي!.. منصور عبد الدايم منصور رجل غبي!.. من ثلاثين سنة أليسوه "بدلة" المصلحة ذات الزراير الصفراء فترك جرادل البوية وزبائه إلى الأبد وأتقن نطق كلمة: يا سعادة اليه .. منصور دائماً يحمل الأوراق التي لا يعرف أن يقرأ فيها حرفاً واحداً ويدور بها بين الحجرات ومعها أكواب الشاي وفناجين القهوة ولا يمل قول: حاضر.

"أنت أيضاً قلتها.. حتى صباح اليوم قلتها: يا سعادة اليه.. عندما طلبت الإذن بساعة واحدة لترسل "التلغراف" إلى الوزير. أنت أيضاً تمنى أن تلبس "البدلة" ذات الزراير الصفراء.. بل إنك أرسلت التلغراف من أجل هذا السبب".

"لكن منصور رجل جبان.. فلو كنت مكانه لما تركت جرادل البوية أبداً.. لو كنت بمكانه لقضيت عمري أقفز من سلم لسلم ومن عمارة لعمارة. ومن بلد لبلد.. سواح فهلوي كسيب.. حر.. حر."

وجد نفسه أمام قهوة، هفا مزاجه إلى "شيشة عجمي"، توقف لحظات يناوش ظله، تذكر أن الساعة التي منحها له المدير أوشكت أن تنتهي..

".. اقعد يا جدع وليذهب مديرك إلى جهنم! من يوم أن اشتغلت في هذا المكان وأنت محبوس لا تغادره ليلاً أو نهاراً.. ماذا أخذت؟.. وإذا "تبلت" كما يفعل منصور فماذا سيفعلون فيك أكثر من هذا؟.. بواب طول النهار وخفير طول الليل.. ولا مانع من مسح البلاط أيضاً، "اليومية" خمسة وعشرون قرشاً وفي أي وقت يمكن أن يقولوا لك مع السلامة بلا حتى متشكرين!. أقعد يا جدع ولتهد الدنيا على أدمغتهم".

أصبح ظله قصيراً وتساعد الصهد وشتته في مكانه شبكة غامضة..

"أوشكنا على الظهر وانتهت الساعة بالتأكيد والباب هناك مفتوح والرجل حذرک التأخر بعد أن وعد بأن يفعل من أجلك شيئاً. لكنك كم ألف مرة سمعت هذا الوعد. كن رجلاً مرة واحدة وأثبت له أنك لا تمك وعوده وتحذيراته وأنت الذي ستحقق لنفسك ما تريده لا هو. و تلغراف اليوم لن يجعلهم يرون النوم قبل أن يعطوك حقل".

ودوى في أذنيه بوق عربة فأسرع متبعداً إلى الناحية الأخرى من الشارع وازدادت المسافة بينه وبين القهوة.. مسح بكمه العرق الذي أغرق وجهه وأوشك أن يختنق. ثم وجد نفسه يستأنف السير.

المبنى المألوف في نهاية الشارع. تعلوه اللافتة الضخمة "قصر الثقافة بالأنفوشي"

"يحق لك أن تفخري يا أمي بأن ابنك يعمل في هذا المكان الرهيب..
تجيب الأبهة يا أمي.. تجيب العظمة والاسم الرنان وفلوس الحكومة.. وقد أورثت كل هذا لابنك.. في دمه تجري "الغندرة والنفخة الكدابة".. فأغواه المبنى الفخم ورتين كلمة "القصر" والوظيفة الميري ذات القرش المضمون كل شهر، فترك البحر "والسواحة" وعرف الانتظار على الباب الزجاجي ذي المراوح.. لكن الانتظار طال والشهور تتوالى ولم يأت التعيين. قالوا باليومية لأنهم أوقفوا التعيينات هذا العام.. طيب أعطوني حقي فأنا أشتغل في اليوم أربعاً وعشرين ساعة وإلا تركتها لكم ومشيت.. قالوا إمش!.. ماذا يمنع؟ لكن منصور يا أمي يعرف الحكومة أكثر مني.. قال لي منصور

إخشع فلا بد أنك في يوم ما ستأخذ حقلك. فيوم الحكومة بسنة.. منصور رجل "غلبان" يا أمي وعجوز وعنده من العيال "كبشة" لهذا هو راض ويقول دائماً "حاضر".. أما أنا فلماذا أقول حاضر؟.. "شحط" طويل عريض كالثور لا زوجة ولا ولد وأنت في الأنفوشي حيث الرزق سهل والأقارب كثيرون. منصور أيضاً لم يعرف البحر.. هل تذكرين يا "ولية" أن المعلم عطوة زوجك المرحوم قال مرة لصاحب المركب حاضر؟.. ما قالها أبي يوماً لكن ابنك الجبان يسعى لأن يقولها بعد أن يعلقوا له الزراير الصفراء..."

أمام السلم الرخامي العريض وجد عربة نقل ضخمة ورجالاً يتولون منها أجهزة مسرحية. تجمع حولهم عدد كبير من أهل الحي. أسرع إليه بعضهم:

- عندكم حفلة اليوم يا جابر؟.

- أين التذاكر يا عم.. لم نعد على البال؟.

- "ما اسمها رواية اليوم ياسي جابر؟.

هز رأسه ودخل المبنى. أمام باب المسرح واجهه المدير:

- اسمع يا جابر.. هذه اللمة أمام الباب لا أريدها. اليوم حفلة رسمية بدعوات محجوزة.. وأي تجمع أو مظهر سي يضرنا جميعاً.. اليوم ليس للشعب. سيأتي ناس أجانب ولا بد أن نظهر أمامهم بمظهر لائق.. مفهوم؟

- "حاضر يا بيه".

آه.. قلتها مرة أخرى.. صبراً فالיום يتحدد مصير كل شيء.

- يقولون إنما فرقة رقص شعبي يا عم جابر.

- شعبي أو غير شعبي ما شأنك أنت؟.. قلت لك اليوم ليس للشعب
وبس.

- كيف يقولون شعبي إذن؟

- لا تضحك وحياة والدك.. قلنا لك إنما محجوزة لناس أجنب.. هذه
هي الأوامر.

- قلت لنا إن هذا قصر الشعب.. الآن أصبح قصر الأجنب؟

كان عدد كبير قد تجمع حوله. عاوده الاختناق. جذبته من أسفل يد
صغيرة. انحنى قليلاً: كان الطفل أسامة يشده من يده وهو لا يكاد يظهر من
وسط الحشد.. صديقه العزيز أسامة.. ابن "الأسطى" سيد جاره وأنيس
الليالي الطويلة.. عينا أسامة الواسعتان تبرقان بالمرح وهو يهمس في أذنه
بتحيات أبيه والسؤال عن التذاكر. أفهمه أنه لا توجد تذاكر لحفلة الليلة
ثم صاح في الواقفين بغيط ليفرقوا. بدت الدهشة والاستنكار على بعضهم،
وبلغ التأثير بآخرين أن راحوا يعاتبونه ويذكرونه بأيام وصدقات..

"... كله تمام يا سعادة اليه! نفذت الأوامر يا سعادة اليه! طردتم
جميعاً حتى الأصحاب ومن أدين لهم بثمان الطعام والسجائر.. الفض الجميع
وسعادتك في الطريق الآن إلى بيتك لتغدى وتستريح، والموظفون
يتسابقون أيضاً إلى "الأتوبيس" والترام حيث تنتظرهم البيوت والأولاد..
وأنا تنتظري البوابة أحرسها كالكلب الأمين..".

ألقي بجسده هادماً على البلاط الرطب.. نسمة!.. نسمة واحدة من
الأنفوشي!..

"... كله تمام يا جابر؟.. "ألسطه" يا معلمي.. شد يا جددع.. وله
ياسامبو.. خدد عندك شوية.. ياللا يا جددعان.. هيللا.. هووب.. يابو
العباس، هيللا، هووب.. إعدل الدفة يا عبده.. الفجر نور يا جددعان ولسه
الشبكة ماتحدفتش.. هيللا.. هوووب..".

عضه الجوع فجأة، تذكر أن أسامة لم يأت له بالطعام حتى الآن.. فات
الميعاد الذي يحضر له فيه غداءه كل يوم. ففض بتكاسل.. في لحظة خاطفة
تذكر الطفل عندما جاءه وسط الزحام يسأله عن التذاكر ورد عليه بجفاء..
آه.. صديقي الصغير إذن غاضب مني!.. سار نحو الباب فتح جزءاً صغيراً
من الضلفة الزجاجية.. لفحته موجة نارية من الصهد. استند برأسه على
حافة الضلفة مستسلماً للصهد.

"يا جريد النخل العالي العالي العالي"

طاطي ورد السلام..

سلم لى ع الحبايب ع الحبايب

يا غايب لك زمان.."

كان سفح الجبل مبذوراً بآلاف العمال والعربات والمكان كطوابير
النمل.. كان يستهويه النظر إلى السفح دائماً وهو على قمة الجبل بجوار
كسارة الأحجار في موقع السدد.. وكالحجارة الضخمة التي "يجرشها"
ويدرجها مع زملائه نحو فم الكسارة لتتحول بعد لحظات إلى دقيق
ناعم.. كان الغناء الجماعي يخرج من أعماقهم.. ثقيلًا خشناً جارحاً.. ثم
يرق ويرق حتى يصير كالأنين.. كانت أياماً رهيبة ورائعة.. ولم يكن العمال

يستطيعون الغناء إلا عندما يبدوه هم جابر.. وتعلم من الصعايدة أعذب
المواويل وفشل في أن يتعلم منهم الصبر.. وفاض به الحنين يوماً إلى البحر
فقرر الرحيل فجأة.. لكن دموعه فرت وهو يودع أصدقاءه في أسوان..

"منذ متى توقف عن الغناء؟.. في هذه "الخرابة" ينسى المرء الكلام لا
الغناء فقط. في الزمان الغابر بناها شخص ما وتركها حيطاناً عارية فبقيت
مأوى للصعاليك واللصوص.. وفجأة قرروا أن يحولوها إلى قصر ثقافة
للشعب".

"أخذني المقاول الكبير من الاسكندرية لأشتغل فيها. فكر أنه يخدمني
ويضمن لي الحصول على وظيفة ثابتة بها بعد إكمالها. كان بلدياتي، فجعلني
الخفير عليها، تمهيداً لأن أصبح البواب فيما بعد. وافتحوها أخيراً وذهب
بلدياتي إلى حاله وصرت الخفير والبواب معاً وبقيت أنتظر.. شهراً تلو
شهر.. قالوا: إنهم لا يعرفونك، لا يشعرون بوجودك.

ومن الجنيحات السبعة التي أ حصل عليها كل شهر كنت أخصص مبلغاً
لأكتب به تلغرافاً مفصلاً أشرح فيه حالى.. أصروا على ألا يعرفوني. قالوا:
المقاول هو الذي أتى بك فما شأننا؟.. نعم..! وضعني ابن الحرام في
المصيدة ومضى.

اكتسى الشارع بالظل ودبت الحياة مرة أخرى. عاد المدير وتتابع
وصول الموظفين والعمال. بدأ الأهالي يتجمعون حول المسرح من جديد..
جسمه هامد وفاقد للرغبة في أي شيء.. تذكر أنه لم يتناول غداءه.. هل
أنا جائع أو لا؟.. لا أدري. كل ما أدريه أن شيئاً ما ينسحب مني ببطء

وإصرار.. ربما الدم.. ربما الحياة.. الكائنات كلها رمادية تمتزج بصفرة
شاحبة.. المساء يزحف.. الظلام يزحف..

"وأنا أعمل إيه يا ليل في ضلمة وليل داخل"

"صدر الصبية الحليوة من داخل الداخل"

"زنجني في الباب وأنا طالع وهو داخل"

(آه.. يا ليل!.. وحواري الأنفوشي المظلمة.. وقهوة عبادي والغناء..
وزفرات حماده وحب بدرية.. وآه يا ليل!.. حتى الصباح.. في ليال ليس
فيها صيد ولا قمر!)

وصلت أول سيارة تحمل بشائر المدعوين، في فتحة باب السيارة كانت
الساق الطويلة الملقوفة البيضاء تحاول الخروج يعوقها "الفرسان" الضيق،
وسرعان ما استوى أمامه العود الفارع والشعر الأشقر، ثم خرج في أثرها
الأفندي ذو البذلة السوداء والوجه المشرب بالحمرة، وتتابع وصول
السيارات والمدعوين الأجانب وغير الأجانب. وعند الباب كان أنفه يلتقط
مختلف أنواع العطور. كانت الحياة ترجع إليه لحظتها ثم يخنقها الهمود.

ازداد تجمع الأهالي أمام المبنى وارتفعت الضجة. كان يقاوم الأفيار كل
لحظة.. فيطارد الأطفال ويصيح في المتزاحمين ويفسح طريقاً للضيوف.
الأسئلة والطلبات للتذاكر تحاصره.. صاح محتدًا:

- يا عالم صدقوا.. لو كان بيت أبي لأدخلتكم جميعاً.. لكن هذه هي
الأوامر.

- حتى أنا يا جابر؟

التفت.. رأى صديقه الأسطى سيد.

- أهلاً عرب.. أين أسامة؟

- ولماذا تسأل عنه؟.. تطرده يا جابر وكأننا لم نأكل العيش والملح.

- افهم الحكاية الأول يا عرب.. كنت أنتظر أن تساعدني.. لكن هانتذا

أيضاً تأتي لتتعارك معي مثل كل هذه المواشي..

- أنا مثل المواشي؟.. أنا مثل المواشي يا جابر؟.. طيب.. تشكر يا

سيدي على كل حال.. على العموم لنا كلام فيما بعد..

وابتعد غاضباً بينما تعالت بين الجميع موجة من الاستنكار.. وارتفعت عدة شتائم وزحف الجميع نحوه.. أسرع إلى الباب الزجاجي يحتمي به وأغلقه بالمفتاح من الداخل.. بدأ الطرق.. التصقت الوجوه بالزجاج.. لم يكن يسمع إلا هديرًا غامضاً.. وكانت الأفواه تفتح وتغلق فبدا الأسنان كالأنياب. واتسعت العيون ببريق مفرع. وازدادت الطرقات عنفاً تريد تحطيم الزجاج.. تملكه الذعر. من يدفع ثمنه لو تحطم؟.. فتحه بحذر ليحاول إقناعهم.. فوجئ بهم يجذبون المصراع بقوة إلى ناحيتهم وصارت هناك فتحة تكفي دخول شخص. اندفع أحدهم محاولاً أن يمرق منها.. سد جابر الفتحة بصدرة العريض وثبت قدميه باستماتة، وبذراعه القوي دفع الرجل إلى الخارج وجذب المصراع ناحيته. تعالى الهدير وتشبثت بالضلفة عشرات الأيدي.. ظل يقاوم وحده.. أسند قدمه اليمنى على الضلفة المغلقة وراح يجذب بكل قوته مقبض الضلفة المفتوحة.. الهدير يزداد والريح تصفر في أذنيه. تعالت الأمواج وأحس بخشونة الحبال في قبضته.. الشبكة ثقيلة..

"شد يا جدع" .. "هילה هوب" !.. امسك "يا وله الحبل حيفلت" .. الدفة
يا عبده البحر "عالي" .. آه .. "حيفلت .. حيفلت" ! الحبل !.. القزازا !
الباب !. "زنجني" في الباب وأنا طالع وهو داخل .. "شدوا يا جدعان ..
حنضيعوا كلنا، كلنا .."

تحطم الزجاج. سقطت كسرة منه على ذراع جابر .. انفجرت الدماء.
اصطبغ كل ما أمامه باللون الأحمر .. زحف الهمود مرة أخرى. وعاد ذلك
الشيء ينسحب من داخله ببطء .. وإصرار .. أفلتت يده العارضة
الخشبية .. اندفع الناس إلى الداخل كالسيول .. كالأمواج .. تهدر .. تدمدم ..
تميل غريب يسري الآن في أوصاله .. حثيثاً .. باردًا .. والأمواج ما زالت
تثور .. حمراء قانية.

نهاية اللعبة

عندما دخلتُ المتزل - وأنا أطوح بحقيبة الكتب في الهواء وألتقطها - شممت فللضيوف على الفور رائحة ضيوف، فللضيوف رائحة خاصة أستطيع تمييزها بحاسة لا أدري مكانها. فكرت أن أفتح باب "المنذرة" عليهم لأرى من هم، لكنني تراجع، إذ وجدتها فرصة نادرة لكي أنطلق إلى "بيت البلوكامين" دون أن يشعر بحضوري أو غيابي أحد فأمضي النهار هناك بلا انزعاج.

طوحت بالحقيبة حينما اتفق، واختطفت أضخم حبة من الطماطم المغسولة في انتظار أختي لتعصرها. واندفعت أقفز فوق السلالم إلى السطح ثم بدأت أمتصها على مهل، عندما بلغت السور الذي يفصل بيتنا عن بيت "البلوكامين".

تسلقت السلم الخشبي القصير، وجلست برهة بأعلى الحائط ثم مددت يدي أسحبه إلى أعلى وأدليه بهدوء إلى الناحية الأخرى. أحدث اصطدامه بالأرض دويًا في البيت الصامت المهجور.. كان ذلك كفيلاً بملثي رعبًا فيما مضى، أما الآن فأنا أتوقعه مقدمًا فلا تهتز له شعرة في رأسي.

اتجهت إلى الشق الذي أخبئ فيه المفتاح. تناولته وعالجت فتح الباب العتيق بشيء من الصعوبة، فهو ليس مفتاحه أصلاً، إنما وفقته له من بين مجموعة المفاتيح المهملة عندنا. رحت أخلص نفسي من نسيج العنكبوت الذي ينسج من إزالته في كل مرة. واجهتني الرائحة المعتادة المكونة من رائحة التراب ونوع خاص من العفونة. اتجهت رأساً إلى الدرجات.. كانت مستتدة هناك إلى الحائط في الركن المظلم، يشع لمعان أجزائها التي استطاعت مقاومة الصدأ. بحثت عن قطعة القماش البالية وأخذت أمرها برفق على كل جزء فيها. وفجأة التفتت إلى الصورة المعلقة وهتفت بخجل:

— أهلاً يا عم رزق.. أصحى نسيت أسلم عليك وأنا داخل.. سعيدة يا خالتي.. سعيدة يا أولاد؟:

وأوماؤا لي من خلال الإطار البني إيماءاتهم المعتادة في صمت، وجلت في الحجرة بنظرة سريعة متوقفاً أن يكون شيء ما قد غادر مكانه: كرسي من الكراسي المكسورة أو منضدة أو أحد أعمدة السرير الطويلة السوداء.. في كل مرة كنت أتوقع أن يحدث ذلك فهذا لا يعقل، لا يعقل أبداً، أن تظل هذه الأشياء في مكانها سبع سنوات ثابتة لا تتحرك، بكل ما تراكم فوقها من أتربة. لكن ما توقعته لم يحدث قط باستثناء شيء واحد، هو هذه الصورة ذات الإطار البني، فهي وحدها التي امتدت إليها يدي بالتنظيف، ونقلتها من مكان إلى آخر. كانت صورة عائلية لأسرة "البلوكامين" جذبت بصري في أول يوم دخلت فيه إلى هنا، ونشأت بيني وبينها صداقة وطيدة، لا تقل عن صداقتي للدرجات.. وعادت الحياة إلى هذه الأسرة الغريبة التي هجرت هذا البيت الذي تملكه، وسافرت منذ سبع سنوات إلى

مكان مجهول ولم تعد حتى الآن. ولسبب غامض رفض أبي فتحه أو تأجيره لسكان آخرين برغم أنهم خلال تلك السنوات لم يسددوا الإيجار ولا حتى أرسلوا خطابًا يوضح الأمر.. لكن اشتياقي لم يهدأ قط لرؤية ما يحتويه المنزل المهجور، فلا بد أن تكون محتوياته جديرة برجل البوليس ذي الوجه الأحمر والشارب الغليظ. الذي كان يبعث الرهبة في قلوب أهل القرية.

قررت مرارًا أن أهبط إلى البيت، عن طريق السور الملاصق لسطح بيتنا. لكن في كل مرة أقدم على التنفيذ، كانت تستيقظ حكايات أصحابي - وهم يجلسون على رأس الحارة تحت الفانوس المكسور - عن العفاريت التي تحتل الأماكن المهجورة. ومنذ أخبرني أخي فتحي الذي يتعلم بالمدينة، بأنه لا شيء في الدنيا اسمه عفاريت ثم أكد لي المدرس في الفصل ذلك، تراجع خوفاً، واتخذت قرارًا حاسمًا بغزو البيت..

كان يومًا حافلًا حقًا، بالرعب والمفاجآت، والمفاجأة الكبرى بلا شك كانت اكتشافي للدراجة وسط الأثاث القليل الموجود بالحجرة المغلقة، أنستني عالم العفاريت، وعالم الآدميين أيضًا!

كانت أمنيته أن أمتلك دراجة. فأصدقاني في المدرسة يخرجون كل أصيل، يتسابقون بالدراجات على الطريق الزراعي، وأنا حتى ذلك الوقت كان مصري هو الضرب من أبي لو تجرأت وأنفقت مصروفي في تأجير دراجة.

تحققت الأمنية بشكل لم أكن أحلم به. فالدراجة صغيرة رشيقة من طراز "رالي" الفاخر، طلاؤها أسود في أبيض يشرح النفس، والمنفاخ مثبت

بها، وأمام الحجرة هناك "الفسحة" واسعة جدًا ومكسوة بالبلاط، أجري فيها بالدراجة بلا رقيب.

وقبل أن أخرج في ذلك اليوم، اكتشفت الصورة ذات الإطار السبني. التقطتها بجزر، وشدتني في الحال القامة الطويلة والشارب الغليظ. وبرغم أن "البلوكامين" لم يكن وحده في الصورة، فإن نظري لم يبرح وجهه.. لم يكن هناك فارق كبير بين صورته وتلك التي احتفظت له بها في ذاكرتي. وعندما انتقلت إلى بقية الوجوه اكتشفت أنني لا أعرف منها وجهًا واحدًا. وختت بسهولة أنهم ليسوا غير زوجته التي كنت أسمع بعد سفرهم عن طبيعتها، وأبنائه الثلاثة.

ولا شك أنني أميل بعض الشيء إلى الثرثرة، ولهذا كان من العسير علي أن أقضي عدة ساعات كل يوم في مثل هذا المكان الصامت دون أن أنطق كلمة واحدة.. لقد استغرقتني في البداية متعة ركوب الدراجة، لكن إثارها كانت تقل يومًا بعد يوم، وخاصة أنني أخذت أمل المكان الضيق الذي لا أستطيع مغادرته، وأتوق إلى الانطلاق بالدراجة إلى الخلاء الواسع. وبما أن ذلك كان ضريبًا من الجنون، فقد وجدتني أبحث عن شيء آخر أتسلى به في أوقات استراحتي من الركوب. وهكذا ازددت تقريبًا من أسرة "البلوكامين"، وأخذت أكاشفهم بأسراري الخاصة وأسرار أسرتي وأشكو إليهم متاعبي مع والدي أو مع المدرسين، وبالتالي فقد شعروا بالألفة نحوِي، وراحوا يفضفضون لي عن همومهم أيضًا. لكنهم كانوا يحكون لي حكايات متضاربة عن سبب تركهم لبيتنا. وعن المكان الذي يقيمون فيه حاليًا. لم أحفل كثيرًا بذلك وبالكذبات الصغيرة التي تعودوا التورط فيها أمامي،

وخاصة هذه الطفلة "الفشارة" سامية، التي اقترحت لها هذا الاسم ثم وجدته غير لائق بما، ففضلت أن أناديها باسم "سلمى" نسبة إلى إحدى قريباتي "الفشارات". لكن لا أدري لم كنت أرتبك عندما تلقي عيناى بعيني "محمد" شقيقها الأكبر. لم أشعر بذلك الارتباك وأنا أمام أبيه عم رزق، الذي كثيراً ما يداعبني أو يكشر لي بطريقة أعرف أنه يفعلها فقط أمام أبنائه، لكنه يجني في قرارة نفسه، ولا أمام والدته الطيبة التي تشبه أمي إلى حد ما، ولا حتى أمام أخته "عزيزة" التي يبرز لها ثديان أكبر من اللذين ظهرتا فجأة لأختي حسنية. كان محمد يشبه عم رزق إلى حد كبير، وخاصة في الأنف ولمعة العينين. شفتاه مزومتان في صرامة بعض الشيء، وفوقهما شعيرات خفيفة تشبه الشعيرات التي لأخي فتحي الطالب بالجامعة، شعره قصير جداً مثل شعر فتحي أيضاً، ويبدو أن ذلك مما يمتاز به الطلبة المجتهدون. كان دائم الصمت، ونادراً ما يرد على أسئلتى، وكان ذلك يغيظني جداً، فهو يحاول أن يقلد الناس الكبار، وربما يشعر بالغرور لأنه دخل الجامعة منذ عامين مثلاً. لكن لماذا لا يشعر فتحي بالغرور ويحل لي مسائل الحساب ويضحك معي أحياناً؟ أخيراً اعتقدت أن السبب لا بد أن يكون لأنه صاحب الدراجة.. وربما كان هذا الاعتقاد هو الذي جعلني أسعى لعقد تعارف بينه وبين فتحي في الإجازة القادمة.

لكن هذا التوتر في علاقتي بمحمد رزق، لم يؤثر مطلقاً في احترامي له أو حيي لأبويه وإخوته ولموعد العصر الذي أقضيه معهم كل يوم في أثناء استراحتي من ركوب الدراجة. كواجب مقدس لا أتخلي عنه يوماً واحداً برغم العقاب الذي كثر حدوثه لي في الأيام الأخيرة، كلما عدت بعد

الغروب بملابس ممزقة، والخدوش تملأ جسمي، بل برغم الشكوك التي بدأت تساور أبي أخيراً، حول المكان الذي أختفي فيه كل يوم من العصر إلى المغرب وانكشاف كذبي أكثر من مرة - بأنني كنت في الحقل أو في الملعب، وكم كنت أتعذب وأقضي أتعس ليالي، عندما أضطر يوماً إلى الذهاب في مهمة يكلفني بها أبي في نفس الموعد، دون أن أتمكن من "الزوغان".

أخرجت الدراجة وركبتها بخفة، وتمعني بها اليوم تفوق أي يوم مضى، بل تفوق حتى متعتي بلقاء أخي فتحي، بعد انتظاره على محطة القطار في أوائل كل شهر. كان يشملي صفاء غريب ونشوة ربما كان مصدرها أن البنطلون القصير الذي أرتديه كان يمنحني حرية كبيرة في الركوب، لدرجة أنني جربت أن أقود الدراجة بيد واحدة، بل جازفت برفع يدي الاثنتين.. وعندما تعبت أخيراً وجلست إلى أصدقائي حكيت لهم عن الضيوف الذين تركتهم في البيت، وعن الغداء الشهى الذي سأذهب لسوي وأتناوله.. وسمحت لنفسي أن "أهذر" مع عم رزق، فسألته أكان بإمكانه أن يركب الدراجة ويرفع يديه في الهواء مثلي؟.. واستغرقنا في الضحك وأنا أتخيل ساقيه الطويلتين تتخبطان في الدراجة ثم يستلقي على الأرض صارخاً. وعندما استبد بي الجوع أعدت كل شيء غلى وضعه ثم حيتهم وخرجت عائداً إلى المنزل.

لم أصدق أختي حسنية عندما أخبرتني أن الضيوف هم أسرة "البلوكامين" جاءوا يأخذون أشياءهم.. جريت بجنون إلى "المنذرة" التقت

أول نظرة بالقامة الطويلة والوجه الأحمر وإن أصبح لون الشارب رماديًا، وكانت بجواره زوجته بفستانها الأسود ووجهها الشاحب ذي الملامح المسترخية.

لم أدر ماذا أفعل. كنت أهت بشدة ظللت مترددًا لفترة: هل أدخل وأسلم عليهم أو أعود؟. لم يشعر بي أحد حتى تلك اللحظة. إرادي خائفة تمامًا. وقلبي يهوي بين ضلوعي إلى أعماق سحيقة. أبو زيد الهلالي على الحائط المقابل للباب يتدلى شارباه ويزداد وجهه سوادًا.

- سعد؟.. تعال يا سعد سلم على عمك.

وما الفائدة يا أبي ماداموا سيأخذون الدراجة؟.. لكن ماذا يهمك أنت!

- باسم الله ما شاء الله. هذا سعد إذن! أصبحت رجلًا يا عكروت. إنك لا تذكرني أليس كذلك؟.

وأحل ذراعاه الطويلة بكثفي، جاف لكنه دافئ وحنون. شد ما تختلف عما كنت عليه معي منذ لحظات.

- تعال يا حبيبي تعال.. باسم الله اسم النبي حارسك. وجذبتني ذات الفستان الأسود واحتوتني في حضنها.

- يا حبيبي!. والله كبرت يا سعد.

كنت أحبك يا خالتي دائمًا. وأشعر بالسكينة في حضنك برغم أنك غير التي أعرفها تمامًا. لكنكم برغم ذلك ستأخذونها.

- "كان يجبه بروحه. فآكر يا سي رزق؟.. ياما جملة ولاعبه.. كنت

صغيرًا يا حبيبي.. وكنت أجمل من ذلك".

قولي: إنك ستركيها لي هدية. هذا هو دليل الحب حقًا. إنما لن تنفعكم بعد الآن فالجامعة لا تحتاج إلى دراجة. يدك طرية وناعمة وهي تعبت بشعري.. لكن ما هذا؟.. شيء ساخن يلسع جبهتي.

– "اذكري الله يا "ولية".. لا حول ولا قوة إلا بالله". قالها عم رزق في

تأثر

وأفلتني من حضنها بصعوبة. رحمت أتصفح الوجوه في ذهول قبل أن أغادر الحجرة مرتبكا. بعد الغداء عدت إلى حجرهم. كانت الأصوات فيها مرتفعة والدخان يعبثها وكان السؤال يلح علي. سأسألها هي: أين محمد وعزيزة وسامية؟ ولماذا لم يأتوا معكم؟.. تمنيت لو جاءوا حقًا، وخاصة محمد، فهو بالتأكيد أقدر منهما على فهمي، ولن يتأخر في التنازل لي عنها. وربما جاء فتحي بعد يومين فأحقق بينهما التعارف الذي تمنيته.

وفجأة خطر لي خاطر، هل اسمه محمد فعلاً؟.. لقد اقترحت له هذا الاسم من عندي.. أوشكت أن أسأل الأم في كل ذلك، لكني رأيتهم يتناقشون الآن بحدة، وترددت كثيرًا كلمة "العفش".. آه. انتهى إذن كل شيء. يبدو أنهم قد وصلوا في النهاية إلى اتفاق، فقد خيم الصمت فجأة حتى لم تبق إلا طرفعات مسبحة أبي، تلك ترك.. تلك ترك. وتكلم "البلوكامين" أخيرًا بصوت خافت لكنه عميق:

لنا "عشم" كبير يا حاج في أن تحقق لنا رغبة أخيرة. لن نأخذ شيئًا من "العفش" كما اتفقنا لكن هناك شيئًا واحد نأمل أن تسمح لنا بأخذه.. وهو الدراجة. أنت تعرف أنها كانت تخص المرحوم.. كانت أعز ما عنده.

أمسكت نفسي بصعوبة عن الصراخ، وساحت الوجوه أمامي وسط
الدخان المتصاعد، ولم أعد أسمع شيئاً مما يقال. قمت مذهولاً وجلست بجوار
السيدة في صمت، على أمل أن تحتضني فأضع رأسي على صدرها. لكنها
لم تفعل. لحظتني بظرف عينها ثم عادت تتابع حديث زوجها.

نفضت منكساً رأسي وخرجت من الحجرة. لم أفكر فيما ينبغي أن أفعل.
صعدت آلياً إلى السطح.. وتسلقت السور مرة ثانية.. عندما فتحت الباب
تجمدت مكاني كالمصعوق. لقد صدمت عيني الصورة فوق أحد الكراسي.
تولاني رعب لم أشعر بمثله. بذلت مجهوداً كبيراً لكيلا أفر. إنه يحتمل في..
في أنا من غير شك.. عرفت الآن لماذا تلمع عيناه.. ولماذا يزوم شفثيه
بصرامة. أخذت أقرب ببطء شديد وأنا أتوقع حدوث شيء ما. سيحدث
ذلك الآن.. الآن فوراً. هل تسمع شيئاً؟.. أصغ جيداً. لا شيء. لكنك ما
زلت تحملي في. هل تصدقني؟.

إنني لم أكن أعرف أقسم لك. تعال. أضمك إلى صدري. أمك رفضت
أن تضميني الآن.. تجاهلتي. هل تظن أنها تعرف ما كان بيني وبين
الدراجة؟. ومع ذلك فهذا هي ذي الدراجة. لن ألمسها بعد الآن. كنت تحبها
مثلي.. أليس كذلك يا.. ولكن ما اسمك؟
ليتني على الأقل كنت أعرف اسمك!.

البحث عن لون

العربة تنطلق بنا نحو الموقع، ورفيقي لا تعوقه "المطبات" العنيفة عن مواصلة الأحلام.. وبالأمس كانت نوافذ مسكني كلها مغلقة، وأنا ودفء مارس مختنقان بداخله، وأمامي لوحة أكشط الألوان من فوقها بالسكين ثم أضع غيرها. وتوقفت المعركة المفتعلة بيننا والراديو يعلن أبناء التحويل، وتزحلق بصري فوق مساحات من الألوان الباهتة، داخل مربعات ومستطيلات لوحاتي المعلقة على الجدران. ونقر السؤال فجأة جدار الهدوء الطارئ: من الفراغ إلى الفراغ.. ما جدوى كل ذلك؟..

قمت واسترخيت في المقعد الطويل وأنا أقول لنفسي: لقد آن لك أن تستريح!.. بينما كنت أشعر بأنني ممتلى بحليب فاتر، وأنا أغوص في سكون عميق.. نفس السكون الذي أرقد فيه منذ سنوات، منذ آخر معرض اشتركت فيه بلوحاتي، وأنا أرى المشاهدين القلائل جدًّا يميرون في لحظات خاطفة، ووجوههم لا تحمل إلا البلاهة أو الاستخفاف. الفشل؟. لا. لا يستطيع الفشل أن يدفع إلى هاوية السكون من كان الفن حياته. لكن قد تكون هي الريح عندما سكنت، وتركت القارب وحيدًا يأكله الصدا

ويغوص إلى قاع البحيرة الآسنة. وفجأة التقطت أذني كلمة ما، ربما قالها المذيع، تمّت بعدها في لحظة طويلة عريضة من الدهول، ورحت أطفو بسرعة إلى سطح البحيرة، تجتاحني نشوة همجية، تشبثت بها في خوف من أن تفر وتتركني أعود إلى القاع. ولكيلا يحدث ذلك كان لا بد أن يشاركني فيها إنسان آخر. وتذكرت رشوان - زميلي القديم - كان مسكنه قريباً مني فاندفعت إليه، لاهئاً، في تلك الليلة الدافئة من مارس، بعد منتصف الليل.

سأل رشوان عن القسم الذي يعمل فيه قريبه المهندس. أغمضت عيني متفادياً تفجر الضوء. خطرت لي في الحال ذكرى حقول لا هائية من القمح الذهبي المتوهج تحت الشمس. صنعت قبعة من الورق وجلت ببصرى في أنحاء الجبل والسفح.. الآلات.. العربات.. الرجال. بقع داكنة تحاصر الجبل من كل ناحية. هتف رشوان بعد شهقة: رائع!. كان ينبغي أن أقولها أيضاً، لكنني لم أجد رغبة في قول أي شيء.

لوحنا لعربة هائلة من عربات "المونة" وهي مندفعة نحونا.. آه!. تراجعت قبل أن تدهسنى العربة التي لم تكترث لوقوفنا أمامها. أحسست بدوار، ودرت بعيني في المكان بجزع: الرجال كثيرون والآلات أكثر، وأصوات العمل كسيوف ملتحمة في معركة.. كل شيء متلاحم في وحدة غريبة، ولا أحد يحس بنا، كأننا عنصر طارئ غير قابل للذوبان في ذلك المزيج. وبرغم ذلك كانت تملؤني فرحة الطفل في قريتي وأنا في ساحة العيد. انتبهت إلى العربة التي استطاع زميلي أن يوقفها أخيراً، وسمح لنا السائق بالدخول إلى جانبه. صدمتنا من داخل العربة لفحة جهنمية تختلط برائحة

البتريين. كان السائق عجوزًا في الخامسة والخمسين على الأقل، كونه
التراب والأسمنت طبقة أخرى على وجهه الأسمر، لكن أسنانه التي تكشف
عنها ضحكته الدائمة ظلت بيضاء. وبينما كان يثرثر معنا ونحن ننصهر
انصهارًا من شدة الحرارة، كان يبدو بضحكته الواسعة أنه والجبل والطريق
المتعرج شيء واحد..

المكتب المكتظ بالأوراق والخرائط، يفصل بيننا وبين المهندس يسرى
قريب رشوان، في الحجرة الخشبية التي تبدو واحة وسط المهجير. وبعد عدة
عبارات مجاملة خيم على الحجرة صمت.. لقد أتمك المهندس في أوراقه
وكأنه نسي وجودنا. ربما لا يتجاوز الخامسة والثلاثين لكنه يوحى بأنه أكبر
من ذلك. نظر نحونا فجأة وقال:

- كم يومًا ستمكثان هنا ؟.

- عشرة أيام على الأكثر.

هكذا أجاب رشوان. سأل يسرى:

- وهل أعددتما برنامجًا للعمل؟.

بدا له ضحكنا غريبًا فقال:

- لا بد هنا من الاستفادة بكل دقيقة. هذا إذا أردتما عملاً بالفعل وليس
مجرد الفرجة.

ومضى يتكلم عن قيمة الوقت وعن تكاليف الساعة الواحدة من
العمل.. العمل! العمل!. هذا ما كان يشعرون به في كل لحظة..

- ماذا جاء بك الآن يا شمس؟.

"التفتنا" إلى حيث ينظر يسري.. كان هناك على الباب.. طفل يقف مستندًا على الحافة.. لم أتبين ملامحه، فقد كان كتلة قائمة على عكس الضوء الساطع خارج الحجرة.. اقترب في حياء.. توقف بالقرب مني.. رحت أتفحصه.. تحرك بداخلي شعور غريب.. وألح على سؤال: هل يتسم؟. بحثت في وجهه عن أثر الابتسامة: في شفتيه الرقيقتين المنفرجتين قليلاً؟. في عنيه السوداوين تدوران بيقظة بين الوجوه؟. في سمرته اللامعة عند الأنف الصغير الأفطس والخدين وأعلى الجبهة العريضة تحت الشعر الأكرت، حيث انبثقت قطرات صغيرة من العرق؟.. لا أثر لها في كل ذلك تلك الابتسامة.. لكنها موجودة حتمًا في مكان ما.. مقتحمة وآسرة.. لا تملك أمامها إلا الاعتراف بأنك تعرفها كما تعرف هي طريقها جيدًا إلى قلبك!.. سألت المهندس فقال:

اسمه شمس - أو "شمس" باللهجة الصعيدية.. أبوه سائق بلدوزر هنا ويصر هو على أن يشتغل في السد.
مددت يدي إليه.. اقترب في ألفة: ضمته إلى صدري. كان جسمه الضامر ساخناً من حرارة الشمس.

- كم عمرك؟.

- اثنتا عشرة سنة.

- هل تذهب إلى المدرسة؟.

هز رأسه إيجاباً.. سألته عن سبب رغبته في العمل من الآن.. فسألني

وهو يشير إلى المهندس:

- أهو صاحبك؟

أومات برأسي محرّجًا.. فتحول ليواجهني وهو يقول بضراعة:

- دعه يتركني أشتغل والني.. لن أترك المدرسة.. يقولون لي عندما أكبر.. يضحكون علي.. فعندما أكبر يكون السد قد تم.. هل ستكلمه؟.

ضحك الجميع وتعالّت التعليقات المرحّة. عرفت أنني لست أول وسيط لشمس لدى المهندس، فلا يأتي زائر إلا ويرجوه أن يتوسط له، دون أن يياس من الفشل كل مرة. لكنه نجح في كسب صداقة كل العاملين.

وعندما دعانا يسري إلى الذهاب لتناول الغداء، لم أكن أريد مفارقة شمس.. والتفت ورائي بعد مغادرتنا المكتب عدة مرات، لأراه واقفًا أمام الباب هناك.. لا يفلح الحزن الشفيف على وجهه أن يخفي ابتسامته الغامضة.

انطلقت بنا العربة التي أعدها لنا يسري في المساء، تصعد وتهبط في الطرق المظلمة، كموتوسيكل الموت في السيرك. ومن حين لآخر كنا نتوقف لنمعن النظر في أحد المشاهد، ويسارع رشوان بإخراج أدواته وينهمك في الرسم، بينما أقف أنا أتأمل مشدوهاً، وعشرات الخواطر تمر بذهني، لكنني كنت مفعماً بالنشوة، يتتابى الإحساس بأنني أوشك أن أقبض على شيء ما، أقرب منه لاهثاً، ترتعش أصابعي النحيلّة وهي تتلمسه، وأنتفض من أعماقي وأكاد أناديه، ويتوقف النداء في حلقي فأغص به. أمسكت القلم مرة وحاولت أن أرسم ما أرى، لكنني توقفت في ياس كان ذلك الشعور يفعمني بقوة فلا يترك مكاناً لأي شيء آخر، يقف مستقلاً مستبدًا، تبدو إلى جواره رغبتني في الرسم عاجزة متطفلة لا حاجة إليها.

صعدنا إلى الكسارة. رأيناها تلتهم أنقاض جبل مهزوم، تحولها في فمها بعد ثوان إلى دقيق ناعم. كان العمال حولها يشتركون في غناء بلدائي، يغنون لها، يرقصون على إيقاعها الوحشي، يقدمون إليها قرابين الأحجار. وقف أحدهم تكسو الأتربة شعره وأهداب عينيه، يشرح لنا سرها، وساعات غضبها ورضاهها. وكيف روضها حتى كشفت له خفاياها ولم تكشفها لأصحابها "الخراجات" أنفسهم!. كان رشوان مستغرقاً في الرسم، وأنا كالعادة أتابع العامل وهو يربت على أجزاء الآلة، كفلاح يداعب رأس بقرته، أتأمل عمق السمرة المتوهجة في وجهه القوي المصري، أتأمل غلظة ورقة وخشونة ونعومة أصابعه وهي تتحسس أجزاء الآلة، تتفتح أعماقي للشيء الغامض المقبل نحوي في دوي كالتبول، ووجدتني أخرج ورقة كبيرة وأغمس "الفرشاة" في دواة الحبر الأسود. وفجأة رأيت وجه "شمس" .. نادتني ابتسامته من بين الزحام المتجمع حولنا، ينحشر وسطه ويجاهد لكي يرائي. ولا أدري كيف بدأت أرسم، إلا أن الورقة كانت تمتلئ سريعاً بالوجه المفلطح العظام، وعلى صفحته العريضة راح يتدفق النغم ويرقص العمال وتعالى أغنيتهم.. ورأيت أمامي وجه أبي، الذي مات بالحمل وأنا صغير، ورأيت وجوهاً أخرى لفلاحين من قريتي، اندفعوا في جموع يدمدمون رافعين الفؤوس، واندفعت أمني وسطهم تنادي اسمي ملتماعة حتى عثرت على واحتوتني بين ذراعيها بقوة، وأنا أنظر إليها وإلى موكب الفلاحين في دعر، ثم رأيتهم أخيراً مكومين في "الدوار" ملتصقاً بعضهم ببعض، رعوسهم مدفونة بين ركبهم وآثار الكرايج فوق أجسادهم المهدودة.

انتهيت من الرسم. كان رشوان يفرّج العامل على الصورة التي سجلها له، نظر إليها الرجل مهوّرًا فقد كانت تشبّهه تمامًا، لكنه لما رأى رسمي صا ح مستكرًا: هذا أنا؟. ما هذه "الشخطة"؟ وعبّأ حاولت أن أشرح له قصدي، فقد انصرف عني ليتأمل بإعجاب رسم رشوان.. ولا أدري هل كانت صدفة أن تلتقي عيناى بعين شمس في هذه اللحظة أو أنني كنت أبحث عنه فعلاً، إلا أن بسمته ظلت تناديني وتحتوينى بدفء غريب!

تحت الشمس، تحت المصايح، رحنا نتجول، ونرسم، في بساطة. كانت مشاعري تندفق في غنائية على اللوحات، وفي كل يوم يلذ لي أن أتأمل وجهي في المرآة، وأبتهج باللون البرونزي المتوهج الذي اكتسبته من الشمس. ولم يكن شمس يفارقنا طوال هذه الجولات، إلا عندما يأتي موعد مدرسته قبل الظهر، فتركنا ليعود إلينا في المساء، وامتلاً دفترى بعشرات الصور له وكنا نعود - رشوان وأنا - بعد العشاء لننام في شقة المهندس يسرى، الذي يفاجأ كل مساء بكمية جديدة من الرسوم مبعثرة في أنحاء المسكن الهادئ مفسدة نظامه الدقيق. كان أحياناً يقلبها بسرعة ويبدى بعض الملاحظات مثل: لماذا لا نطلق شعورنا ولحانا ولا نلبس ملابس غريبة كالفتانين؟. لم يكن يداري استخفافه بعملنا، بل ويقول صراحة: إن البلد الآن ليست بحاجة إلى لوحات وإنما إلى مزيد من المصانع والمخابز. وبرغم ذلك كان يثني على رسوم رشوان ومهارته في التقاط الملامح دون أن يشير إلى أعمالي، التي لم تكن إلا بقعاً وخطوطاً غامضة عليه. وكنت دائماً ألتزم الصمت كعاديّ، ولم يكن رشوان يخفي فرحته برأي يسرى، ثم يتطوع بتشجيعي ببعض الكلمات، معتذراً بها عن تجاهل المهندس لي، أو يشرح له

بغموض كيف أن رسمي ينتمي إلى مذاهب أجنبية.. ولما كنت واثقاً ألا جدوى من النقاش، فقد طلبت منه أن يتكلم عن نفسه فقط، فيصمت واجتماً ثم يلوذ بالمهندس محولاً الحديث إلى العمل في السد.. وعندئذ يسترسل المهندس في الحديث بتدفق وحب غريبين، وتدب الحياة في وجهه الجامد، ويبدو صادقاً وقريناً إلى النفس.

عدنا إلى مسكنه متأخرين في تلك الليلة، وجدناه قد أطفأ النور ونام. طرقتنا الباب فترة حتى فتح لنا وعلى وجهه مزيج من الضيق والاشمزاز. اعتذر له رشوان بكلمات كثيرة زادت ضيقه، ونمنا أخيراً في صمت. وفي الصباح قبل خروجه إلى عمله، اقترح علينا أن ننتهي اليوم مما تبقى لنا عمله.

جمعت رسومي وأدواتي استعداداً للمغادرة المسكن. وحاول رشوان الاعتذار نيابة عن قريبه وهو يوضح لي أنه لم يقصد إهانتنا. وعند الضحى كنا ننتظر "الأتوبيس" ليعود بنا إلى أسوان تمهيداً للسفر إلى القاهرة.. كنت أحس بأن وجهي شاحب يغطيه الغبار، وقد "تلاشى" اللون البرونزي الذي اكتسبه في الأيام الماضية. وكان صوت رشوان يأتي خافتاً جداً، بينما أشعر أنني أنجرف بقوة نحو قاع البحيرة، وتعجز كل طاقتي عن المقاومة. وفجأة دق قلبي بفرحة ووخزة تأنيب.. لقد لحته هناك: شمس.. نقطة بيضاء تنساب نحو ممر عميق. وبأعلى صوتي ناديت: شمس! شمس! وعندما التفت لم يكن للفرحة حد. وبأقصى سرعة أخذ يجري نحونا، فتكبر النقطة البيضاء وتضخ النقطة السمراء فوقها تسبقها الابتسامة كشعاع القسفور. توقف يلهث وهو يوزع النظرات بيني وبين الحقائق. انطفأ الشعاع وقال في وجوم: مسافر!؟

داعبت شعره بمرح لأخفي انفعالي وقلت كاذبًا:

- هكذا هرب وأنا أبحث عنك منذ الصباح!

- لم تقل لي بالأمس أنكما مسافران.

- أين الرسم الذي "أعطيته لك"؟

- هناك.. في البيت.

- هل علقته؟

- لا.. احتفظت به حتى أكبر.. كما قلت لي.

اللحظات تمر بطيئة مؤلمة، كحبرير فوق شوك. تمنيت أن تسرع العربة بالجيء، وتمنيت في نفس الوقت ألا تجيء أبدًا!

- يجب أن تنجح في المدرسة كل سنة يا شمس.. كل سنة.

- سيضحكون علي مرة أخرى!

ولم في نهاية الطريق زجاج العربة. انتفض قلبي، وتعمدت ألا أنظر إلى شمس.

تسللت يده الصغيرة إلى يدي المتقلصة ثم تشبثت بها. انحنيت فجأة واحتضنته بقوة، ثم حملت الحقائب والأدوات والعربة تتوقف بالقرب منا. صعدت بسرعة دون أن أرى "رشوان" وهو يودعه. نظرت من النافذة والعربة تتحرك. سمعته يصيح:

- لقد خبأت الرسم في مكان لا يعرفه أحد.. حتى أكبر.

ومع بريق البسمة التي كست الوجه كله، كان هناك بريق آخر لدمعة تندرج على الخد البرونزي.. في وهج الشمس.

القطار

- كنت أفضل أن تركبي "البولمان" .. الزحام هنا لا يطاق.
- منذ ذهبت إلى تلك المدينة لم أركب غير القطار.
- لكن "البولمان" أنظف وأسرع.
- لم أخطر شيئاً، وجدت نفسي بدون قصد أركبه.

كان يعبث بسلسلة عنقها الذهبية، قامته الطويلة تجعل رأسه في مستوى نافذتها بالقطار، وجهه العسكري الملامح يحدق فيها دائماً بعينه الرماديتين كأنه لن يراها بعد ذلك أبداً.. "والآخر؟.. ماذا كان لون عينيه؟. كان يخفيهما دائماً خلف نظارة.. لكن ليس هذا هو السبب. السبب أنهما تفقد دائماً ملامحه.. تسقط من ذاكرتها برغم اليقظة الدائمة في حراستها.. للحظات خاطفة تذكرها ثم تفر، وكلما تشبثت بها ازدادت فراراً.. أن أفقده.. أن أفقد ذكرياتنا. أن يطوي النسيان كل شيء.. كل هذا يمكن أن يصدق.. أما أن أفقد ملامح الوجه!. يا إلهي!... حتى وجوه الأعداء لا ننساها. فكيف يضيع وجه الحبيب!؟

- سأعمل لك تليفوناً يوم الاثنين.

- يوم الاثنين سأخرج من الشغل مبكرة.

- ألا يمكنك الانتظار؟

أطلق القطار صفارة طويلة، خلقت نوبة مفاجئة من المرحج والتحفز على الرصيف وداخل العربات، وراح من في النوافذ يلقون لمودعيهم بآخر الوصايا في عبارات خاطفة. ووقف الصمت بينهما..

- لم تقولي.. هل ستنتظرين؟

الصفارة الثانية.. وتحرك القطار.. تنفست بارتياح.. ازدادت نظراته تشبهاً بما تريد النزاع الإجابة. سار خطوات مع القطار قبل أن يقول بصوته القاطع:

- على أي حال سأطلبك يوم الإثنين.. وأنت حرة.

جلست على المقعد وأغمضت عينيها. كان النور يتدفق بقوة داخل العربة بعد أن غادر القطار المحطة. آخر صورة رأتها قبل أن تغمض عينيها هي امرأة شابة تحمل رضيعاً وتبحث في المرر عن طفلها التائه.

يمتزج في صدرها الآن إحساس بخلاء فسيح مع دقائق ثقيلة متلاحقة تجعلها تغوص في بئر.. "هل كنت على صواب؟.. وكيف كنت أمنع نفسي اليوم من أن تغنى وهو يفرجني على "الشقة".. شقة أمه التي ستكون عش الزوجية... وقال:

- يجب أن يتم الزواج في أقرب وقت.

كانه في الميدان يحسم كل شيء بأمر لا يقبل الجدل.

- وما الداعي للاستعجال؟

- وما الداعي للتأجيل؟

- يجب أن نعرف بعضنا أكثر.

- أنا أعرفك جيدًا.. ألا تعرفيني؟.

- أريد أن أجدك.

- ألسنت موجودًا؟.

- أريد أن أجدك في داخلي.

- أنت تراوغين.. قولي: إنك تورطت في الارتباط بي.

قطع الأثاث الثقيلة مية في الحجرة الشاحبة النور.. إطارات اللوحات المذهبة تحرق من فوق الجدران ببريق بارد.. وأمه تجلس في حجرها هناك صامته دائمًا، وعندما تتحدث يبدو صوتها غليظًا كصوت رجل.. مليئًا بعظمة عزها الزائل.. أمه وقطع الأثاث وهذه الجدران الباردة ومن فوق الجميع تطل صورته الفخمة "ببدلته" العسكرية ونجومه اللامعة ونظراته التي لا تعرف التردد أو القلق، وإنما اعتادت السيطرة وإصدار الأوامر.. هذه إذن هي مملكتي وهذا هو تاج رأسي!.. وجاء صوته منخفضًا معتذرًا لأول مرة:

- أنا أسف يا حبيبي.. لم أقصد إهانتك.. فقط الإنسان يرى ما يحدث في هذه الأيام.. أنت لا تعرفين كما أعرف.. أنا أخشى.. أخشى أن أفقدك.. نحن في زمن ملعون!

لأول مرة تتحطم في عينيه الثقة والاعتداد ويبدو ضعيفًا خائرًا... بهذه السرعة سقطت كل الأقنعة.. لماذا لا تترع هي أيضًا أقنعتها، وتخبره بحقيقة

شعورها نحوه؟ إنما لا تستطيع.. لأنها جبانة.. "أنت جبانة! هكذا قال لها
الآخر هناك في "الكازينو" على مشارف المدينة الصغيرة الصامتة.. في آخر
لقاء بينهما..

- لماذا طلبت إجازة وسافرت إلى القاهرة؟

...

- الليمون لا يعجبك؟ هل أطلب لك شيئاً آخر؟

- شكراً.

- لماذا قلت شكراً؟

- ماذا أقول إذن؟

- إذا كنت لا تحبين الليمون فلماذا طلبته؟

وفجأة صاح وهو يذق المنضدة بكعب كوبه الفارغ.

- أنت جبانة! لماذا أخفيت عني نبأ خطبتك؟

...

- من أجل هذا سافرت في الأسبوع الماضي؟

...

- هل تحبينه؟

...

- هل هي مجرد الرغبة في الزواج؟

...

- لماذا رفضت إذن كل الرجال الذين تقدموا لك من قبل؟
- أنت تعرف.

2
- لم أعد أعرف شيئاً.. كنت أعرف أنك تجدين التفاهة والسدانة في معظم الرجال.. وأن في طبعك شيئاً يتمرد على أي قيد أو ارتباط غير روحي.. وأنت مثلي وحيدة غريبة في هذه المدينة التي لا تشعرين فيها بغير الملل.. كنت أعرف أنني أحبك وأنتك تحبيني.
- لكنك لا تعرف أمي.. والناس.

- أمك والناس! منذ متى تعملين للناس حساباً؟ لقد قال الناس عنك كل ما يمكن أن يقال عن فتاة تعيش وحدها ولم يعرفوا شيئاً عن داخلك.. عن أحزانك وقلقك الدائم.. عن أن الذي يربطنا ببعضنا البعض شيء فوق قوانينهم الزائفة.

- لم يكن من الممكن أن نتجاهل قوانينهم إلى النهاية.

- ومن أجل قوانينهم نقدم على الانتحار؟

- أنا لم أقدم على الانتحار.. بالعكس.. أنا أردت أن أحيى حياة واحدة.. مع الناس ومع نفسي. وليس كما أحيى الآن.. ممزقة بين الناس وبين نفسي.

- ألا يكفي أن تكوني صادقة مع نفسك؟

- كنت بعد أن نفترق في كل مرة أسأل نفسي: هل أنا على صواب؟
هل حقيقة أنت تحبني كما أحبك؟ أو أنك مثل كل الرجال لا تخلو من..

أوه!.. وإلا فلماذا رفضت الزواج بي؟. لقد قلت الكثير لتبرر ذلك.. لكنك لم تقل الحقيقة.. وهي أنك غير واثق من.. من أنك أحسنت الاختيار...
- ومن يستطيع أن يختار؟.

- أنا..

وانتفضت في فزع تنظر إلى الجالسين بجانبها في القطار بعد أن نطقت "أنا" بصوت مرتفع، فوجدت معظمهم مستغرقين في النوم، وكانوا وجوها غير التي رأتها عندما بدأ القطار رحلته.. ورأت المرقد ازدحم بالواقفين الذين جمعهم القطار من الطريق ليفرقهم بعد قليل على محطات أخرى. كان صوت الحركات والاهتزاز والطين يثقل رأسها ويملؤه بسخونة غامضة. ألقته على مسند المقعد وعادت تغمض عينيها.. كان القطار يندفع بسرعة هائلة والهواء يجعل خصلات شعرها تتطاير وتلتصق بخدها.. الهواء الدافئ الحامل برائحة زهور الليمون.. وأحسنت بأنها مخطوفة إلى عالم مجهول، سيحتفل اليوم بزفافها إلى حبيبها.. إنها تقترب من ملامحه.. تعثر عليها.. تتشبث بما حتى لا تضيع مرة أخرى.. كل شيء فيه.. حتى أصابعه وهي تنقلص وتنفرج على الكوب الزجاجي.. حتى وهو يشد في توتر "الأسك" الذي يثبت المفرش على المنضدة.

"- كان أول لقاء بيننا في القطار.. هل تذكرين؟.

- كنت أريد كل شيء ولا أعرف ما أريد.

- كنت غاية في الشحوب والرقّة.. وكان من الصعب أن نجد

الكلمات..

- ثم أصبحت فجأة أعرف ما أريده.
- وعندما وصلنا إلى الخطة كنا نعرف عن بعضنا البعض كل شيء..
- كأنا تعارفنا منذ ولدنا..
- وأصبحت هذه المدينة مسرحًا لقصة لا تنتمي إلى هذا العصر..
- لقد صنعنا أرضنا الخاصة..
- أرضنا التي ينقصها الأمان..
- الأمان.. الأمان.. الأمان.. ن.."

وكان القطار يهدئ من سرعته وهو يقترب من إحدى الخطات والناس تنهض وتتجه إلى باب النزول عندما لاح لها وجهه فجأة بين الزحام.. حملت بقوة وهي لا تصدق عينيها.. كان وجهه يفيض بالنضارة وهو يتجه نحوها.. يعلو ويهبط بين أمواج الناس.. لم تعد تسيطر على نفسها.. أنفاسها تتلاحق وهي تقف وذراعها ممدودة إليه.. والقطار يهدئ سرعته أكثر والزحام يشتد عند الباب.. تاه عن بصرها فجأة بين الناس المستجهين إلى الباب.. اندفعت لتلحق به قبل أن يزل.. لم يكن في الممر مكان لتقديم.. أخذت تدفع الواقفين أمامها بقوة وهي تشرئب لراها.. عاد وجهه يتمواج بين الزحام وعادت إليها الحياة.. أصبح الناس في الممر يتحولون إلى الاتجاه المضاد لاتجاهها واستحال تقدمها خطوة.. استخدمت كل قوتها وإرادتها لتسير.. فجأة تصدت لصدرها كف هائلة وأخذت تضغط عليه لتوقف تحركها.. وقف القطار وتحرك الناس للنزول وهو معهم.. لوحت بيدها وهي تصرخ باسمه لكنه لم يكثرث.. راحت تقاوم الكف الهائلة التي تعترض

صدرها دون جدوى.. أحست بالاختناق وعادت تناديه.. وعندما فتحت
عينها مذعورة كان القطار يتحرك من إحدى المحطات، وكانت ترى بجانبها
أشخاصاً لم ترهم من قبل..

أم شوقي

أطبقت على الشمس الصغيرة قبضة هائلة من السحب، وظلت تخنقها حتى انطفأ آخر شعاع ترسله إلى الأرض. رفعت هائم إلى السماء وجهها مستطلعاً، فبانت العينان محمرتين، وعلى الخدين آثار دموع. ظلت العينان تنبشان بين كتل السحاب عن أثر للشمس دون جدوى، فعادتتا متخاذلتين إلى القفة المليئة بالقمح، تنبشان - مع الأصابع الخشنة - عن قطع الطين والحصى. وعلى السطح الصغير الذي كان يموج منذ لحظات بالضياء والحركة، صمت فجأة كل شيء، الأطفال اللذان كانا يلعبان هنا اختفيا. الدجاجات التي كانت تجرى وتنش التراب. توقفت في أماكنها منكمشة على نفسها، وطوت واحدة تحت جناحها إحدى رجليها. وأمالت رأسها تنظر إلى السماء بعين واحدة في اهتمام، كأنما تترقب شيئاً ما ثم - وبلا سبب واضح - أطلقت زعيقاً طويلاً جاوبتها عليه بقية الدجاج في أصوات منكرة.

واصلت الأصابع المدربة نبش القمح، برغم موجة البرد التي اندفعت ترجف بقسوة كل شيء. وراودت هائم الرغبة في مواصلة البكاء. كانت

نفسها مهياةً لذلك. وانفعالها يتجمع في طرف أنفها ويلسعه، لا ينتظر غير إشارة صغيرة لينطلق.

النقط أنفها فجأة.. الرائحة التي لا يخطئها، دارت بنظرها على السطوح الجاورة، كان الدخان يتصاعد من عدة "مناور" هنا وهناك، أعمدة رفيعة زرقاء تتلوى ثم تذروها الريح، لتشر الرائحة الخاصة التي تصاحب المواسم، عادت إلى القمح بلا حماس.. الحزن يطفو.. يوهن سرعة الأصابع شيئاً فشيئاً.. يلقي على العينين غلالة تحيل القمح أمامها إلى رقعة صفراء لا يتضح فيها حب ولا طين.

راح شيء ما بصدرها يتدفق.. برفق.. ينداح ساخناً.. بطيئاً.. يتصاعد.. ينشر في طريقه دغدغة خفية.. تزداد فجأة سرعته وسخونته.. يصل إلى الأنف فيشعوطه.. وسقطت فوق القمح نقطة.. لم تلاحظها.. تبعها نقطتان.. واختلج صدرها كله.. ثم ارتعد.. وفجأة سقط رأسها على السطح الأصفر وانطلق البكاء بلا تحفظ..

... (بقي كدة يا نظيرة.. ما تجيش إلا منك؟.. يا فضيحتك يا هامم..
وقدام نسوان الحارة؟).

– "ياختي اتوكسي على جوزك اللي جتته باينه من الجلاية. وللا روجي شوفي ولادك اللي ماشين عرايا.. فقر وعنظة!".

.. (ويجيك قلب يا نظيرة.. تقوليها لأختك شقيقتك؟.. مهما يكون دا اللي يعرفها يعرفك.. الأعراب عنا ما قالوهاش.. أصحاب الأرض اللي ما قبضوش الإيجار لغاية دلوقت ما قالوهاش.. تقومي تقوليها أنت؟.. ومراة محمد دغدي قاعدة.. وأنت عارفة أن ابنها زميل شوقي في المدرسة؟).

وتنهدت هانم.. (أين كانت أختها تخزن لها كل هذا؟).

من صباح أمس - منذ فعلت ما فعلت - وهي لا تكف عن أن تسأل نفسها هذا السؤال.

في بعض اللحظات، يبدو لها الأمر كله كأنما رأته في حلم قديم.. وأحياناً تتخيل أنه سبق أن حدث لها شيء كهذا - بل هو نفسه - منذ زمن بعيد، ربما قبل أن تتزوج.. أو حتى وهي طفلة.

ظلت طوال يوم أمس وليلته، تفتش في ذاكرتها عن أشياء قد تكون أساءت بها إلى أختها. ولم تجد. لكنها ظلت لا تصدق، أن السبب ليس أكثر من أنها طلبت منها "قرشين سلف" لتشتري لحمة الموسم، فاليوم "نص شعبان" وكل الناس تشتري اللحم، والعيال ينظرون إلى العيال، وشوقي سيحضر والرجل قلب لها جيوبه وقال: "اتصرفي!"... لا يمكن أن يكون هذا هو السبب، فطول عمرها تستلف منها وترد، ولم يحدث أن امتنعت عن السداد. وحتى إذا كانت لا تريد إقراضها، فقد كان يمكنها أن تقول لها ذلك ببساطة، وبلا فضيحة.

لحظتها تدفق في فم هانم كلام كثير، أوشكت أن ترد به على أختها:

"أنت فاكرة أن اللي أنت فيه عز بصحيح؟.. الحال من بعضه. وإذا كان جوزك قدر يشتري فدانين فهما من قوت عيالكم. كفاية أنهم طلوعوا كلهم فلاحين. ولا واحد منهم دخل المدرسة.. مستكترين علينا نعلم الولد وتقولوا حرمنا نفسنا عشانه؟.. وماله؟.. كلها كام شهر ويأخذ الشهادة.. والنبي هي عندنا أحسن من ميت فدان.. طب قوليلي أنت عملتي إيه بفدادينك؟"

لكنها لم تقو على لفظ شيء من كل هذا. كان الدهول والعار قد شالاً
لسانها.

خرجت من عندها تحبس الدمع حتى وصلت الدار، وهناك وجدت
زوجها. وكان لا بد - وهي في حالتها تلك - أن يعرف كل شيء، لكنها
أحست بالندم في الحال لأنها أخبرتته، فأقل عقاب لها أنه سيحرم عليهم د
خول بيت أهلها ربما لعدة سنين. ودفعها الندم إلى ارتكاب حماقة جديدة،
لقد ذهبت اليوم إلى "أم راضي" فاستلفت النقود واشترت اللحم.

وعندما سألتها رجلها عن مصدره ردت بأن أختها أرسلتها إليها تكفيراً
عن غلطتها: خطر هانم أنها بذلك تفعل ما لا بد أن يتحقق في يوم ما فهي
حتى الآن لا تصدق أن أختها يمكن أن تبيعها بهذه السهولة.

لكنها كانت الطامة!

انفجر كل الغضب الذي كبتته زوجها بالأمس، لعنها ولعن أختها وكل
شيء، وأقسم إذا رجع ووجد اللحم في البيت فسيرميه للكلاب في
الشارع.

هبّت ريح هوجاء، أثارّت حولها زوبعة من التراب والحطّ، فأحكمت
من لف الطرحة حول رأسها وهي تعاود النظر إلى السماء، تبحث عن
الشمس المخنوقة، كانت ما تزال بما بقية حياة تصارع بما السحب، لكنها
ما أن تفلح في الخلاص من كتلة حتى تتلقفها أخرى أكثر سواداً وقسوة.

فكرت أن تقوم وتترل إلى الدار، بعد أن ينست من بزوغ الشمس مرة
أخرى لكن ذهنها كان مشدوداً إلى التفكير في مسألة اللحم. إنها لم تفكر

حتى الآن فيما ينبغي أن تفعل به. عليها أن تتصرف قبل أن يأتي الرجل.
إنها تعرف عناده!

لكن مجرد تفكيرها في أن "شوقى" سيحصر فلا يجد غير الأكل الذي مله في غربته، عاد يفتح في داخلها صمامات الألم... سوف يخرج الصغار الليلة ويزفون "أبو الريش" مع الأولاد الذين تفوح منهم جميعاً رائحة الإدام.. وهم وحدهم يتشممون هذه الرائحة ويبلعون لعابهم.. وشوقى.. وشوقى.. الذي تحسب لميعاد حضوره باليوم والدقيقة...

وهفهم على قلبها جناح صغير، أخذ يكبر بسرعة، وكلمما ازدادت ضرباته قوة، ازدادت هي شجناً "وحنية"... تسللت إلى جسدها المقرور موجة من الدفء، أحست بما دون أن تنتبه إلى مصدرها. أصبحت الآن ترى حبات القمح بوضوح. حانت منها لفتة إلى أعلى.. وفوجئت بأن الشمس قد بزغت، بعد أن تراجعت عنها فلول السحب، فمألت الدنيا بالضيء والدفء.

أحست هانم لأول مرة طوال هذا اليوم بالنشاط. عادت تبتش في الرقعة الصفراء بحماس، لكنها في الحقيقة لم تكن ترى القمح أو الطين، بل كانت ترى الوجه النحيل ذا الحواجب الثقيلة والعينين الصغيرتين، الدائرتين بسلا توقف وراء سطور كتاب ناصع، والشفنتين الرقيقتين وفوقهما الزغب الأخضر ينمو ويسود في حياء.. إنهما تتحركان بلا صوت.. تلتهمان السطور.. تتوقفان الآن.. ترف عليهما ابتسامة مترددة. تأخذ في الاتساع شيئاً فشيئاً.

وفرت الصورة الجميلة على إثر وقع خطوات تصعد السلم بسرعة، ما لبث أن ظهر صاحبها على رأس السلم بقامته الضئيلة، ووجهه الصغير المهلل..

- "أمه.. أويواجه وجاب كرمب.

وألقى الطفل بنفسه على ظهرها يحاول أن يركبه، وهو يدفعها بقدميه الصغيرتين..

- "قومي بقى عشان عملي محشي.. قومي!" شعرت بالألم يغزو قلبها من جديد، لكن كان عليها أن تنزل برغم كل شيء.

على المصطبة في وسط الدار، رآته يجلس القرفصاء، وبجواره كرمبتان ضخمتان احتلتا بقية المصطبة. رملها بنظرة خاطفة وهي نازلة على السلم، ثم عاد فنكس رأسه.

وقفت أمامه في صمت استمر ذلك لحظات. قال دون أن يرفع بصره:

- "الغدا جاهز؟".

- "أديني رايحة أقمر.. العيش..".

قالتها وهي توليه ظهرها وتسير. تابعتها صوته الغليظ الخافت:

- "رجعتي للحممة؟"

دخلت الحجرة تحضر العيش البارد، وخرجت به إلى (الكانون). أعاد السؤال بصوت مرتفع، أحست في هذه اللحظة بأنها تكرهه وتكره كل شيء..

- "ما رجعتش!" -

وفوجئت بصمته، بعد هذه الإجابة التي ألقتهَا وهي تجازف. اختلست إليه نظرة، كان ما يزال مطرقاً، كأن شيئاً ثقيلاً يجثم فوقه.

لم يتحدثنا في أثناء الأكل. فقط عندما سألت "صابر" الصغير في رجاء:

"مش حتعملي المحشي يامه؟" .. قالت وهي تنظر في لقمتهَا وتستهجد:

- "لما تيجي اللحمة يا بني".

- "واللحمة حتيجي وقتيه؟".

وتقابلت العيون بلا قصد..

لم يستغرق التفاهم كثيراً، وسرعان ما دبّت الحركة حول "الطبلية"، وطلبت هانم من الصغار في مرح ألا يملأوا بطونهم حتى يتعشوا جيداً مع أخيهم شوقي.

ولم يمض وقت طويل حتى كانت هانم تجنو أمام "الكانون"، تنفخ في قطع الخشب المتوهجة وعيناها تملؤها الدموع... بينما كان عمود من الدخان الأزرق يتصاعد من الكانون والحلة محملة بالرائحة الحلوة، يصعد بها من خلال "النور"، لتحملها الرياح، تدور بها على السطوح والبيوت.. والدنيا كلها...

قمر الليلة السابعة

الليلة الأولى...

هبت نسمة عابثة، فانطلق طائر من وسط الظلام، وأطلق نداء غامضًا كتهيدة... تابعته بعينها حتى ذاب في السماء التي يزحف عليها القمر من خلف العمارات القائمة... خطر لها أن كل ذلك قد حدث بتفاصيله من قبل... انطلق الطائر وسعت آهته وشمت رائحة الظلام، وكانت تنتظر أيضًا.. لكن متى وأين؟... وأعيها التذكر، ثم تلاشى الخاطر في نعومة، بعد أن ترك في مكانه فراغًا فسيحًا تملؤه النشوة، نشوة العائد إلى أحبائه بعد طول غياب: بيت أمها وشباكها الصغير وجلستها المعتادة.. والقمر والانتظار..

... هذا الصباح جاءت لتزور أمها مع زوجها عبده، ككل يوم جمعة. كانت أمها مريضة.. تركهما عبده لحظة فهمست لها الأم بأن "شكري" قد عاد.. زارها بالأمس ووعدها بأنه سيأتي الليلة. الفرحة؟.. كلمة هزيلة شاحبة أمام هذا الزلزال الذي حدث بداخلها، قد يكون هذا ما يحدث حين تعود الروح... وكان يكفي "بديعة" أن تبقى إلى الأبد تنتظره، سعيدة

مجرد انتظاره، ولو لم يأت أبداً" ... فحتى عندما زوجها، بل حتى عندما
أنجبت الطفل، لم يكن ذلك ليساوى لحظة واحدة من لحظات انتظارها
لشكرى..

– غطيني يا بديعة.. أنا بردانة.

قالت وهي تدثرها: ألم يقل متى يأتى بالضبط؟
اعتدلت الأم وهي تتأوه: قومي يا بنتى إلى بيتك... عبده هناك مشغول
عليك..

– أخبرته أنني سأبيت معك... كيف أتركك فى هذه الحالة؟

– يا بنتى لا فائدة من انتظاره – ليس لك إلا بيتك وزوجك.

– ما هذا الكلام يا أمى؟.. هل قلت لك: أنى جنت لأنظره؟.

– طيب يا بنتى لا تغضبي.. أنا فقط قلبى عليك.

وحين جاء مع "السمسار" لأول مرة قال ووجهه نحو البلاط:

– يهمنى الهدوء قبل كل شيء يا أمى.

كنت أنظر إليه ويدي فى خصرى.. فرحت أمى به منذ ناداها بيا أمى..
دفع "العربون" وخرج ليحضر الحقيية.. قلت لأمى ضاحكة ويدي لا تزال
فى خصرى

– صبرت حتى نلت "ياست".. طلبت ساكنًا فجاءك الساكن والابن
ورجل البيت الذي يعطى الأوامر.

– اسمعي يا بنتى.. قولى بالصراحة ماذا تريدين؟ ما من ساكن يأتى إلا
"ويطفش من معاملتك.. هل نموت من الجوع؟.

أدركت أن العراك لن يجدى ففضلت التراجع:

- هكذا وقعت في غرامه بهذه السرعة "يا وليه"؟.. صحيح الحب

أعمى!

وما أسرع "ما إنفك" عبوسها وتعالّت ضحكها الطيبة.

استغرقت الأم في النوم، فانسحبت من الحجرة كالطيف. ألقت نظرة على فراش الطفل في الحجرة الأخرى.. الظل يغطي وجهه، ويترك الفم والصدر يكسوهما ضوء القمر.. خطر لها أن تقبله، لكنها كانت قد وصلت إلى الشباك ونسيت الأمر تمامًا..

في السماء سحابات صيفية بيضاء تناوش القمر في مرح..

وفي ذلك اليوم الخريفي كانت السحب ثقيلة سوداء.. وبرغم الحقول العريضة والهواء المنعش في قرية خالتي، أحسست بالاختناق: كنت هاربة.. فعبده يلح لتحديد موعد الزفاف، بعد أن أعدت الشقة والأثاث وكل شيء، وكلما اقترب الموعد ازداد اختناقي.. لا جدوى من الرفض، بل لا حجة عندي للرفض: عامل بشركة - صحيح لكنه "غندور وكسيب" كما تقول الأم.. وكان أحد من لعبت بقلوبهم.. رآني يومًا على "الكورنيش" قبل أن أعرف "شكري"، تابعني فلم أعترض.. وتعودت وأنا في شباكي هذا أن أتسلى بمنظره وهو ينتظرنى على "قمة" الشارع. وجاء شكري، فتغير كل شيء.. لم أعد أغادر البيت، حتى نسيت عبده تمامًا، لكن البيت الذي هجره شكري فيما بعد، لم أعد أحتمل البقاء فيه، وعدت إلى الخروج، وعاد عبده إلى، لكننى إطلاقًا لم يخطر ببالى أن هذه هي النهاية! بدأ الطفل يبكي. انتهت إلى أن ذراعها تحدر من ضغط رأسها عليه، ترى كم الساعة.. لكنه سيأتي.. سيأتي! المسارح تتأخر إلى ما بعد منتصف الليل.

مضت إلى الطفل وتمدت إلى جواره. أعطته زجاجة اللبن.

أخيراً حقق الأمنية!

هذه المرة حضر إلى الإسكندرية مع رواية له تعرض في المسرح الصيفي - كما أخبر أمها - لا موظفاً "بسيطاً" كما كان في العام الماضي.

باب حجرته عتيق ومعتم.. باب حجرته بلا زجاج.. قبل أن يستأجرها كان مفتوحاً دائماً، ثم أصبح مساحة كنيية مغلقة على سر غامض يجعلني أختنق.

تعمدت أن أحدث ضجة في الصالة لأرغمه على أن يفتح الباب.. إنسه يفتح فعلاً ويطل برأسه، ثم يتساءل بصوت خافت كالأعذار:

- "ممكن تعملي لي شاي من فضلك؟".

طرت إلى المطبخ، وبعد دقائق طرقت باب حجرته ودخلت أحمل الشاي.. جذبت نظري الكتب التي تطل من حقيبته الضخمة.

كل هذه الكتب اشتريتها؟. وماذا تفعل بها؟. أوه! ما هذا.. أنت تكتب أيضاً؟.. هل تريد أن تؤلف مثلها؟ أنا كتبت مرة قصة.. قصة حب. هل تكتب عن الحب أيضاً؟

كان يتسم طوال الوقت بركن فمه، ثم بدأ يتحدث، صكت أذني ككلمات غريبة. تابعته لفترة ثم عجزت عن ذلك. راحت تتأمل وجهه.. شكله لا بأس به لكن.. يكون أفضل لو قام وحلق ذقنه فهي نامية أكثر من اللازم، عاد يكتب، إنه يكتب بقلم رصاص.. الكتابة باقلم الرصاص لا تعطى قصة ذات قيمة... لماذا لا يجب الكلام؟.. أنه يعتمد إهمالها.. لكن

صبراً، فبعد قليل ينضم إلى طابور اللاهثين وراءها، وتجلجل ضحكات
الشیطان القديم بداخلها.. إنه صيد ثمين لها ذلك الذي يفتعل الرزانة
واللامبالاة، فما من عين وهانة، أو رغبة مظلة من شاب مفتون تطيح
بصوابه أنوثتها الطاغية، إلا فضحها الشيطان وقهقهه ساخراً.. وكلما ازداد
اللاهثون وراءها ازداد شيطانها هوساً بالعبث بهم وارتفعت قهقهاته..
تتشفى؟.. لكن ما هؤلاء والعربة الحمراء الصغيرة التي داست قلبها يوماً
وهي مراهقة حين تعلقت بصاحبها الغني؟... لم يكن ذلك كل شيء.. ففي
مكان ما بصدرها يقيم ساكن آخر يشكو البرد، ويبحث في كل عين عن
الدفء.. عن معنى آخر غير العبث - فلا يجد.. ويسحقها الألم، فتدور في
الشوارع "والكورنيش" وحيدة، لكن مندفعة كعاصفة أنثوية، تعصف بمن
أمامها ومن خلفها... وشيئا فشيئا تملو القهقهات مؤكدة أنها الأقوى...
لكن هذا الوافد الرزين لا يكثرث بالعاصفة.. حسناً.. فلنقبل التحدى..!
... قمت فجأة فجلست على ذراع مقعده رحت أتأمله وهو يكتب،
جسمي ملاصق لذراعه، توقف عن الكتابة، بدا لي متردداً وضعيفاً،
استخفني الفرح، إنه استسلم بأسرع مما توقعت..
- إسمعي يا بديعة.. سأحكى لك حكاية...

وبدا يحكى قصة اغترابه من بلد إلى بلد، بلا رفيق غير هذه الحقيبة المليئة
بالكتب.. ما بلدك؟.. البلد الذي أوجد فيه!.. لا أهل لك؟.. أنا ما زلت
أبحث عنهم.. ولا حبيب؟ أكثر استحالة من الأهل... سراب!.. نحن نشعر
أنك واحد منا... أمي تحبك وأنا ليس لى أخ... عاد إلى الكلمات الغريبة

حتى عجزت عن متابعته وسرحت في شيء آخر... فجأة اكتشفت أنه يتحدث عن استحالة قيام علاقة بيننا..

انفضت أصبح في وجهه بغضب.. ومن تظن نفسك حتى تقوم بيننا علاقة؟.. وغادرت البيت وهمت في الشوارع كالجئونة، تملكني الرغبة في أن أركب قطاراً يندفع بي إلى مكان مجهول خال تماماً من البشر... وجدت نفسي أعلو.. أعلو.. حتى يصير الناس كالأقزام.. يستولي عليّ الخوف من الفراغ البارد الذي أصبح فيه وحدي.. وأحس بالحاجة إلى الناس.. فأعود إلى البيت مهدودة... وقبل أن أنام يلح علي السؤال: كيف أرد الإهانة وأثبت له أنني الأقوى؟.. وأقرر أن أعلن التحدي حتى لو كانت النتيجة طرده من البيت.. لكن ما أن تلقي عياني به في الصباح حتى أفقد السيطرة على شجاعتي ويتلاشى كل ما بيته.. أصبحت له عليّ سيطرة غريبة.. أنه الإنسان الوحيد الذي ظل محتفظاً بحجمه وسط مدينة الأقزام.

وعندما وقفت بباب حجرته حين دعاني بعد ذلك، كان صدري يخفق بالفرحة والخوف واللهفة والمهانة.. همس بصوت ممتلي بخشونة متميزة.

- لماذا تقفين هكذا؟.. اجلسي.

جلست.. نفس المقعد! وها هو يفعل نفس الشيء.. يجلس على الذراع وأحس حرارة جسمه في كتفي.. كان صوته ذو النغمة المتميزة يغرقني مثل هام دافئ، ثم يحملني فنحلق معاً فوق موجات صوته... لكن ما للدموع تنهمر حين يمسك بيدي بين يديه؟... ولماذا تزداد حين يمسحها براحتة؟...

ثم تتوقف آخر الأمر حين يمسه بشفتيه!.. لكن الأغرب ألا تعود كلماته غامضة علي كما كانت أول يوم... أصبحت متعة أن يقرأ لي كل يوم... وأجد لكل شيء معنى من خلال صوته الذي أشعر بلمسه الدافئ الخشن أكثر مما أسمع.. وتبتسم لنا أمي في حنان، فهي تحبه أيضاً: أصبح الأمر عادياً تماماً، ولم يعد يقلقها أن أسهر معه بعد أن تنام هي، أو أن نخرج معاً في نزهة قصيرة..

الليلة الثانية...

سارت نحو الشباك في وجل. منذ لحظة خروج زوجها بعد أن قضى ساعتين حول فراش أمها، كانت خلاهما تتمنى أن تخلو إلى نفسها بأسرع وقت.. ثمّة إحساس يخالجها منذ الصباح بأنه لن يجيء اليوم أيضاً، وإن كان صوته طول اليوم يملأ أذنيها والبيت كله، وتلتقي بوجهه في كل مكان.. مبتسماً أو مقطباً، مغمض العينين كما كانت تراه نائماً والكتاب على صدره أو وهو يفتحهما كنافذتين على سماء باهتة يكتنفها الغموض... نافذتين لم تعرف منهما حتى آخر يوم - قبل أن يرحل - حقيقة شعوره نحوها.. كثيراً ما تكلم عن الحب، لكنه ما تكلم قط عن حبه لها... وعندما ينساق بمها الحديث إلى هذه الخافة ويوشك السؤال أن يخرج من فمها، يطل عليها من هاتين النافذتين فتتوه في سمائهما الغامضة، وتسرى بداخلها البرودة حتى يتقدها صوته الدافئ... إلا أن هذا الصوت نفسه كثيراً ما كان يفرعها حين يتكلم عن احتمال تركه المدينة... وعندما تلومه يعذبها بهذه الكلمة التي يصر على ترديدها كأنها يستمتع بألمها... الشخص التي

أتت به الريح يمكن أن تذهب به الريح، لكن ما يبقى هو أثره الذي يدفع إلى معنى جديد....

كان القمر هزيلًا كبيرتقالة معطوبة، والحديقة في البيت المقابل صامتة كالمقبرة، وثمة كلب في مكان ما، يرن جرس معلق بعنقه كلما تحرك، والطفل مستلق على ظهره في الفراش يناغي نفسه بعد أن شبع من حنان أبيه.. وما يمكنني أن أفعل بخنانه؟.. إنه يسعى لإرضائي بأقصى طاقاته، إلا أنني أشعر دائمًا - بمجرد أن يبدأ في أحد أحاديثه عن الشغل والأجور - بأنني أسير وحيدة في صحراء لا حدود لها والشمس ملتهبة فوق رأسي، وحلقى جاف لا يجد قطرة ماء...

حاولت أن أروض نفسي على أن هذه هي حياتي، والسعادة في الرضا كما تقول أمي، لم أفكر يومًا في خيانتها أو أقصر في حق من حقوقه، إلا أن كل يوم يمر كان يضاعف المسافة بيننا: لا ضحكة، لا فرحة. لا دهشة. لا غضب. الفطور فالغذاء فالعشاء فالسرير.. والبطنون تمتلئ والأمعاء تمضمم... وبطنه ينتفخ من الطعام والسعادة، وبطنى ينتفخ من المخلوق الغريب الوافد... وهو "يدلق" على المزيد من الحنان والطعام، وأمي "تدلق" على النصائح "والوصفات"، وتحمد الله في السر والعلن على أن هداين وطرده من جسمي الشياطين... والفطور فالغذاء فالعشاء فالسرير.. والجمعة هو يوم الزيارة - والسبت هو الأحد والأحد هو الخميس...!

أخبرت أمي بأنني أصبحت زوجة وأما... أكون هذا ما يمنعه من المحي؟.. لكنني أستبعد هذا... لقد قال يومًا: إن الزواج أفضل لي من كل الكتب والأحلام.

ألقيت بعيني في عينيه... ألقيت بالسؤال الصامت من خلال النافذتين في
سكون سمانه الغامضة.. وأنت..؟.. لو لم يضمني إلى صدره في تلك اللحظة
لسقطت في بئر كنت أقف على حافتها، تشبثت به وما زلت أرى البئر...
ولم يجب عن سؤال عيني، لكنه أجاب عنه يوم الرحيل وهو يحتضن حقيقته
الضخمة.. تلك المنافسة اللعينة!.. يا إلهي!.. وكان يضحك.. أنا لا أجرؤ
على تذكر تلك اللحظة.. كان سعيدًا ومرحًا وهو يربت عليها قائلاً: هذه
زوجتي!

في نهاية الشارع رأت شبحًا يقترب وظله الطويل يتمايل خلفه... دق
قلبها بعنف. ليته يسرع بالاقتراب، لكنه يسير ببطء متمايلًا كسكران -
هي نفس القامة والالمحناء الخفيفة، لو أستطيع الاحتفاظ بالهدوء... إنه
الآن في محاذاة عمود النور... أصبح النور في ظهره.. الظل يستلقى أمامه..
يطول. ويطول.. متموجًا.. كضحكات الشيطان الساخر الذي هجرها منذ
زمن..

خطر لها فجأة أنها طوال حياتها لم تمتلك شيئًا حقيقيًا.. حتى اللعب لم
يكن هناك أب يشتريها لها في طفولتها.. حاولت مرارًا أن تحتفظ لنفسها
بأشياء، فتسرب من بين أصابعها دون أن تشعر.. والآن.. حتى الذكري
تبتدد... كل ما يماكانها أن تملكه هو الانتظار، كما ظلت أمها سنوات
طويلة تنتظر عودة زوجها الصياد. وعندما أخبروها أنه غرق في البحر
كذبتهم، وصدقت العراف العجوز حين أخبرها بأنه ما زال حيا وسعود،
فمن يتوه في البحر قد يأتي بعد سبع ليال أو سبعة شهور أو سبع سنوات!

الليلة الثالثة... الرابعة... الخامسة... ولم يأت.

نفدت آخر ذرة من قدرتها على الانتظار. عاد جسمها إلى التمدد، والتحقيق أصبح الشباك والحجرة والبيت والوجود كله قفصاً حديدياً يطبق عليها، راحت تدور بألماء البيت كسجينة أو كمجنونة. فكرت أكثر من مرة أن تندفع إلى البحر وتلقى بنفسها، وصدورها مفعم بذكرى أبيها الذي لا تذكر ملامحه... وفي كل مرة كانت تتراجع أمام احتمال صغير ان يأتي في اللحظة التالية لخروجها..

شفت أمها تماماً ولم تعد بحاجة إلى بقائها معها... قالت لها بتوسل:

- يا بنتي ارحى نفسك... لا فائدة من كل هذا...

حضر زوجها وأخذ يلح ليعود إلى شقتها... انضمت إليه أمها... بدت أمامها بانسة ومقهورة... طلبت منهما في ضعف أن تبقى هذه الليلة فقط... وفكرت أن تسأل أمها عن العراف العجوز... وفي انتفاضة مباغته قررت شيئاً...

... في الصباح خرجت تبحث عنه في المسارح الصيفية المنتشرة في المدينة لم تجد في أي منها رواية من تأليفه، بل ولا أحد يعرفه. أوشكت أن تعتقد أنها وقعت ضحية خدعة، لولا أنهم دلّوها أخيراً على شخص بأحد المسارح يمكنه إفادتها، قضت ساعات تبحث عنه حتى عثرت عليه. ولم تصدق أذنيها عندما قال: إنه يعرف فعلاً وسوف يقابله اليوم. رجته أن يخبره بسؤالها عنه، وطارت إلى البيت بجناحي الفرحة، مزودة بطاقة جديدة على الانتظار.

الليلة السادسة...

الدقائق أحجار غليظة تتراكم فوق صدرها حتى صارت بناء هائلًا... ولم

يأت

بدأ يولد بداخل البناء شعور صغير بالغضب، أخذ ينمو بإصرار. جرّوت عندئذ على أن تسأل نفسها: ماذا أريد منه حتى لو جاء... قضمت كل أظافرها ولم تجد جوابًا... وعاد عبده يلح ليعود معه فوجدت نفسها تصرخ: لا أريد أن أعود... لماذا؟... لأني لا أريد... لكني أمرك... لا أمر لأحد على.. هكذا؟... نعم هكذا... ستدمين يا بديعة... أنا لا أندم على شيء... سامعة يا نينه ماذا تقول؟... يا بنتي إقصري الشر وروّحي"... لن أقصر الشر ودعيه يفعل ما بداله... طيب يا بديعة... معلش!...

وصفق الباب خلفه فانخلع قلب الأم، ولم تجرؤ أن تكلمها فهي تعرفها عندما تثور...

ودخلت حجرتها ووقفت في الشباك. امتص الظلام بعض ثورتها. وعندما بدأت تفكر بهدوء انتزعها بكاء الطفل. حاولت إسكاته بلا جدوى، وفوجئت بأن حرارته مرتفعة بدرجة مزعجة، وتذكرت أنه لم يرضع طوال يوم تقريبًا. أعدت بعض الينسون وأفرغته في فمه فتقيأه في الحال. أنفاسه تتلاحق، جفناه متراخيان، يرنو إليها كالتائه، لا تذكر أبدًا أنها جريت هذا الخوف من قبل، انصبت فجأة في أعماقها كمية هائلة من الخوف على طفلها... شعور لحوح رهيب يطاردها: ستفقده الليلة... الليلة... صرخت في هلع:

- عبده... عبده...

وتذكرت أنه ليس في البيت، فأخفت "أشرف" داخل صدرها وهمست:

- يا حبيبي!

الليلة السابعة...

وهي تنتظر "الدور" بعيادة الطبيب وتحس - وهي تأمل وجه طفلها الشاحب - بأنها لم ترزق به إلا منذ يوم واحد فقط أو مضت في ذهنها لسبب ما - صورة شكرى وهو يحمل حقيته للرحيل. ارتجفت لحظات أمام الذكرى، لكن عيني أشرف كانتا تتطلعان إليها بزرقتهما العميقة.. وخيل لها أنها ترى فيهما قمرًا صغيرًا...

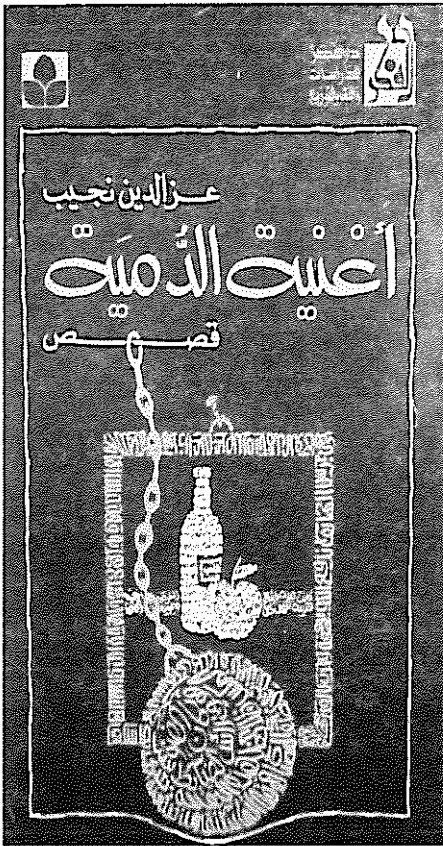
عندما عادت إلى شقة أمها وجدت عبده في انتظارها يعصف به القلق أحضن الطفل وراح يطره بقبالاته، دون أن يشير إلى ما حدث بالأمس، تدفق في صدرها نحوه شعور غامض لم تجر به من قبل - ناعم وحنون، وهمت أن تخبره إنها ليلة أمس صاحت تستغيث به وأشرف بين يديها كالميت، قال برقة كالمعتد: ألن نذهب؟

- سنذهب.. فقط سأستريح قليلًا من المشوار.

مضت بلهفة إلى الشباك. وقفت تحمق في الأشجار بالحديقة، تنفس بانتظام، ليس على صدرها الآن ذلك البناء الحجري، فقط تلسف قلبها غلالة رقيقة من الحزن - ليس هناك صوت غير جلجلة الجرس في عنق الكلب. تذكرت أنها لم تر القمر. بحثت عنه في السماء المعتمة دون فائدة.

ليلة أمس لم تره أيضاً: ترى أين يضى الآن؟... ربما يظهر الليلة في ساعة متأخرة... ربما كان محرقاً ذلك العراف العجوز... وكانت مسكينة أمي عندما صدقته... قال الطبيب يجب أن ترضعي الطفل من ثديك أنت لا من الزجاج؟.. كانت عيناه في العيادة زرقاوين صافيتين، قال شكري يوماً: الشيء الوحيد الذي لا يتغير في الإنسان هو لون عينيه... وماذا كان لون عينيك أنت... يا حبيبي؟

أغلقت النافذة. اتجهت إلى زوجها. تناولت الطفل وضمته إلى صدرها. قبلتها أمها قبل أن تمبط... ثم راحت تمبط الدرجات في صمت...



أغنية الدمية

«أغنية الدمية»، مجموعة قصصية، الطبعة الأولى، اتحاد الكتاب العرب، دمشق
١٩٧٥، الطبعة الثانية، دار الفكر، القاهرة، ١٩٨٧.

مشهد من وراء السور

(١)

اختطفت الومضة كل الأبصار.. تجمدوا في أماكنهم: كل من في البحر أو بالشاطئ؛ وجوههم نحو السماء، أكفهم فوق عيونهم..

كانت هناك، آلاف الأجساد العارية المترهلة؛ التي أتت منذ الصباح لتهو بلا حائل - حتى من شماسي البحر - بينها وبين هذه الشمس السخية، أصبح أصحابها فجأة مجرد بقع صغيرة مبعثرة، كعقود شاحبة انفرطت في كل اتجاه. عند الرؤوس السوداء تضيء آلاف الشطقات الصغيرة، من لمسات الشمس فوق الأيدي التي تحمي العيون.

وكانت هناك، الكتلة الصغيرة المستطيلة الداكنة، اللامعة أحياناً، السابجة في الفضاء بغير صوت، الدائرة حول نفسها كالبريمة، المتجهة إلى الجنوب وإلى أسفل ببطء، لكن بإصرار.

رغم ظل الأكف السوداء، فقد كشف كل وجه عن شيء ما ابتداء من التساؤل حتى الهلع، واختلطت الصيحات بالهمهمات.

إنه يتجه نحونا.. سفينة فضاء؟.. صاروخ ذرى؟ يا ماما!.. يرسل إشارات ضوئية.. هذه انعكاسات الشمس.. اغطسوا.. اغطسوا قبل أن يحددكم جميعاً.. فال الله ولا فالك! وجهه شؤم! يا حفيظ!.. هذه من علامات الساعة.. الفاتحة.. أعلنت الحرب.. تشهدوا على أرواحكم.

اخترقت الطنين المذهول صحيحة وثيقة:

- أنظروا إلى سرعته ودرجة ميله.. مستحيل أن يصل إلى الأرض قبل مئات الأميال.

سرى أثر الصيحة بينهم كالسحر، استرخت الأعصاب المكهربة، وأصبح من حق أعضاء الجسم أن تتحرك في كل اتجاه بلا حرج. اتجهت الأقدام نحو الماء البارد، ترطب الجلود الساخنة من لسعة الشمس، وتداعب ألسنة الموجات الناعمة وهي تسعى لتلحق رمال الشاطئ، اندفعت الأجساد العارية، بتحرر تام من تسلط أي خطر لتغوص في الماء تنثر الرذاذ، أو لتحتضن رؤوس الأمواج الشرسة، وعادت الحياة شيئاً فشيئاً إلى بحر الصخب المتجمد، ولم يعد هناك أحد تقريباً يقف متطلعاً إلى الجسم الغريب، أو حتى يذكر عنه أي شيء.

(٢)

كان السور يمتد على طول "البلاج" الضيق اللانمائي الطول، من خلف صف الكبان الحجرية المتآكلة، ويحجب تماماً ما وراءه من بنايات المدينة. أحجاره كبيرة خشنة ذات نتوءات. تتخلله فتحات متباعدة رأسية حادة، تبدو كفتحات للبنادق أو مزاغل الرماة في الحصون القديمة. في أماكن غير

قليلة منه آثار تقدم وتجريح، بعضها حديث وبعضها يرجع إلى حقب بعيدة، لكنها جميعاً آثار سطحية لم تستطع أن تنال من رسوخه وتماسكه، لونه يجمع بين الرمادى الفاتح والأصفر الطينى والبني المحروق. في بعض أجزائه يبدو كل لون من هذه الألوان مستقلاً وفي أجزاء أخرى تبدو ممتزجة، كثيفة أحياناً شفافاً أحياناً أخرى - وقد اعتاد أهل المدينة - من أبناء الطبقة الوسطى خاصة - على الاستحمام في هذا الشاطئ منذ طفولتهم، دون أن يعرف أحد - أو يسأل - متى بنى هذا السور ومن بناه، فنادراً ما تقع عليه عين أحد بفضل العود، كما أن تسديد النظر إليه يستلزم رفع العيون في اتجاه رأسى، وهو ما يعرضها في معظم الأحوال للضوء الشديد الذي يعيشها.

(٣)

حين تجمد بحر صخب المصطافين على الشاطئ محققاً في السماء، لم يكن هذه المرة بفعل ومضة الصلب القاسية تحت الشمس، بل كان الصوت هناك، فجأة، وكانفجار كوئى، زلزل أركان السماء والأرض للحظة، للحظة واحدة، كانت عيونهم جميعاً عليها، على الرأس السوداء اللامعة، المندفعة نحوهم بغتة، ومن الخلف، ككل المخادعين، بكل جموح الكراهية أو غضب النقمة. مدببة القمة، مجنحة بعشرات الرؤوس الصغيرة السوداء، ملتفة حول نفسها بحلزونية، مفرغة للهواء من حولها، صانعة في الجو والبحر والشاطئ دوامات تفتح بشيق مجنون إلى ابتلاع الأجساد العارية.. لحظة واحدة ملأت عيونهم وقلوبهم، لمئات السنين القادمة، بكل ملامح هذا الجسم الأسطورى، وقد بدا أنه ثبت في الفضاء على مقربة من الشاطئ، أو

أنه يتحرك نحوهم في ببطء شديد، وفي اللحظة التالية كانوا قد بدأوا النضال المستميت، للفرار من جاذبية تلك الدوامات، ومن الهول الوشيك الانقراض عليهم، تظاردهم ولولة صوته البشعة. في محاولتهم للفرار كانوا يصطدمون، ويتهاوى البعض من التزاحم والهلع، فيدوس عليهم الآخرون دون أن يسمعو صرخاتهم، أو دون أن يبألوا بها. تندفع الجموع تجرى على امتداد الشاطئ، وتعود متخبطة لاهثة لا تعثر على محباً يحميها، حبيسة في الشريط الرملى الضيق، المحصور بين السور الحجرى الشاهق وبين البحر. فجأة تذكر بعضهم الكبائن فاندفعوا إليها. وجدوا جميع أبوابها مغلقة، بكل ما أتوا من قوة أهألوا عليها يحطمونها ويقحمونها. فوجئوا بأن داخل كل واحدة رجل وامرأة على الأقل، عارين تماماً.. للحظة بهت الجميع: المتضاجعون والمقحمون على السواء، وفي اللحظة التالية حدثت ردود فعل مختلفة من كابينة إلى أخرى؛ بعض المتضاجعين استشاط غضباً وراح يسب المقحمين الغوغائيين ولكي يضعوهم أمام الأمر الواقع استأنفوا عملية الجنس على مرأى منهم، مما أضطر الآخرين إلى أن يطرقوا برؤوسهم ويخرجوا فى صمت، أو أن ينتزعوا العشاق عنوة ويشتبكوا معهم بالأيدى. والبعض الآخر صدمه هول المفاجأة وسحقه الخجل فاندفع خارجاً من الكابينة عارياً متصبباً عرقاً، لتحتلها الجموع فى الحال.

لم تمض لحظات حتى كانت الكبائن الضيقة قد تكبدت فيها الأجساد المرتعدة، حتى السقف، أرتفعت من أسفل صرخات الاستغاثة والشتائم النابية وأنين المهروسين تحت الأقدام. اختنق الهواء واستحال التنفس. أصبح مؤكداً أنهم سيموتون جميعاً لو مرت لحظات أخرى على هذا الحال.

وجد الجميع أنفسهم مرة أخرى ملفوظين على الشاطئ، يتخبطون
ذاهلين أكثر انهياراً، أصبح الشريط الرملي الطويل، عقداً مكتظاً بعدد
هائل من الحلقات الآدمية الصغيرة، تدور حول نفسها في رقصة همجية،
يحاول كل شخص فيها أن يدفن رأسه في بطن جاره أو بين فتحيه، فيركله
الجار بقسوة، ويحاول أن يفعل نفس الشيء مع جاره الآخر.. تزداد ولولة
الصوت الكريه، ويشد عنف الدوامات الهوائية التي يخلقها الدوران
الحلزوني الغريب. يستبد العجز بالآلاف، فيلقون بأنفسهم على الرمال
يحاولون أن يدفنوا فيها رؤوسهم. يندفع البعض الآخر إلى البحر يلقي
بنفسه بين الأمواج يحتسى فيها، وحين يشرفون على الغرق يرفعون
رؤوسهم إلى أعلى، فتصفع عيونهم الكتلة الوحشية السوداء المتعددة
الرؤوس، التي أصبحت الآن هائلة الضخامة لشدة قربها من الأرض،
فيغطسون من جديد، بعد أن يأخذوا من الهواء قدر ما تستطيع صدورهم
اختزانه، محاولين التغلب على الإحساس الذي بدأ يسرى فيهم، بأنهم لن
يخرجوا من البحر إلى الأبد.

(٤)

عندما رفعوا رؤوسهم مرة أخرى لم يكن هناك غير الصمت، ذلك
النوع من الصمت الذي يملك حضوراً لا تجسر أي قوة على خدشه. أيقنوا
أنه الموت. لكن بعد الشهقة الأولى الطويلة التي ملأت صدورهم بالهواء،
وصفحة اللون الأزرق الممتعة. والبقع البنية التي تتحرك في بطء شديد..
استبدت بهم الفرحة الجنونية التي لا تحدث للإنسان غير مرة: إنهم أحياء..
وقبل أن يندفعوا ليصرخوا أو ليحتضنوا بعضهم بعضاً أو ليفعلوا أي شيء

حتى لا يختنقوا بثقل الفرحة العاتية، تسمروا مشدوهين: كل من في البحر أو على الشاطئ، رافعين وجوههم إلى السماء، مظللين بالأكف عيونهم، يبحثون عن الجسم الغريب... لم يكن له وجود على امتداد الأبصار.

- لقد سقط في الجانب الآخر...

قالها أحدهم... التفتوا جميعاً بحركة واحدة. واجههم السور، شاهقاً صليداً وساخراً.. تعلق عيونهم بالمزاغل الطولية الضيقة. بدأوا يفكرون في كيفية الوصول إليها.. انفض أغلبيهم شيئاً فشيئاً وراحوا يحتفلون بالنجاة، أهملك البعض في تضמיד جروحه التي سببها الزحام، انشغل البعض الآخر في البحث عن زوجه أو ابنه أو صديقه. استأنف الآخرون اللعب والاستحمام. لكن بقيت ثمة جماعة يشغلها مصير الجسم الغريب وفي أي مكان من المدينة سقط، ويفكرون في وسيلة للعودة إلى مزاغل السور للنظر منها إلى الخارج، اهتدوا في النهاية إلى وسيلة وشرعوا حالاً في التنفيذ.

لم تمض لحظات، حتى كان قد أقيم تحت كل فتحة من فتحات السور عمود بشري، مكون من خمسة رجال يقفون فوق أكتاف بعضهم البعض، كطوابير النمل، يستطيع من على قمته أن ينظر من الفتحة إلى الخارج، على أن يبادلوا المواقع جميعاً ليتمكنوا من مشاهدة ما حدث.

لم تجد طلائع المتفرجين شيئاً مشيراً يستحق أن يحكى، لم يكن ثمة أثر لانفجار، وكان الهدوء يخيم على طريق الكورنيش خلف السور، وعلى المنتزه العام من ورائه، حيث كانت تستلقي فيه مجموعة كبيرة من الأهالي،

يبدو أن معظمهم من الباعة المتجولين والشحاذين وعمال السيارات
بملابسهم المشحمة. وقبل أن يزل المتفرجون في خيبة أمل، تنبهوا للملاحظة
أحدهم:

- أنظروا. إنهم يبدون كالقتلى.

دققوا النظر فيهم لفترة، فلاحظوا أنهم فعلاً يختلفون بشكل ما عن
أولئك الذين ينامون في الحدائق العامة وقت الظهر، ربما كان الاختلاف
في طريقة استلقائهم على الأرض، فهي تبدو انطراحًا أكثر منه استلقاء.
فالأذرع مطوحة بعيدًا عن الأجسام، والسيقان منفرجة أكثر مما ينبغي،
وبعضهم ممن يسندون ظهورهم على جذوع الأشجار الصغيرة، تميل
رؤوسهم ميلاً مبالغاً فيه فوق صدورهم.

صاح أحد المتفرجين من داخل أحد المزاغل.

- لكن لا أثر هناك لدماء أو حروق.

قال آخر من فتحة بجواره.

- ربما ماتوا من الصدمة أو أن الجسم الغريب أطلق عليهم غازات
سامة.

- لو حدث ذلك لكان أصابنا أيضًا ما أصابهم، فإنه لا يفصلنا عنهم
غير خطوات.

- لكنني واثق أنهم ليسوا أحياء على أية حال.

- أنصحك بأن تتركب أولًا نظارة طبية حتى تستطيع التمييز بين الميت
والناائم.

- أننى ما بنيت حكمى إلا على ما أملك من بعد النظر، وهو ما أظن أنك لا تملك منه شيئاً.

- فى الواقع أنت لا تملك إلا شوية ألفاظ، بينما قلت أنا رأى على أساس معرفتى الدقيقة بأوضاع هؤلاء الناس فى النوم أو الموت.

- ليس هذا هو المهم، المهم من أى زاوية تنظر إليهم.

- يا أخى أنت جعجاع وخلص.

ازدادت حدة النقاش بينهما حتى تدخل الزملاء الآخرون عند بقية النزاع وسرعان ما انحاز بعضهم إلى من يرى أن أشخاص المنتزه قتلوا وانحاز البعض الآخر إلى من يرى أنهم نائمون، تعالت الضجة فى أعلى وتطيرت الشتائم. حاول بعض ثالث تهدئة الموقف قائلاً: إن أشخاص المنتزه فى حالة غيبوبة، وهى درجة بين الحياة والموت. لم يخفف ذلك من حدة الخلاف. اضطر زملاؤهم الذين يحملوهم إلى الاحتجاج والتهديد بالقائهم ليأخذوا فرصتهم فى الفرجة مثلهم. بدأت السلالم البشرية فى الاهتزاز، وأصبح من المتوقع حدوث كارثة.

فيجأة ارتفع دوي لأجراس مجهولة المصدر، قطعت ذلك الصمت المريب فى الجانب الآخر. أخذت ضجتها ترتفع تدريجياً، لكن بعنف. صمت الجميع فى ترقب.. بعد لحظات شاهدت طلائع المتفرجين فى نهاية طريق الكورنيش عربية مطافئ حمراء تقترب وفوقها جنود الإطفاء بملابسهم الداكنة وخوذاتهم اللامعة، فى أعقابها ظهرت عربية الإسعاف تلهث للحاق بها.

كانت ضجة الأجراس من القوة بحيث شدت انتباه كل المصطفين. بدأوا يتجمعون مهولين.. وهم يسألون بأصوات عالية عما حدث، ارتفعت صيحات الظفر من طلائع المتفرجين، ممن يرون أن المنطرحين في المنتزه قتلى، استنادًا إلى حضور الإسعاف والمطافي لإنقاذ ضحايا الجسم الغريب، وانضم إليهم بالطبع من يرون أنهم في غيوبة نتيجة للصدمة، وصرخ الذين ينتظرون دورهم في الفرجة من الغيظ.

كانت العربتان في تلك اللحظة تمران تحت أبصار المتفرجين، أمام المنتزه تمامًا وأجراسهما تجلجل بعنف. توقع الجميع أن تتوقفًا لنقل المصابين وملابسهم الثقيلة يطوحها الهواء إلى الخلف، وهم يندفعون إلى الأمام متشبثين بالعربة، ووجوههم تعكس الصرامة والنبيل كفرسان أسطوريين. تجاوزت العربتان المنتزه مخلفتين وراءهما دوى الأجراس. خيم الذهول والحيرة من جديد. ارتفعت صيحات الشماتة من الفريق الذي يرى أن أشخاص المنتزه نائمون فقط. صاح رجل من الفريق الآخر وهو يكاد أن ينفجر من الغيظ:

- يا ناس. حتى لو كانوا طرشًا لصحوا على دوى هذه الأجراس!

ودب الخلاف من جديد. وإزاء حدته البالغة، بدأت طواير الرجال الرأسية تنقل تهديدها فعلًا إلى حيز التنفيذ، فأخذت تتلملل في وقتها حتى اهتز توازن الجميع.. انطلقت الصرخات، رضخت طلائع المتفرجين للأمر الواقع. وبدأوا يهبطون ليعطوا الفرصة لزملائهم لكنهم حينما نزلوا فعلًا، لم يجد هؤلاء لديهم حماسًا لأن يحتلوا مكانهم، وكان التعب قد نال منهم، مما يجعلهم الآن أحوج إلى الراحة.

كانت جموع المتفرجين المترقبين في أسفل، ممن شد انتباههم دوى الأجراس قد تفرقوا كل إلى ما كان مشغولاً به. ولبعض الوقت استأنفت طلائع المتفرجين مناقشتهم بعد أن نزلوا، وحاولوا أن يجذبوا حولهم بعض المؤيدين من عامة المتفرجين، لكن لم يكن عند أحدهم الحماس لذلك، وسريعاً ما فقدوا هم أيضاً حماسهم وانتشروا يلهون كالجميع.. واستأنف بحر الصخب نشاطه كما كان في البداية، حتى الكبائن أغلقت أبوابها من جديد على أصحابها العشاق..

وكان دوي الأجراس ما زال يتردد صدهاء في أرجاء المدينة..

قطار الشمال

(١)

سمعت البوق. رغم الطنين المتدغم المصهور سمعته. في المرة الأولى كان
واهناً قصيراً مكتوماً، ما كدت أستخلص أذني من طنين العربية لأتبينه حتى
تلاشى. غرست أصابعها في ذراعي فارتعشت. قالت لاهثة.

- أسمعت؟

حاولت السيطرة على اضطرابي وتصنعت الإنصات باهتمام.

- لم أسمع شيئاً؟

قلت ذلك لنفسى قبل أن أقوله لها، وأردفت.

- لن يقف!

انطلق البوق للمرة الثانية. انصب بيني وبينها تماماً، غليظاً ممطوطاً
لحوحاً، أكاد أقبض عليه بيدي لأبعده عن أذني، كان يتجه نحونا مباشرة،
كأنما اختصنا من بين بقية الركاب، الذين لم يبد أن أحدهم سمعه أو اهتم
به. صاحت في نشوة وهي تمزني.

- ها هو!.. سيقف في المحطة.. ألم أقل لك؟

- من أدراك أنه سيقف؟.. إنه يعلن عن نفسه فقط.

- لقد بدأ يهدئ سرعته.. انظر!

وأشارت إلى النافذة. نظرت فلم أر غير كتل الأجساد تسدها تمامًا، الكتل المتناحجة الفائضة عن المقاعد والممرات، حتى المساحة الصغيرة المتبقية في أعلى النافذة - بعد الأجسام والرؤوس المضغوطة فيها - سدتها ستارة من الأقدام المتدلية من فوق أرفف الحقائب؛ الطابق الثاني من الكتل، وبدا وكأن الهواء نفسه في العربة قد اكتظ بما. لكن لم أكن بحاجة لأن أنظر، أو حتى لأن أسمع البوق، حتى أعرف أن القطر سيقف في المحطة القادمة. كنت واثقًا من ذلك.. فمئذ تحرك في بداية الرحلة وهو يحرص على نظامه الدقيق في رحلاته العادية. يتوقف في كل محطة مهما كانت صغيرة، رغم تأكيد السائق - والركاب جميعًا - من أن أحد لن يركب أو يتزل.

- هيا نتحرك نحو الباب. الزحام فظيع. لن ينتظرنا حتى نزل! قالت ذلك وهي تشدني من ذراعي في اتجاه باب القطار. تسمرت في وفتي. همست بإعياء.

- وبعده؟

- أما زلت تقول وبعده؟! هيا لا وقت للتردد.

اهتز القطار قليلًا فترنحت. كدت أقع على حجر فلاحه تكوُّم على ركبتيها عدة أطفال. لم تعرنى مجرد نظرة. كانت متشبكة في حديث زاعق مع العجوز الأصم الجالس قبالتها، تحول بينها كتلة الأجسام الواقفة بين

المعدين، فيدوب زعيقها في الطنين المصهور من أصوات الرجال ونقيق
النسوة وبكاء الأطفال وعجلات القطار.

- يجب أن تقرر حالا، هل ستزل أم لا؟

- لقد جنث معهم. أنت تعرفين.

- ها هم لا يشعرون بك. ولن يهتموا إذا نزلت.

- كيف أتركهم بعد أن قطعت معهم كل هذا المشوار؟

- وماذا ستفعل غير الوقوف على قدميك ساعات أخرى؟.. أنت لا

تعرف حتى أين سيلقون بهم.

- لهذا يجب أن أبقى معهم.

مدت لى يدها فجأة لتصافحني. لم أمد يدي. ظلت يدها معلقة، يدها
النحيلة الشاحبة البيضاء، التي بدت أشد بياضًا فوق ملابس الفلاحات
السوداء، يدها التي أعرفها جيدًا، يدها التي طالما احتويتها بين راحتي والتي
سأصافحها الآن لآخر مرة.. تعلقت عيناى بعينيها، لم يستطع صفاؤهما أن
يخفي الحسم المفاجئ القاطع الذي بدا وكأنه يطفو من أعماق سحيفة فيها،
كانه كان محتبنا داخلها كل هذه السنين وأنا لا أعرف، أرعبتني النظرة
المباغته أكثر مما أرعبتني صوت البوق الأول. كنت حتى آخر لحظة أعتقد
أنها في النهاية - رغم قرارها بالزول - ستبقى معى، وأن مدينتها التي تحلم
بالعودة إليها ممكن أن تحتفظ بها كالأبوم ذكريات إذا ما اضطرت إلى
الاختيار بينها وبينى. كنت حتى آخر لحظة أعتقد أن حياتى يمكن أن تستمر
بدونها، وأنى أعرف دائمًا ما ينبغى أن أفعل.. أما الآن، فأنا لا أعرف أي

شيء.. أي شيء أكثر من أن يدي تنجذب بقوة دوامة بحرية لتلتقط يدها المعلقة تثبث بها. ترتفعان فوق الرؤوس.. تتجهان نحو باب القطار.. تدفعان الركاب في طريقهما.. تسابقان الثواني الباقية في استماتة.. لنجد أنفسنا - أنا وهي بعد لحظات - على الرصيف، وحدنا تمامًا، نتابع بأعيننا مؤخرة القطار، وهي تبعد زاحفة بكائناتها الذائبة في طينها الغامض.

(٢)

الصمت!.. وحده هو الذي استقبلنا في المحطة.. صمت معدني سيك، صفعنا بمحبة بعد تلاشي ضجة القطار المتعد. نظرنا حولنا نبحث عن الناس. لم تلتق أعيننا بإنسان. كانت هناك حجرات موظفي المحطة، وعلى المكاتب أوراقيهم، والأدراج مفتوحة.. ولا أحدا.. كانت هناك على الرصيف "فرشة" بائع الصحف عليها جميع صحف اليوم ومجلات الأسبوع. ولا أحدا.. كان هناك كشك سجانر مفتوح وثلاجة المرطبات، وعلى الأرض غطاءات الزجاجات الفارغة التي شربت لتوها، متناثرة.. ولا أحدا.. كانت هناك سلة السميط ممتلئة بالكحك الطازج، أكاد أسمع من داخلها صوت البائع صائحًا، "سخن لسة".. ولا أحدا.. كأنما في غفلة منا قفز كل هؤلاء الناس في القطار الذي هبطنا منه. خطر لي أنه ربما حدثت غارة على المدينة، والجميع الآن في المخابئ، جذبت صديقتي نحو مخبأ المحطة. هبطنا السلام المؤدية إليه تفودنا الأسهم، وجدناه خاليًا تمامًا. أصبح للصمت في المخبأ صوت غريب، كأنه بقايا صيحات وهمسات الناس المذعورة حين كانوا مكدمين فيه منذ لحظات. رنت ضحكاتها في أذني فجأة فارتجفت. نظرت إليها متسائلًا عما يضحكها، فسكتت. قفزنا الدرجات

إلى أعلى المحطة. وجدنا الصمت في انتظارنا. أخذ صوته الغامض يطاردنا. خرجنا من المحطة، فوجدنا الميدان المواجه لها، بل وكل الشوارع المتفرعة عنه خالية تمامًا. سرنا نتلفت حولنا. كانت الدكاكين مفتوحة ومكدسة بالبضائع، ورجال الغسيل في شرفات البيوت محملة بالملابس المغسولة، وبعض النوافذ مفتوحة والكراسي على الأرصفة أمام المقاهي في غير نظام توحى بأن الزبائن لم يغادروها إلا منذ لحظات قليلة، لو أن هناك غارة لكنا قد سمعنا صفارات الإنذار، أو لوجدنا على الأقل من يبهتنا إلى أننا نسير في عرض الطريق. ولو كانت المدينة كلها قد هاجرت، لما كانت هناك كل مظاهر الحياة الطازجة هذه! انفجرت الضحكة في أذني من جديد، لكن ذلك لم يدهشني قدر ما أدهشني سؤها.

- أنت خائف؟

أطرقت. سرت بجوارها صامتًا. رحت أتأمل العمارات والفيلات الأنيقة بحدائقها ذات الخضرة الندية، كأنما غسلت لتوها بماء المطر. لم أر بيتًا واحدًا متهاكًا، حتى الشوارع الضيقة والحارات كانت نظيفة مستقيمة، تخفف رتابتها، في فوضى بدیعة - رجال الملابس المغسولة الملونة، وهي تقاطع كالإعلام بعرض الشوارع.

سألته عن بيت الأسرة، فانطلقت تحدثني بحماس عن عراقة أسرتها في المدينة. سألته عن كيفية تعليق الملابس بعرض الشوارع، فأشارت إلى لافتة بشارع يحمل اسم جدها، وعلى لافتات ضخمة مخلات تجارية تحمل أسماء لأفراد من أسرتها. تركتها للافتات واستغرقت في البحث عن سر رجال الغسيل التي تربط بين البيوت على جانبي الشارع. اكتشفت أن ذلك يتم

بواسطة بكرات خشبية مثبتة عند نافذة كل بيت، أدهشني ذلك وأبهجني، فانطلقت أضحك. قطعت حديثها وحدجتني بنظرة مستغربة، فأحطت خصرها بذراعي وضممتها إلي، تمنعت بدلال وقالت:

ألا تعرف أن الناس هنا كلها تعرفني؟

وتصورت الناس جميعًا يلبسون طواقي الإخفاء فضحكت. وخطر لي أنني أول غريب يطأ أرض مدينتها بعد أن اختارتني لها من بين ملايين الرجال فطربت. وتراءى لي قصرها الخالي وهي في أحضان فانتشيت. وتذكرت ما كنت أقوله عن يؤس قريتي وعمما كنت أحلم بأن تكون عليه فصحت، كم كنت غيبًا.. ورحت أجرى في كل اتجاه وأدور حول نفسي ناشراً ذراعي مقهقها، فيتردد صدى ضحكاتي في الشوارع الصامتة ويعود إلى في غموض. واختطفت يدها وانطلقنا نجري. نجري نصرخ. نقهقه.. وفجأة تلت عيناى صفة ضوئية عنيفة. من فوق سطح النهر الذي يلتمع كالسيف تحت الشمس الأصلية...

(٣)

استندنا على سور الكورنيش لاهئين. انطفأت كل نشوتى. كان النهر هناك. أعرف أنه نفس النهر الذي تطل عليه قريتي، بكل هيئته، بكل لا مبالاته، بكل عمق الصمت فيه، لكنه كان هناك - تحت الهبة واللامبالاة والصمت - رابضًا، حيًا، يعرف سر المدينة، يعرف سرنا، يراقبنا. إنه يتحرك، تتوالى موجاته في ملايين من التواءات كالرؤوس الصغيرة؛ تنظر كل واحدة منها إلينا، بازدراء، وقبل أن تمضى تهمس إلى الرأس التي تليها

بشيء عنا، ففكرت هي نفس الشيء مع التي تليها، وتمضى، في اتجاه الشمال، نفس اتجاه القطار.. أين تراه وصل الآن؟.. غمغمت.

- هل كان ذلك آخر قطار اليوم؟

هزت كتفيها في حيرة. سرت في بطء منكسماً رأسي. أحسست بها أخيراً إلى جوارى. دون أن أنظر إليها أدركت أنها قرأت كل شيء. تسللت يدها وقبضت على يدي، كانت باردة، وبها رعشة خفيفة...

- تريد أن تعود؟

نظرت إلى أعلى، كانت الشمس قد بدأت تختفي في الجانب الآخر من النهر، وانسدلت ستارة رمادية شفاقة على السماء والنهر والمدينة.

قلت:

- هل بقي كثير على البيت؟

أشرفت الابتسامة على شفيتها، وهي تمز رأسها بالنفى، وتشير بذراعها إلى مكان الكورنيش. نظرت.. شدة المبنى الزجاجي ذو الطابقين، يعكس آخر أشعة الشمس الغاربة. قلت مشدوهاً.

- بيتكلم؟

- الكازينو. ألا تذكر؟.. لقد وعدتكم أن نجلس فيه.

- وماذا سنجد فيه؟

- ستجد كل ما تحلم به.. ستجد أناسا على الأقل.

قالتها وعيناها تتألقان. وكنا قد اقتربنا منه. وأسرعنا ندفع الباب الزجاجي ودخلنا في حرص. انغلق الباب خلفنا بلا صوت. وصعدنا

الدرجات الرخامية المصقولة، مستندين على الحاجز المعدني اللامع، وجدنا أنفسنا في البهو الفسيح المؤثث بثراء. للحظة أصابني دوار خفيف. جلست على أحد المقاعد. غصت في ليونته المخملية. رأيت قرص الشمس القسائي على حافة النهر في مواجهتي تمامًا. غبت في خدر للذيذ همست.

- تعالى!

- ليس هنا مكاننا. قاعة العشاق بالدور العلوى.

- لمن هذه القاعة إذن؟

- للمحافظين!

جلجلت ضحكتنا في رنين منغم. سعدنا إلى الطابق العلوى. كان أثنائه مختلفًا، لم تكن هناك مناظرة عالية أو مقاعد، ثمة مجموعة من الأرائك المتناثرة في الأركان، غطيت الجدران الزجاجية خلفها بستائر ضبابية. سرنا فوق السجاد الأحمر على أطراف أقدامنا كأننا نخشى أن يشعر أحد بوجودنا. بلغنا أريكة متطرفة في أحد الأركان وجلسنا. أصبح النهر وراءنا. أحطت كتفها بذراعى فالتصقت بي. قالت:

- أعجبتك المدينة؟

- إنها تشبهك.. ساحرة.. ومراوغة!

- ألم أف بوعدي؟

- ليس بكل الوعد..

وضعت رأسها على كتفى. ضممتها بقوة حتى اتحد جسدانا... ورحنا ننسحب ونسحب إلى قاع دوامة عميقة محمولة...

أفقت على الظلام يملأ القاعة. فهضت مذعورًا أبحث عن زر النور. لم استطع الرؤية، فتحت كل الستائر حتى دخل من الزجاج بعض من ضوء شاحب. وجدت الزر لكني تبينت أن التيار الكهربائي مقطوع. هاجمني انقباض مفاجئ، فتحت إحدى النوافذ الزجاجية. لا زال وجه النهر يلمع، لكنه كان مجعدًا كوجه عجوز. برزت رؤوس الموجات أكثر كأنها تشرئب لترانا. وازداد انقباضي وأغلقت النافذة بسرعة. اعتدلت هي الأخرى وقامت على عجل. قلت:

- إذن فكل المدينة مظلمة!

- فلنزل حالا لنصل إلى البيت قبل الظلام.

بعد لحظات كنا على الكورنيش، مشينا خطوات في الطريق إلى بيتها.

لم يكن من الممكن أن أتجاهل رؤوس النهر. قلت:

- أليس هناك طريق آخر؟

- هذا أقرب طريق.

وتوقفت فجأة وقلت في حزم.

- اسمعي.. هيا نعدنا إلى الحطة.

تسمرت مرددة في ذهول "الحطة"؟!..

أردفت بتصميم:

- لن أبيت في هذه المدينة.

- أنت مجنون!.. أنت تعرف أنه لن تأتي قطارات أخرى..

- ليس ذلك مؤكداً، لا بد أن يكون هناك قطار.

- ولكن..

- لا تحاول إقناعي. لقد تركتهم وتبعتك.

- أنا لم أرغمك. لقد نزلت بإرادتك.

- كنت تعرفين منذ لقيتك أنني سأنزل معك. كنت تسحينني إلى هنا

دون أن أدري.. ببطء.. في كل يوم كنت أفقد شيئاً.. كنت تعرفين..

واليوم.. في القطار.. حين نزلت معك.. فقدت آخر ما تبقى لي..

وتركتها عائداً إلى الشارع المؤدى إلى المحطة. صاحت في أثرى.

- أيها الجبان!

واصلت مهرولاً دون أن ألتفت إليها، تعمدت ألا أنظر إلى الحوانيت

المفتوحة وأبواب المنازل والشرفات، التي بدت كعيون مفقوءة، ترتبص بي

من ورائها أشباح أهل المدينة القتلى بداخلها.

وصلت إلى المحطة لاهثاً. دبت في الحياة عندما وجدتها مضاءة. لم يكن

فيها ركن واحد مظلم، لكن كل شيء ما عدا ذلك كان كما تركته..

كشك السجائر المفتوح والثلاجة وسلّة السميط والصحف المترامية

والمكاتب الخالية وما فوقها من أوراق. إلا أن النور دليل على وجود أحد

هنا..

رحت أفتش في كل مكان، دون جدوى، أخذت أصيح بأعلى صوتي

"ياهوه!"

أخذ الصدى يردد: "وووو...!

جلست منهكاً خائفاً على أحد المقاعد، أين أذهب الآن وأنا لا أعرف بيتها؟.. انتابني الندم على تركي لها. تمنيت - كالغريق - أن أراها ثانية، فجة أحسست بوجود إنسان على الرصيف المقابل. نظرت.. وجدتها تمشي على الرصيف مطرقة.. هكذا كأنما انشقت عنها الأرض. ناديتها. لم ترد. أعدت النداء بأعلى صوتي، فأمنت في إطراقها اللامبالي، وردد الصدى مجلجلاً لدائي. صحت متوسلاً.

- أرجوك. كفي سخفاً وتعالى!

وعاد إلى رجوع صوتي ساخراً. بدأت أشك في أنها هي، رغم معرفتي بأنها هي فعلاً بلحمها ودمها. امتلاً قلبي هلعاً. قلت في محاولة أخيرة.
- أنت غاضبة مني؟.. أعترف بأنني كنت سيئاً معك. أرجو أن تسامحني.

توقفت عن المشي ورفعت رأسها لحوى وسمعتها تقول في صرامة:

- وماذا تريد مني؟

- استخفني الفرح وصحت.

- أن تأتي إلى هنا.

- لكنني سأركب القطار العائد.

- حسناً. سوف أعود معك.

واندفعت أهبط درجات النفق المؤدى إلى الرصيف الآخر. وحين سعدت لم أجدها، سقط قلبي بين أحشائي. وفجأة سمعت ضحكاتها تجلجل على الرصيف المقابل، حيث كنت أقف منذ لحظة...

- ما هذا الهذر السخيف؟.. كفي عبثاً وعودى إلى هنا.

- ألا تريد أن تلحق بناسك؟.. إن قطار الشمال سيأتى أولاً.

- حقاً؟.. ومن أدراك؟

- أنا أعرف. صدقنى. هيا تعال بسرعة!

لم أجد ما يدعوهها للكذب فهبطت إلى النفق وخرجت، فلم أجد لها..
ومرة أخرى سمعت ضحكها على الرصيف المقابل. وقفت أهث وقد
تملكني الغيظ. لعنتها بصوت مرتفع فازدادت قهقهة وفجأة وجدتنى
أضحك.. ثم استغرق أنا أيضا في قهقهة متواصلة.. واستهوتنى اللعبة
فعدت أهبط النفق وقد تلاشى تعبي وتجددت قواى. وصعدت فوجدتها
سبقتنى إلى الجانب الآخر. قررت من بين ضحكى أن أفاجئها داخل النفق
الذي تستعمله في هروبها.. اسرعت أهبط إليه دون أن ترائى. انتظرت أن
تقابلنى في وسط النفق فلم تظهر. رحت أمشى على أطراف أصابعى في
بطء حتى لا تسمع خطواتى، لكنها لم تظهر. تأكدت أنها اكتشفت اللعبة
فسبقتنى إلى النفق الذي كنت أستعمله، لكنى واصلت الصعود... وفجأة
وجدتها واقفة على رأس السلم في انتظارى وتمكنت من القبض علىّ قبل
أن أتمكن من الهروب. وأغرقتنا في الضحك حتى امتلأت عيوننا بالدموع.
كانت قوانا قد أنهكت تماما، فاندفعنا إلى أريكة خشبية وجلسنا نلهث..
وبدأت الضحكات تتلاشى تدريجيا ونحن نسمح دموعنا. وفي لحظة واحدة
كففتنا نحن الاثنين تماما عن الضحك، وتوقفت حركتنا وأصبحنا نشبه كل
شيء في المحطة والمدينة. تبادلنا نظرة مباغثة في وقت واحد، ثم أطرقتنا إلى

الأرض. خيم فوقنا ذلك الصمت المعدن الذي يتذبذب - في غموض -
ببقايا أصدااء ضحكتنا، وكأنها حدثت في زمن بعيد. أخذت شهيقاً عميقاً
وأنا اتجه ببصرى إلى جهة الشمال حيث ننتظر ظهور قطار العودة . أخذ
حذائى يدق على الأرض دقائق سريعة مضطربة، سرعان ما انتظمت في
تتابع زمنى ثابت كدقات الساعة، وكان هذا الصوت موجوداً رغم كل
شيء.. كحقيقة...

الزوايا

(١)

أسير مع السائرين في دروب خان الخليلى، يدفعوننى فى السكك الضيقة العتيقة، "سكة البادستان". أكاد أنزلق فوق البلاط المتآكل المرشوش بالماء، "سكة القبوة". أتفادى الاصطدام بالفتارين الزجاجية البارزة من المحال الصغيرة "ممر الحسين". أبواب منخفضة وعقود عالية، "حارة الوكالة" سبح معلقة وبخور متصاعد. آلاف النسخ من كل شائع من الفنون: فرعونية، إسلامية، شعبية... وجوه، وجوه، حمراء، بيضاء، سوداء، خمزية.. يا دهمشاوى...

أنت يا مسيو.. هل تعرفه؟.. أنت يا سنيورة.. يا حاج.. يا ريس..
أليس فيكم من يعرف حتى صديقه التاجر.. شاهيندر تجار خان الخليلى؟
حسنا.. فلأبدأ جديا بالسؤال. بالسؤال عمن.. عن الدهمشاوى أم عن التاجر؟.. لا بد أولا أن أجد أحدهما لأسأله عن الآخر، فلا أستطيع أن أسأل عن التاجر دون أن أعرف اسمه، ولا يعرف اسمه غير الدهمشاوى، ولا أستطيع أن أسأل عن الدهمشاوى غير التاجر، لأنه صديقه، ولأننى لا أعرف إذا كان الدهمشاوى موجودا فى خان الخليلى أم لا.

(.. وأراك شاباً نحيلاً أسمر.. صلباً لا يعرف الهزل.. يشق طريقه وسط كل المنتظرين على المحطة و عيناه لا تفارقان وجهي.. يقترب ويقترب.. يصبح في مواجهتي تماماً.. ينظر في صورة في يده بشكل لا يلفت النظر، شأن من اعتاد هذا الأمر.. يقارن بينها وبين وجهي.. وفجأة يمد يده إلى يدي المعلقة بلهفة في انتظاره، يشد عليها بقوة تؤلمني قليلاً، لكنني أشعر نحو يده بعرفان لا ينسى.. يتلاصق كتفانا، يجذبني لعبر شارع الأزهر، هكذا في صمت، بلا كلمة اعتذار عن تأخيره ساعة كاملة، أو عن الرجل الذي ستقابله في خان الخليلي...)

- من فضلك.. ما تعرفش الأستاذ الدهمشاوي؟

تمعن البائع في وجهي قليلاً وقال:

- قصدك الحاج محمد الدهمشاوي؟

وقفت صامتا أنقل حقيقتي من يد إلى يد. قال الرجل:

- لا مؤاخذة مافيش في الحنة أساتذة. كل اللي هنا يا إما عمال يا إما

معلمين وحجاج.

قلت على الفور:

- يبقى هو.. الحاج محمد الدهمشاوي.

أشار إلى طريق أسلكه. سرت قليلاً لكنني ما لبثت أن ضللت. سألت بائعاً ثانياً وثالثاً ورابعاً. لم يكن هناك أحد لا يعرفه، لكنهم كانوا يصفون لي مكانه بإيجاز شديد ثم ينشغلون بزبائنهم عني، لأنخبط من جديد في الطرق المتشابهة. وحين هم الخامس - وكان جرسوناً في مقهي يتجه بشيشتة إلى زبون - بأن يصف لي الطريق، رجوته أن يرسل معي دليلاً، وشرحت له كيف ضللت عدة مرات، قال بشهامة:

- وماله يا بيه.. إحنا أي خدمة.

ونادى على صبي المقهى، أمره بأن يوصلنى إلى ربيع الدهمشاوى. تحرك الغلام على الفور، كأنما تحرك بزميرك، سرت معه وأنا أقول لنفسي: وماذا لو اكتشفت أنه ليس الدهمشاوي الذي اريده؟ ربما كانت هذه هي مفاجأة الحاج كامل لى.. وما صديقه الدهمشاوى والتاجر غير شخص واحد.

(.. وأراك كهلاً يتقدمه كرش صغير، وجهه المكتنز يلمع - مع العرق - بضحكة بشوشة، يسلم بحرارة دون أن يتأكد من مطابقة ملامحي للصورة التي أعطاهما له الحاج كامل ليتعرف بها على، يغرقني في سيل من الاعتذارات عن تأخيره بسبب أزمة المواصلات يسألني عن صحة الحاج كامل، ثم يأخذ بيدي برفق لنعبر الشارع إلى خان الخليلي، وهو يحدثني عن التاجر الكبير الذي سيتوسط لى عنده - إكراماً لخاطر الحاج كامل - ليجد لى عملاً في أحد محاله التي تملأ القاهرة، ثم يسألني عن بلدي، وغير مستبعد أن يكتشف أننا بلديات، وقد يحدثني عن حقيقة اسمه، وأنه نسبة إلى قريته "دهمشا"، ولا ينسى أن يقول في النهاية بشهامة: إحنا أي خدمة..).

(٢)

هبطت عدة درجات.. مدخل له سقف على شكل عقد متقاطع، بوابة مليئة بالمسامير الغليظة البارزة، فناء واسع ومبلط بالأحجار، مشربيات خشبية متراصة بعضها فوق بعض، تطل من الأدوار العالية.

كانت تخيم على الفناء - مع غبشة المساء الزاحف - كآبسة مجهولة المنبع.

رحت أتجول فيه، أتأمل الأعمدة الحجرية التي تحمل عقوداً متتالية تحدد أضلاعه الأربعة. رأيت خلفها صفاً من الأبواب الفاغرة على الظلام. حين اقتربت من أحدها وجدته باب حجرية، تجلس فيها امرأة وبعض الأطفال، منهمكين في عمل ما، وما أن سمعوني حتى أخذوا يدارون ما بأيديهم خلف ظهورهم، ناظرين إلى باعين مرتابة. لاحظت أن أيديهم ملوثة بشيء بني كأنهم يعجنون بما شيئاً ما، والتقط أنفي رائحة نفاذة لم أستطع تمييزها. سألتهم عن الدهمشاوى، أشاروا إلى سلم يوصلني إليه. مررت بصف من الحجرات المظلمة ذات الأقبية، مفتوحة على الممر ذي العقود. رأيت في كل حجرة نفس ما رأيته في الحجرة الأولى. كان الأطفال يدعكون أوراق شجر بسائل لزج يشبه العسل الأسود، وكانت النسوة يقصصن هذه الأوراق إلى قصاصات رقيقة. أخذ الحذر في العيون يخف شيئاً فشيئاً كلما مررت على الحجرات، حتى لم يعد أحد - حين اقتربت من السلم - يلتفت إلي، وكنت أرى أفخاذ النسوة العارية وصدورهن المكشوفة المترهلة فلا يباليين بسترها، والأطفال الرضع يطمس الذباب عيونهم وهم مستغرقون في مص أنداء أمهاتهم، فلا يمعنهن ذلك من مواصلة العمل، وعندما صعدت السلم الضيق شبه العمودي، كنت ما أزال أحاول معرفة نوع الرائحة النفاذة المخدرة.

وجدت نفسي في طرفة طويلة، يجدها من جانب صف من الأعمدة ذات العقود، ومن الجانب الآخر صف من الحجرات ذات الأقبية المنخفضة، هي في الحقيقة ورش صغيرة مكتظة بالعمال، وكانت الرائحة المخدرة أكثر وضوحاً هنا، وإن اختلطت بروائح أخرى غامضة. استقبلني أمام كل

حجرة نوع خاص من الدق، برنين وإيقاع مختلفين عن الحجرات التي تليها. ميزت رنين النحاس، وهو يطرق في أواني وصوان مزخرفة، وعرفت الدقات المكنومة للخشب، وهم يثبتون فيه قطعاً من الصدف أو العاج، ولم استطع معرفة ما يحدث في الحجرات الباقية.

كانوا خليطاً من كل الأعمار، فثمة أطفال في العاشرة بجوار شيوخ يصعب تحديد عمرهم، بملاهيل لا لون لها، هكذا بدت في الضوء الشاحب، الذي يأتي من كوات مرتفعة ذات قضبان مخروطة على الطراز العربي. لم تكن خطواتي تسمع في الطريقة بسبب ضجة المطارق، لكن ما أن أقف أمام أحد الأبواب ويسد جسدي الضوء الخافت عنهم، حتى يرفعوا وجوههم الرمادية ويحملقوا نحوي. لم أرتجف من شيء قدر ارتجافي من منظر عيونهم، كانت فجوات فارغة أو بقعا من الحبر فوق ورق نشاف، تنظر نحوي حقاً لكن دون أن تراني، ثم تغوص من جديد في كتل القار الأسود التي تطرق فوقها رقائق النحاس. حين سألتهم عن الدهمشاوى اشاروا بصمت إلى السقف، كأنما لغتهم هي الإشارة.

رحت أتحمس الظلام بحثاً عن درابزين السلم. ارتطم رأسي بجدار، حين استعدت توازني ووعيتي اكتشفت أنه ليس جداراً بل بطن السلم المنخفض. وصلت منهكا إلى ممر بالطابق الثالث، وجدت جميع حجراته مغلقة. كان مستقيماً ضيقاً يكاد لا يتسع لشخصين. سرت طويلاً بحثاً عن باب مفتوح لأسأل عن الدهمشاوى. نظرت من ثقب أحد الأبواب فرأيت عمالاً يشتغلون في دأب. رحلت أنتقل من ثقب إلى آخر لأجد نفس الشيء. وقفت في الممر حائراً. خنقني استقامته الحادة خاصة عندما يلتقي ضلوعه

المتوازيان بعيدًا عن فجوة مظلمة، تبينت فيها بعد قليل شبحا لشخص يطل ويختفي، أدركت أنه يتلصص علي. كنت في حاجة إلى أي إنسان، انتظرت حتى أطل مرة أخرى واندفعت نحوه صائحًا...

(٣)

نقرت على الباب نقرات مترددة، ثم قوية، ثم عيفة.. لا رد. وضعت أذني على الباب.. لا صوت. قبل أن أبتعد فتح الباب فتحة ضيقة، أطل وجه أسود. نظر إلى مستطعًا، ارتبكت لشعوري بأن الطرفات الأخيرة العجولة لم يكن لها ما يبررها. سألته عن الدهمشاوى. ظل يحملق في لحظات قبل أن يسألني:

- مين حضرتك؟

- كان فيه ميعاد بيننا.. قل له بس وهو حيعرف.

أطل إلى الداخل براسه، وما زال جسده العملاق يسد الباب. بعد قليل تنحى بصمت فدخلت. احتجت لفترة حتى تعود عيناى العتمة. بدأت أتفحص المكان بحثًا عن الدهمشاوى. كان في ركن الحجرة يجلس وراء مكتب فوقه أكوام من الدوسيهات والأوراق، وخلفه دولاب ملئ بأكوام أخرى منها. كان شابا ممتلئ الجسم له وجه منحوت من الصلصال. اندفعت أسلم عليه بجرارة. مد لي - وهو جالس - يدا صلصالية باردة. فترت حماستي بعض الشيء. قلت:

- حضرتك الأستاذ الدهمشاوى؟

- لأ.

- قصدي الحاج محمد الدهمشاوي.

- لأ.

نظرت حولي وأنا أنقل حقيتي من يد إلى يد.

- أمال هو فين؟

- مين؟

- الأستاذ الدهمشاوي.

- ما عندناش أساتذة هنا.

- قصدي الحاج محمد الدهمشاوي.

اضطجع إلى الخلف دائراً بكرسيه ذي المخادع دورات صغيرة، يمنة ويسرة، قال وعيناه فوق شيء لامع يعبث به:

- عايزه ليه؟

- كان فيه ميعاد بيننا.

- امتي؟

- الساعة خمسة.

- فين؟

تبنت أن الشيء اللامع في يده سكين ورق وليس قلما كما كنت أظن.

- في الأزهر.

- طيب إحنا فين والأزهر فين؟

كانت عيناه الآن في عيني، عيناه المشعتان كعيون القطط في بقعة وجهه

المعتمة.

- مانا استيته لغاية الساعة ستة وبعدين قلت مش معقول حبيجي بعد كده. جيت أسأل عليه هنا. يمكن يكون جه.

اعتدل في جلسته واستند بذراعيه إلى المكتب.

- بخصوص إيه الميعاد؟

- ضمنت الحقيبة إلى صداري بكلتا يدي.

- بخصوص الشغل.

ضغط بإصبعه على زر مصباح فوق المكتب. فتدفق نور قوي فوق الأوراق البيضاء وفوق قميصه وفوق الزجاج اللامع الذي عكس الضوء - مع المساحات الأخرى البيضاء - على صفحة وجهه، فظهرت مليئة بالخفر، وانعكس الضوء على ملامحها، فأصبحت منورة من أسفل السدقن والانف والجفنين، غارقة في الظل أعلى الانف والخدين والجيبة، فبدأ لي وكأنه تمثال قديم مقلوب.

- مش ممكن أعرف أي نوع من الشغل؟

- متأسف. دى مسألة حساسة شوية.

عاد يعبث بالسكين تحت الضوء المباشر، فأذى بريقها عيني.

- هو نزل مشوار.

تجنبت بريق السكين. وقعت عيني على مقعد مريح خال.

- ماتعرفش إذا كان حبيجي والا لأ؟

أحسست بأن قدمي انتفختا كقربتين ساختين. تشبثت عيناى بالمقعد.

- طيب ممكن انتظره شويه.

أدركت فور نطق السؤال أنه سيرفض، فجلست على المقعد دون إذنه وأفرجت عن أعضائي. لاحظت أنه يحمق في بغيظ مكثوم. فكرت بأنه سوف يعمل على مضايقتي، فتحت حقيبتى وقلبت بعض الأوراق. تناولت من فوق المكتب أحد الملفات. تلملم في جلسته. قال بلطف مفاجئ.

- هو حضرتك...؟

قررت أن أستمروا في الدور.. قلت: أيوه

رحت أتصفح الملف بجدوء دون أن أفهم منه شيئاً. قال:

- مش كنت تقول من الصحيح؟.. دا ملف المشتريات.

هزرت رأسى موافقاً.

- وزى ما سيادتك شايف.. إحنا حصل عندنا توسع في جميع الأقسام.

- كويس.

- رغم أن سيادتك عارف أن فيه أزمة في المواد الخام.

- فعلاً.

- يعني الجلد مثلاً سعره في السوق أصبح ضعف سعره الأصلي.

- ياه!

- والصدف والعاج.

- والنحاس.

- والفضة.

- والذهب.
- والكهرمان.
- والمرجان.
- ثم أن الحصة اللي تصرفها لنا المؤسسة من الخامات غير كافية إطلاقاً.
- أيوه.
- والمشكلة أننا ما نقدرش نستورد من الخارج. لأن المؤسسة. زي ما أنت عارف.
- بالضبط
- وطبعًا سيادتك عارف أن المؤسسة معتمدة علينا اعتماد أساسي في التصدير وفي السياحة.
- وفي العملة الصعبة.
- لأننا كراسمالية وطنية. بشارك بدورنا الوطني. في خدمة الاقتصاد
- الـ..
- الوطني..
- ولأن العمال بيتفانوا عشان يرفعوا اسم بلدهم في أنحاء العالم.
- عظيم.
- ولأننا وفرنا لهم مساكن جميلة. فحلينا أزمة السكر والمواصلات
- واضح.
- ولأننا أنشأنا تحت مصنع للدخان، فحلينا لهم مشكلة الكيف.

- شفته.

- ولأننا شغلنا فيه زوجاتهم وأولادهم، فقضينا على المشاكل الناتجة عن

وقت الفراغ.

- برافو..

- وبالإضافة إلى ذلك.. إنما الأول سيادتكم تحب تشرب إيه؟

- أأنا؟.. آ.. لمون.

وبينما كان يطلب ذلك من العملاق الأسود، كنت أنزلق في المقعد

قابضًا على شفتي مقاومًا الغثيان. لاحظت أن السقف ليس على شكل قبة

كباقي الحجرات، وأنه مليء بالزخارف والمنمنمات والمقرنصات.

اكتشفت سلمًا حجريًا في داخل الحجرية ينحني يمنة بعد عدة درجات

ويغرق في الظلام. خطر لي أن الدهمشاوي موجود بأعلى.

فكرت أن أسأل ذا الوجه المجذور الذي أصبح ثرثارًا فجأة، لكن الغثيان

كان يتزايد. عاد الأسود بكوب الليمون. تجرعتة دفعة واحدة، لكن

الموظف واصل، وهو ينفث الدخان:

-.. ودا ملف شؤون الأفراد. ودا ملف الخدمات الصحية.. ودا

دوسيه التأمينات الاجتماعية.. ودا دوسيه المبيعات.. ودا ملف..

يستدرجنى ليعرف أي تفتيش أتبع، وكان بوسعى أن أعرف حتى

الألفاظ التي سوف يستعملها. كان هذا في يوم ما هو عملي أيضًا، وحين

جاء الوقت الذي عافته فيه نفسي وطالبت مع العمال بما هو مكتوب في

الأوراق، فقط بما هو مكتوب، دفعت ثمننا لذلك وظيفتي.. وستين من عمري. ولم يكن ذلك كافيًا على ما يبدو، حتى ولو سعيت بقدمي لألوك ما في الأوراق من جديد.

(.. وأعود إلى حجرتي بالرغيفين وقطعة الجبن من عند البقال على ناصية الحارة، بعد أن أوقع له في دفتر الشكك، وأترك قدمي تحت الماء البارد المندفَع من حنفية الحمام وأغمض عيني وأنا أقاوم الإغماء، لكن بنشوة، وأقول لنفسِي: ها هو يوم آخر من الأسبوع الثامن من الشهر الرابع ضاع سيرا على الأقدام.. ولا عمل!..)

لكن العيون المطموسة والوجوه الرمادية في عتمة الأقبية، بدأت تتلوى وتتماوج أمامي في دخان السيجارة المتصاعد مع طنين صوت الموظف. والدخان يتكاثف في فراغ الحجرة ويصنع قبة فوق راسي، ممتلئة بوجوه مثقوبة تشغى بالدود.

(٤)

قال الموظف وهو يفرك يديه حبوراً:

— أنا سعيد لأننا متفاهمين جداً، رغم أننا لسه ما تعرفناش.

فهمضت فجأة وأنا أقول:

— الدهمشاوى أتأخر قوى.

— آدى انت سيادتك مآنسنا.

— السلم ده يطلع على فين؟

فهمض هو الآخر قائلاً:

- دا.. مكتب المدير.

- الد همشاوى؟

- لا.. الحاج محمد الدهمشاوى يبقى صاحب الربع.

تقدمت نحو السلم.

- هو موجود فوق؟

- المدير؟

- الدهمشاوى.

- هو لسه ماجاش.

- طيب حاطع أتفرج على الأوضة.

أسرع نحوى ليمعنى، لكننى كنت قد سعدت فعلاً. لحق بي عند قمة السلم المعتمة وسبقني. أضاء نور الحجر، حملقت:

كانت قاعة فسيحة مؤثثة بأثاث شرقي. أوشكت أن أستلقي على الحشايا الوثيرة حول المائدة النحاسية المدورة، لكن نظري اتجه إلى نور خافت ينبعث من نافذة صغيرة فى أحد الجدران.

اقتربت منها، رفعتها لأعلى، وجدتنى أطل على حجرة صغيرة فيها عدد من العمال، لم أر غير قسم رؤوسهم وظهورهم المنحنية فوق القطع التي يشكلونها، لاحظت بالقرب منها نافذة ثانية، رفعتها، كانت تطل على حجرة وعمال آخرين.

اكتشفت بجوارها صفًا من النوافذ تطل جميعًا على ورش العمال، التفت متسائلًا إلى الموظف، وجدته يفرك يديه وهو يقول:

- انت عارف سيادتك الـ ...

وضحك ضحكة خنفاء.. قلت:

- لكن الساعة قربت على نص الليل.

- ما هم.. يتسلوا.. والبيت هنا.. يعني مش حيركبو مواصلات.. زى ما قلت لسيادتك.. وعموما دا ميعاد انصرافهم. وأطل من النافذة، وخاطب شخصاً ما بعبارات لم أتبينها.

نزلت مسرعاً إلى حجرة مكتبه قاصداً الخروج بغير عودة، لكنني توقفت عند الباب، عدت ببطء وجلست بإعياء. قلت له بعد أن نزل:

- أرجوك تقول لى.. فين الدهمشاوى؟.. لازم أقابله.

- أنت لسه مش واثق فى؟.. مش ممكن أقوم باللازم بالنيابة عنه؟

- يعنى أنت متأكد أنه جاي؟

- الحقيقة.. ما أظنش أنه حيغى الليلة.

بذلت مجهودا كبيرا لكي أمنع نفسي من الكلام. لكنني قلت.

- هو.. الموضوع.. الحاج كامل.. يعنى.. رسالة..

بدا الاهتمام عليه. عقد ذراعيه على صدره. قال:

- يعنى انت مش...

- أيوه..

هز رأسه عدة مرات. اتجه إلى كرسيه خلف المكتب. جلس.

- فين هي الرسالة؟

- هي شفوية.

- بخصوص ايه؟

- بخصوص.. شغل يعنى.. هو قال لى.. فيه وظيفة.. الحاج كامل.

أغمضت عيني أمام عينيه المبتئين فيهما. حين فتحتهما تحت يده تناول سكين الورق وتعاود العبث بها تحت المصباح. خيم الصمت على الحجرة. تمنيت أن يحدث أي شيء يقطعه: أن تسقط السكين من يده مثلاً فتكسر الزجاج.. أن يظهر العملاق الأسود.. أن ألهض وأقفز إلى الشارع.. لكن شيئاً من ذلك لم يحدث.

(.. ورأيت الجمع المتكاثف في ميدان الحسين. قلت إنه حاو يتلعب الامواس والشعلات نظير بعض الملاليم، أو بانعة أحجبة تشد شعر بانعة يانصيب وتمرغها في الميدان، أو رجل داسته الأقدام وهو يحاول التزول من الأتوبيس.. هذه أمور تحدث كل يوم، إلا أن اليوم ليس ككل الأيام، فأنا أنتظر الدهمشاوى. وتمزقت بين أن أذهب لأرى بنفسى الدهمشاوى المسجى، وبين أن أبقى على المحطة لأنظر الدهمشاوى الحى. ووجدتني أعبس الشارع ركضاً إلى الجانب الآخر. وقالوا بمدوء: "راجل وقع من طولسه.. مات!" ناضلت بكتفي وقدمى وأظافرى لأحدث فجوة أطل منها على وجه الرجل، فقال شخص ما وهو يخرج: "مالقيوش فى جيوبه حاجة يا ولداه.. ولا حتى بطاقة شخصية" وتذكرت أنني لم أر الدهمشاوى ولا أعرف شكله فمضيت، لكنني استدرت أنظر إلى المتفرقين عن اللجنة يعصمون شفاههم وأوشكت أن أسألم: ألم تجدوا معه ولو صورة تشبهنى؟..).

قال الموظف للعامل العجوز الأحول الذي دخل الحجرة توا:

- فثشوا كل العمال يا ريس؟

قال العجوز دون أن أعرف لمن يوجه كلامه، فقد كانت إحدى عينيه تنظر نحو الموظف والأخرى تنظر نحوى:

- لا يابيه.. احنا مستيين سيادتك عشان تطلع العلبة بايدك من جيب الحرامى.

- طيب وقفهم كلهم طابور فى الطرقة اللي بره.

- واقفين جاهزين يا سعادة البيه.

نمض من خلف مكتبه واتجه ناحية الباب. توقف لحظة وهو ينظر إلى. لم أفهم ماذا يعنيه من هذه النظرة، لكنني فهمت وخرجت خلفه على أية حال.

فوجئت بأن الطابور الذي امتد بطول الممر كان منخفضًا جدًا حتى وجدتني أنظر إليه من أعلى. كان شريطا رماديا متعرجا متلاحما لا يكاد يتضح فيه الطفل من العجوز فقد كانت قاماتهم جميعا قصيرة وسيقاتهم مقوسة بشكل ملحوظ، حتى خلتهم طابورا من الأقرام. فكرت بدهشة فيما إذا كان طولهم قد نقص فى الساعات القلائل التي مكنتها فى الداخل، أم أنهم كانوا هكذا دائما ولم ألاحظ ذلك لاختلاف زاوية النظر؟.

كانت تصدر عنهم همهمة مكتومة حين خرجنا، وما أن بدأ التفتيش حتى انقطعت تماما. اتاح هذا الصمت لرائحة الدخان المعسل والحشيش أن

تصاعد بقوة. راح العامل العجوز الأحول يتحسس جيوب كل منهم من الخارج، من أسفل إلى أعلى والعكس، بحفة ومهارة من تدرب على ذلك طويلاً، ونظراته غير المحددة الاتجاه تصيب كل الطابور، وتوحى لكل شخص فيه أنها تراقبه هو و حده. كانوا يرفعون أذرعهم إلى أعلى بمشقة واضحة، ولا يجدون القدرة على صلب قاماتهم المقوسة، حتى الأطفال منهم كانت أذرعهم النحيلة تهتز في الهواء كعرائس الخيوط، وكان العامل العجوز الأحول يضطر إلى الانحناء، وأحياناً إلى الجلوس، ليتمكن من تفتيش أجسادهم الضئيلة. وما أن ينتهي من أحدهم حتى يتركه يتجه إلى نهاية الممر المظلم، حيث لا يظهر مرة أخرى، وبعضهم كان يبقى متلكناً يحوم حول بقية الطابور بدافع الفضول.

انتهى تفتيش كل الطابور، ولم تظهر العلبة الصغيرة التي تحوى قطعاً من الفضة، والتي قيل إنها اختفت من إحدى الورش.

قدم الموظف الجذور الوجه ناحيتي من آخر الممر، متباطئاً، صامتاً، وعيناه منغرزتان في عيني، ومن خلفه العامل العجوز الأحول والساعي الأسود وبعض العمالقة الآخرين لا أعرف من أين جاءوا، بينما بقى الأقرام في أماكنهم يتفرجون. وقفوا قبالي صامتين. تم تبادل النظرات وهزات الرؤوس فيما بينهم. أدركت أن هناك شيئاً ما يدبر بشأني. تراجعت خطوة. تقدموا هم أيضاً خطوة. ظلت بيني وبينهم مسافة متر. اجتازها العجوز الأحول فجأة فأصبح وجهه ملاصقاً لوجهي. وكانت نفوح منه بقوة رائحة الدخان المعسل والحشيش. تركزت كل حواسي في مناطق جيوبى. تملكني شعور مفاجئ بأن جيب بنطلوني الأيمن قد زاد وزنه بعض

الشيء. نفضت الخاطر عن ذهني وأقنعت نفسي بأنني كنت طول الوقت في مكتب الموظف ولم أدخل مطلقاً إلى الورش. أوشكت أن أضع يدي في جيبي لأتأكد، لكنني عدلت عن ذلك فوراً بشعور لم أدرك مصدره. تراجعت خطوات أخرى وقلت بتحفظ:

- انتو عايزين إيه مني؟

قال الموظف بلزوجة:

- دي مجرد إجراءات روتينية.

- دي إهانة ما قبلهاش.

لكن في نفس الوقت كان يزداد إلحاحاً ذلك الإحساس بأن ثمة جسمًا غريباً في جيبي الأيمن، فكرت أنني سوف أمنحهم الفرصة سهلة للقبض علي لو مكتبهم من التفتيش.

اقتربوا أكثر يتقدمهم العجوز الأحول. تأكدت من أنه لن يفيدني التراجع أكثر من ذلك. توقفت. مر الأحول بجواري ووقف خلفي. لحق به العملاق الأسود.

أصبح الموظف والعمالقة الآخرون في مواجهتي. شكلوا دائرة صغيرة من حولى قطرها هو عرض الممر. استنجدت - بنظراتي - بالعمال الأقزام الواقفين غير بعيد عنا يتفرجون بصمت، بعيون مطموسة تائهة. ضاقت الدائرة من حولى، لكنني تبينت فيها ثغرة تكفي لمروقى منها، وبدأ لى واضحاً أنهم تعمدوا تركها ليتيحوا لى الفرصة للهرب. أدهشنى ذلك وجعلنى أتردد فى اقتناص الفرصة، لماذا يسمحون لى بالهرب إذا كانوا

يريدون إعادتي إلى السجن؟ لكنني قررت أن أقتنص الفرصة، أيا ما كانت النتائج.

واندفعت مارقا من الثغرة المفتوحة، أجرى على امتداد الجانب الآخر الخالي من الممر، وكان ديبب أقدامهم يدوى بوضوح من خلفي..

(٦)

الظلام كتل متراكمة، أدفع كتلة لأحاول أن أرى موطن قدمي، فتحتل مكانها كتلة أخرى. أتخبط بين الكتل والجدران في سلام الربيع وممراته.

أخيراً أنفَس بعمق وأنا أصعد سلام البوابة الخارجية، لكنني أجد الشارع أيضاً مظلمًا، وليس على امتداد الرؤية ثمة ضوء. أين اختفت كل مصابيح خان الخليلي؟. وفي أي وقت من الليل نحن؟.. رحت أتحمس الجدران وواجهات الخال المغلقة، أقف مستندًا إلى أحد الجدران أتدرك أنفاسي، أستطيع الآن - على ضوء النجوم - أن أميز الكتل من الفراغ. أواصل السير، وأنتقل من شارع إلى شارع، باحثًا عن الطريق إلى شارع الأزهر. كل الشوارع متشابهة يؤدي بعضها إلى بعض، كعلبة الأطفال ذات الممرات الحلزونية وبدخلها حبات البلى الدقيقة يحاولون دفعها إلى مركز الدائرة.

أتذكر علبة القطع الفضية المفقودة. أوشك أن أضع يدي في جيبي لأعرف ما إذا كانت موجودة فيه، وفجأة ألمح في نهاية الشارع المظلم، عند زاويته القائمة مع شارع آخر: شبحين لرجلين. أتمعن فيها بقدر ما يسمح الظلام، لا أتبين ملامحهما، ولا أعرف إذا كانا من رجال الربيع أم لا، فقط

أراهما يتقدمان، بخطوات بطيئة متسللة، أبعاد توا يدي عن جيبي، أسير
مفتعلًا الهدوء والثبات، ألمح عند زاوية قريبة شخصين آخرين، يقفان
بترقب. أواصل سري محاولا التغلب على ارتجاف ساقى. أفكر بأن أفضل
وسيلة لتفويت الفرصة عليهم هي التخلص من العلبة - هذا إذا كانت
موجودة في جيبي - فورًا، فإذا وجدتها فلألقها في الظلام دون أن يشعروا،
ولأواصل سري واثقا من أنهم لا يملكون دليل إدانتى. وإذا لم أجدها يكون
كل شيء قد انتهى، بل ويصبح بوسعى أن أذهب إليهم لأسألم عن
الطريق إلى شارع الأزهر.

التفاحة والسكين

(١)

ضغطت على الجرس، أوشكت أن تضغط مرة أخرى، لكنها رأت الخيال المهتز خلال زجاج الباب المغبش. سمعت وقع خطواته. فتح نافذة الباب ونظر بجذر. لم تستطع أن ترى ملامحه في الظلام. همس بدهشة، أهلاً.. وفتح الباب على الفور. في انعكاس الضوء الخافت على وجهه من الداخل رأت التقطية بين حاجبيه كجرح غائر.

اتجهت مباشرة نحو مصدر الضوء.. إلى المرسم. جلست على "الكنبة" بألفة. استأنف الرسم في صمت. مرت لحظات ثقيلة. قال بنفس التقطية الغائرة.

— كيف حالك؟

بدأت تتأمل ما حوفا. توقف بصرها عند "الطبيعة الصامتة" أمامه على منضدة خفيفة. التفاحة الذابلة والزجاجة النحيلة المعتمة. قالت بدهشة.

— ألم تنته منها بعد؟

ثم فجأة وهي تضحك.

- متى نبت لك هذه اللحية؟

تحسس لحيته الغزيرة، وازدادت تقطيبته عمقًا. أردفت.

- تذكرني بلوحاتك في الواحات.

قدم لها سيجارة وأشعلها. أشعل أيضًا واحدة لنفسه. راحت تأمل

حلقات الدخان الملتوية ببطء بعكس الضوء. قالت:

- متى ستسافر؟

- حين تأتي الموافقة.

- أهنأك مشاكل؟

- يعنى!

هضمت. مضت تقلب مجموعة اللوحات الزيتية في الركن. قالت من

هناك:

- ست سنوات من عمرك!.. ألم تكن كافية؟

توقفت فجأة عن تأمل اللوحات وقالت:

- ألم تعرف؟.. قبلت في معهد النقد الفنى.. ظهرت النتيجة اليوم.

لم يكن هناك غير حفيف الفرشاة أو السكين على اللوحة، وكان وجهه

تائهاً وسط سحبات زرقاء من دخان سيجارته..

(... من خلال مسطحات الألوان الشفافة كمكعبات متداخلة، ووسط

هالة اللحية الكثثة والشعر المسترسل كنت أرى بغموض وجهه، كقديس أو

حكيم، وهو يحكى لى ذكريات كل لوحة رسمها لنفسه هناك، يحدثنى عن

سنوات الاعتقال المريرة وعن الاختراعات البدائية الطريفة التي كانوا يصنعونها في الفراغ الطويل.. أكاد من فرط السحر أجد نفسي بينهم، أحس شمس صحراء الواحات، أعيش كفتاة بدائية أزرع وأبني وأنسج مثلهم..)

قالت كمن تذكرت شيئاً.

- مررت اليوم على المأذون.

رن جرس التليفون. الدفع إليه بلهفة. وجدت بالقرب منها مجموعة "اسكتشات" بالخبر لנסاء عاريات. عاد بأسرع مما توقعت. جلس أمام اللوحة صامتاً، عاقداً ذراعيه على صدره، يتأمل اللوحة بعيون فارغة. قالت:

- غريب أنك عدت للمشخصات.

أنتيه مباغتاً.

- نعم؟

- أقصد.. هؤلاء العاريات.

- هذه مجرد دراسات.

- يقولون إنك سوف تتحول قريباً إلى رسام تجريدي.

خرج من خلف حامل اللوحة. اتجه إليها في صمت وما زال معقود الذراعين تأملها لحظات طويلة. كانت التقطية الجرح أكثر عمقاً. قال:

- وإذن؟

هزت كتفيها واستدارت مبتعدة. أمسك بذراعها. انفلتت بليونة نحو ركن اللوحات.

- ستأخذ معك كل هذه اللوحات؟

مضى إلى الداخل. عاد بعد قليل بزجاجة وكأس واحدة. جرع نصف الكأس ونظر إلى بقيته بامتعاض. تمدد على الكنبه وأخذ يحملق في السقف...

(... ككل ليلة، نصف غائب، مخمور أو مسطول... أي رعب وراءه؟!.. كل محاولة للاقتراب منه تزيد الصدفة إحكاماً على ما بداخلها، وأي اعتراض يجعله يكشر بعدوانية قد تؤدي إلى استعمال يديه. تبدد السحرا.. وماذا بعد؟.. ليس غير حصار مجنون حولي بالشك يسميه الحب...)

انتفض بفزع على رنين التليفون. قفز إليه في خطوتين، لكن المكالمة لم تستغرق غير ثوان، وضع السماعة ووقف ملتصقاً بالخانق الرمادي، مدلى الرأس والذراعين، فبدياً طويلين طولاً مفرطاً. إتجه إلى مقعده خلف اللوحة صامتاً.

(... في الظلام المتوهج بالرغبة. انتفض فرعاً للمرة الأولى حين رن الجرس فجأة، وظل يدوي في فراغ الشقة، ويزحف وبإصرار، حتى يتمدد على الفراش بيننا... وانطفأ كل شيء...)

اتجهت إلى الكنبه. قالت وهي تعاود تقليب صور العاريات.

- جئت اليوم لآخذ بقية الملابس.

رفع نحوها عينين كبيرتين، غائمتين، وحاجباه الكثيفان مرفوعان إلى أقصى مدى.

- دعي كل شيء. سوف أترك لك الشقة بما فيها
- وماذا أفعل بكل هذه الصور؟
- يمكنك بيعها لتاجر الروبائيكيا.
- ضحكت. توقفت عند أحد الرسوم تتأمله.
- حين رأيت العاريات ظننت أنك تحاول العودة إلى أسلوبك القديم.
- لم أكن أرسم عاريات من قبل.
- كان الإنسان على الأقل هو موضوعك.
- منذ زمن كف الفنانون عن أن يجعلوا الإنسان موضوعهم. ومن قبلهم فعل الساسة.
- انفجرت ضاحكة، ثم توقفت لتقول:
- صرت حكيمًا بعد أن تركتك!
- ناه بصره حائرًا مرتبكًا في فراغ الحجرة. صب لنفسه كأسًا أخرى.
- جرعها متعضًا، ثم المحى على اللوحة.
- (... بالضبط، صرت ذليلاً.. هذه هي الكلمة. فمنذ زمن طويل مات الحكيم. بالتحديد، يوم وقف أمام باب الشقة بظهره وقال لي: لن نخرجي... فأزحته بتصميم وخرجت. وحين كانت الشقة تدوي بصرخاته وتهديداته، كنت واثقة من أنه أيضًا يعرف أن الحكيم مات، حتى من قبل ذلك، منذ كف يانسًا عن محاولات الفراش اللاهثة...)

مضى يتأمل التفاحة الذابلة المعطوبة، الأحمر الباهت المحروق، فوق أبيض
المفرش الناصع، منفية عن مجموعة "الببعة الصامتة" أمامه، فوق جزيرة
صغيرة من الظل الرمادي القاتم، يكونها تحتها الكشاف الكهربائي المسلط
بقسوة.

قالت:

من الفنان الذي قال إن ما يهمه هو التفاحة وليس عصيرها؟
كانت قمة التفاحة - فوق الجزء المعطوب - تلمع، تجو وتلمع.
دعك عينيه المجهدتين بقوة.

- أنا لا تميني التفاحة ولا عصيرها.

(... كان الضوء فوق رأس الضابط يلقي على المكتب ظلًا كظل هذه
التفاحة. لا.. إنه لا يشبه أي ظل آخر، لا ينتج عن ضوء المصباح فوقه،
إنما ينبثق من صلته المصقولة، وينحدر فوق ملامح وجهه الناعمة، ويسقط
فوق المكتب، فيسيل على الزجاج، لينسكب منه بلزوجة، قطرة قطرة على
الأرض...).

قالت: ماذا يهمك إذن؟

(... من يدري.. لماذا أتت في هذا الوقت بالذات؟.. لم أستبعد ذلك من
قبل على أية حال، من قبل حتى أن نتخذ قرار الانفصال، فإن ما تنقصهم
معرفته عنى هو ما أفعله في تلك الساعات التي أقضيها في البيت، أما خارج
البيت فلديهم الكفاية، هناك دائمًا - على كل درجة من درجات السلم -

واحد منهم، في الاركان المظلمة، في المطاعم، في الحانات، في المقاهي في
الأنوبيسات. غيرت طريقي بين البيت والعمل مرات. امتعت عن ركوب
الأنوبيس وتحملت التكاليف الباهظة لسيارات الأجرة، اكتشفت أنهم
السايقون أيضًا. لو كنت فقط أجرؤ على النظر في وجوههم!.. لكنني -
حقى وهم يتسمون لي، وهم يمدون أيديهم الطرية لمصافحتي - لم أكن
أجرؤ، بل كنت أكتفي بأن أشيح بوجهي عنهم وأبتعد مسرعًا. قررت
أخيرًا أن ألزم البيت بعد عودتي من العمل، تجنبًا للظهور في الأماكن العامة،
فلجأوا إلى التليفون. لكن.. أن يطلب مني ذو الراس الأصلع بعد كل ذلك
أن أقوم أيضًا بنفس الدور، أن أصبح عينا لهم على الآخرين - ولو لبضعة
أيام - حتى يأذنوا لي بالسفر!..)

امتدت يده فجأة بسكين الألوان تطمس صورة التفاحة. اهتز حامل
اللوحة تحت عنف حركة يده. اندفعت نحوه. وقفت خلفه تنظر إلى ما فعله
بدهول. قال بابتسامة غريبة.

- والآن ما رأيك؟

أرعبتها ابتسامته. همهمت.

- قضيت شهرًا ترسمها.

(... "إن أية امرأة لا تساوي أربعة خطوط صادقة في لوحة فنان"..
كتبها لي صديق أحمق ظن أنه يواسيني وأنا مخمور، فدلقت عليها الكأس
الأخيرة.)

- طظا!

وانفجر ضاحكًا. تناولت حقيبتها وتحركت نحو الباب. ففض خلفها.

- إلى أين؟

- ذاهبة. لقد تأخرت.

قالتها وهي تطوح حقيبتها فوق كتفها وتنثني بخفة من خلف حامل
الرسم، فيتطوح شعرها الفاحم في الهواء كطائر ليلي..

(... كان شعرها المطوح في اللفتات المفاجئة يظلني دائمًا تحت شمس
الواحات، والخطابات المهربة تملأني بيقين هادئ، يجعلني مقتنعًا بأن الصواب
هو ما أراه لها كذلك، لعلني لهذا لم أسأل نفسي يومًا ماذا أفعل لو هجرتني.
لكن هدوء اليقين لم يدم طويلًا بعد الخروج، كنت دائمًا قابعا هنا، وكانت
هي دائمة منطلقة مع أصدقاء بلا حصر وأكثر مني شبابًا... وبدأ رنين
التليفون، ثم أصبح مقدم الليل يحمل الرعب لكليتنا..)

- غدًا سوف أحضر حقيبة لآخذ فيها الملابس.

كانت قرية منه، تقف ياشعاع دافئ، ذاخرة، دانية وبعيدة. اقترب
منها، أفعمته رائحتها. أصبحت السنتيمترات الفاصلة بينهما مشحونة
بشحنتي جذب وطرده متعادلتين. لم يدرك أنه يرتجف فعلًا إلا حين مد يده
يتخلل شعرها بأصابعه ثم أغرق فيه وجهه، ومن خلف أذنها تشمم رائحتها
الخاصة. بحث شفتاه المحمومتان عن شفتيها. راوغته طويلًا قبل أن تسلمهما
له، وبحث أرجلهما المتخبطة عن الكنبه حتى وجدها فارتميا عليها.. لكن
جرس التليفون انفجر صახبًا وراح يدوي يالحاح. انتفض مدعورًا يحاول
النهوض. قبضت على ذراعه بقوة وقالت بهمس باتر:

- انظرا

لبث في مكانه عاجزاً عن الحركة. هضمت. متجهة إلى التليفون.

- آلو.. لا ليس موجوداً. لا أعرف. مع السلامة.

وضعت السماعة في هدوء وعادت إليه. قال:

- من؟

- لا أعرف. شخص لم يذكر اسمه.

هب واقفاً يصرخ.

- كنت تعرفين أن هذه المكالمة يتوقف عليها سفري. لماذا كذبت

عليه؟.. هم الذين أرسلوك.. أليس كذلك؟... إنها خطة محسوبة... إنها...

أوقفته صفة مفاجئة على وجهه. مادت به الأرض وغامت أمامه الرؤية

لحظة.

وأفاق على عينين متمرتين في مواجهته. اقترب منها بيدين مرتعشتين

تستهدفان عنقها. قفزت من فوق الكنبه مبتعدة خلف حامل الرسم. تقدم

لحوها ببطء تسبقه يدها المرتعشتان. دارت عيناها في الحجرة بجنون. فجأة

جذبت بصرها ومضة الصلب في سكين الألوان. اختطفتها وأشهرتها في

انتظاره. توقف عن التقدم لحظة قاس فيها المكان بنظره، أزاح بقدمه

المنضدة الصغيرة التي تحمل أدوات الرسم وعاود التقدم ببطء. لم تعد

تفصله عنها غير خطوة. تراجع بظورها. تقدم أكثر، وكلما خطا خطوة

تراجعت حتى أوقفها الجدار. مضى نحوها بيدين لا ترتعشان وعينين مليتين

بالتصميم. دارت عيناها حولها بسرعة تبحنان عن مخرج. لكنها كانت

محاصرة بجسمه القريب، المخيم، الضاغط بلا توقف، رفعت يدها بالسكين. سددها نحوه. وجدت يده الهائلة تدنو منها. ارتعشت يدها وسقطت منها السكين، من قبل أن تقبض عليها يده. أصبح وجهه في وجهها تمامًا، عيناه في عينها. ترك يدها فخف رعبها قليلًا. اختلط لهما المرتفع، كانت أنفاسها حارة لافحة على صفحة وجهه. ورائحتها البرية تفعمه وتثيره أكثر مما كانت في أي يوم مضى. حاولت أن تنفلت من تحت ذراعه فسبقها وسد عليها الطريق. راح يبحث عن شفيتها وهي تراوغ...

وفجأة، التقت عيونهما في ومضة باهرة، متوهجة باكتشاف مندهش.. ثم أخذتا يتزلقان على الجدار الأملس، جسمًا متلاحمًا، لم يستطع أن يشطره جرس التليفون حين انطلق يدوي، دويًا ظل يتكاثر في الصمت المرعوش، في ملايين الموجات من الطنين المعدني النابح، قبل أن يصمت فجأة في أنة واهنة. تاركًا صمًا مبهورًا الأنفاس...

عقد من الخزف الأزرق

أضاء كل الأنوار.

تسلل على أصابع قدميه، مشدودًا إلى الصوت بعشرات الخيوط. من كل جزء في الشقة يمتد خيط إلى أذنه. كلما وصل إلى نهاية خيط يتوقف، ينحني، ينبطح مجزماً أنه هنا، في هذا الركن، خلف هذا الباب، تحت هذه الأريكة أو هذا السرير.. ينقطع الخيط فجأة ويعم الصمت، ليمتد بعد لحظات خيط جديد بين أذنه وبين مكان آخر.

ارتمى على الأريكة لاهئًا. جذبت عينيه على الفور عينان كبيرتان محددتان بخط سميك أسود، تطلان من صورة على الحائط المواجه.

هوت الشقة فجأة في سكون عميق. أصغى، كان صرصار الليل قد أهدأ أغنيته. انقشع شيء ثقيل عن عينيه. دار بهما في أرجاء الشقة بدهشة، لم تكن الشقة يوماً بهذا السكون.

مال برأسه إلى الخلف متوسدا راحة يده. استغرق في تأمل الصور الفوتوغرافية التي تملأ الجدران. إلكتروا، أنتيجون، أوفيليا. ميديا.. جميلة.. شهر زاد. نفس الملامح، لكن ما أبعد الشبه!

زحفت إلى أذنيه دقائق الساعة.. نظر فيها آلياً.. منتصف الليل.
أعاد يده إلى موضعها خلف رأسه. الأفضل أن يلقي بالساعة من النافذة
إذا كان عليه أن ينتظر طويلاً.

(... في المقعد المتطرف بالصالة.. كان هناك دائماً.. يحتويها بعينيه.
بأذنيه.. ورغم البعد كان بوسعه أن يسمع حفيف ثوبها. تلاحق أنفاسها...)
استبد الصداع برأسه. كان يعرف أنه يمتلك في مكان ما أنبوبة بما بعض
الأقراص.. مهدنة أو مسكنة أو منومة.. لا يذكر.. إنه على أية حال في
حاجة إليها جميعاً.. اكتفى بأن يقرر ذلك ولم يجد رغبة في أن يقوم للبحث
عنها. ترك أذنه لدقائق الساعة وعينه لوجهها المطل الآسر.

(... عند باب الممثلين. ألوان المكياج الصارخة ما زالت فوق
وجوههم.. البرد كان يجمده.. ويده تمتد بخجل.. بجمرة.. لمصافحتها...)
من بين كل الصور، كانت تلك الصورة تجذب بقاءه وهو يقاومها. يقاوم
بالذات عينها. لم يستطع أن يحدد في أي دور التقطت لها. حيرته الابتسامة
الغامضة فوق شفيتها. حين دقق النظر لم يجد حدود ابتسامة.. ما هناك مجرد
ظلال رخامية عند زاويتي الفم، تدرج إلى ما فوق الشفة العلوية حتى
تتلاشى. وتعود برقبة إلى أعلى الخدين، لتحدد الأنف النييل المستقيم،
وتعمق كلما اقتربت من تجويف العينين، ويفارقها ملمس الرخام، وتتخلى
عن حياديتها الباردة؛ لتتقد فجأة في جدوة التضاد بين الأبيض والأسود في
حدقتي العينين.

زحفت برودة ثلجية إلى أعماقه. تعالت دقائق الساعة. قبض على جبهته ليوقف الطرق. كان يعرف مكان الأقراص، وكان يعرف أيضًا أنه الليلة في حاجة إلى كل يقظته.. لكنه إزاء الألم لم يستطع الاستمرار في المقاومة، ففض يبحث عن الأقراص، في أحد الأدرج التقت أصابعه بعقد من الخزف الأزرق. توقف مترددًا لحظات ثم استمر في البحث عن أنبوبة الأقراص دون مبالاة، لكنه ما لبث أن عاد إليه وأخذ يتفحصه. حاول أن يراه مجرد عقد من الخزف غير مقترن بشكل عنقها، أو أن يتخيله حول عنق امرأة أخرى، وقال في نفسه إنه مجرد عقد ذي حبات أسطوانية من الخزف مطلية بطبقة من المينا الزرقاء.

ابتلع قرصين من الأنبوبة وعاد إلى مكانه. ما زال يعبث بالعقد بين يديه. (... راح مرتبكا يثبته حول عنقها، توهج خذاها لأول مرة بغير مكياج المسرح. سأها: أي بطلاتك تشبهين الآن؟... قالت: أشبهن جميعًا. قال: لكن إحداهن لا تشبه الأخرى. ضحكت بسوقية وقالت: إنك تفكر بعقلية جمهور الدرجة الثالثة...)

انطلق صفير الصرصار من جديد. ملأ السكون بالفة كأنه جزء قديم من البيت.. هل سمعه هنا من قبل؟ لم يذكر، دهش لوجود صراصر من هذا النوع في شقة على النيل بالزمالك، ربما تسلل من الشاطئ إلى الخديقة ثم صعد إلى هنا وكمن منذ الشتاء ينتظر الربيع. كان هنا إذن طول الوقت!.. (... الضحكات تجلجل بدوي عاصف.. سحب الدخان تتعقد كأنما من أثر انفجار. الزجاجات والكنوس متناثرة في كل مكان.. ونجمة السهرة -

تزيدها الخمر توهجًا وفتنة - تقوم بتقليدهم وتقليدهن بحركات فكاهية، فقد نصبت مناقشات السياسة والفن التي يبدأون بها السهرة عادة، وانتهت أحاديث آخر الفضائح.. وهو.. منسى في الطرف البعيد كعادته، يشرب في صمت. قبل الفجر اقترح أحدهم أن يزلوا إلى شاطئ النيل ليشاهدوا مراكب الشمس. اندفعوا - دون أن يلتفت أحد إليه - يهبطون السلام وهم يهتفون. آمون!.. دعتة يالحاح أن يزل معهم فرفض. لحقت بهم في ضوضاء. تناهى إليه من الطريق غناؤهم الجماعي. أنا هويت وانتهيت.. وعند الشروق سمع ضجتهم البعيدة. أطل من النافذة، رأهم يتراخون متخاصرين، كل رجل مع امرأة. كانت هي أيضًا تحيط بذراعها خصصر أحدهم وهو يعيل عليها يقبلها. لم يكد يحاول مناقشتها حين عادت حتى انفجرت تصرخ بهوس، وتحطم الزجاجات والأكواب وتلقي بقطع الأثاث من النافذة قائلة: هذا بيتي وهذه حياتي وأنا حرة فيهما...

التقت أنظارهما فجأة، في تلك الصورة ذات الابتسامة. كانت العينان تنظران تجاهه مباشرة. انحرف برأسه إلى اليمين ثم إلى اليسار لكنهما ظلتا مسددتين إليه، تحاصرانه، كأنهما على وشك أن تفشيا له سرًا..

(..قلت: ها هو رجل يعمل شيئًا بلا ضجيج، يقدم نفسه للموت من أجل قضية، كان يوسعه أن يفتح عيادة تدر عليه ذهبًا، لكنه ذهب إلى بيروت ليكفر عنا جميعًا وسط النيران، يضمد جراح الفدائيين. لكن الغريب ألا يتمكن عزرائيل من القبض عليك، بينما تمكن البوليس هنا من ذلك وألقوا بك في السجن!". كانت تنظر شاردة إلى صفحة الليل من الشرفة المنخفضة، وفي الصمت الخاشع كان يجلس رشقات الشاي ويغرق في صفاء عينها.

.. "وحين علمت أنك عدت ظللت أبحث عنك، بينما كنت أنت
تنتظري كل ليلة لتصافحي مهنتاً على ضجيج تافه أملاً به الرجال الجوف.
ولم أكن أعرف أنه أنت.."

ألقى بذراعيه إياي على امتدادهما فوق مسند الأريكة، طوح برأسه إلى
الخلف مغمضاً عينيه على كل وجوهها المعلقة، بينما دوي صوت البوق
لحواً في أذنيه..

فتح باب العربة السوداء. جلس بجوار السائق في صمت. انطلقت
العربة إلى الشارع الكبير المزدهم بالعربات. مخترة إشارات المرور الحمراء.
اجتازت الكوبري واندفعت تنز في طريق الكورنيش ممزقة خيمة الظلام
البارد.

نظر إلى السائق في توسل أخرس. وجه السائق صلب. صفحته الجانبية
عريضة لامعة، تومض وتخبو مع أضواء المصابيح المتلاحقة، يقبض بقبضتين
ضخمتين على عجلة القيادة. عيناه الجامدتان تنظران بغير مبالاة إلى أعماق
الطريق المظلم.

رمى بطرف عينيه إلى الخلف. لم يجد أحداً، وقبل أن يسترد طرفه لمح -
عبر حافة المسند - شيئاً أبيض كالطيف، ممدداً في عتمة المقعد الخلفي. أدار
وجهه إلى الأمام سريعاً. نسي جنون سرعة العربة وأوشك ذهنه على
الشلل، لم يعد هناك في وعيه غير إشعاع ضبابي أبيض يحاول أن يتشكل في
شكل ما. لم يجد الجرأة على الالتفات مرة أخرى أو سؤال السائق. ظل

السؤال الأخرس معلقاً في عينيه بلا جواب. تضاعف ثقله واختنق بالعجز
عن أية حركة.

- هل أماننا كثير؟

- اقتربنا.

خرجت من بين شفطي السائق غليظة مدغومة.. تشجع قليلاً وقال:

- كنت أظن أننا لن نكون وحدنا.

- إننا لسنا وحدنا فعلاً.

- ماذا تعني؟

- إنما معنا.

- .. من؟

- زوجتك.. أعني جثة زوجتك.

حاول أن ينظر إلى الخلف. لم يستطع.

(.. الجسم الشامخ ممدد في القميص الحريري الأبيض، بفتنة لا يحفيها

حتى الموت، ممدد ومباح، شامخ وحقيقي. الآن لا أسوخ في كتابه الرملية،

الآن أملكه..).

اخترقه صوت السائق: أنت خائف؟

ظل صامتاً. واصل السائق:

- ألم تكن مقتنعاً بما حدث؟

لم يكن هناك غير أوزير العربية. قال السائق فجأة:

- إنك ما تزال تحبها!

ثم انفجر مقهقها حتى استلقى رأسه إلى الخلف. تحمس الزوج وجهه كمن تلقى صفعة، شعر بلمسه غريبًا وكان جلده قد تسلخ. حاول أن ينظر إلى وجهه في المرآة الصغيرة المثبتة أمام السائق. رأى وجه السائق مלאها. كان جامدًا. لم يصدق أنه نفس الوجه الذي كان يقهقه منذ لحظة. في ذلك الوضع أصبح شديد الشبه بوجهه حتى لم يعد يميز ملامحه عن ملامح السائق.

بحث يده عن العقد الخزفي في جيبه. كان ملمسه ناعمًا وباردًا، غمغم.
- لقد تأكدت بنفسك من خيانتها. ومع ذلك فإنك لم تقتلها من أجل هذا.

- أنني لم أقتلها.

التفت إليه السائق. زر عينيه المتفتحتين مسلطًا إياهما على وجهه
قال الزوج مندفعًا:

- لقد ظللت طول الوقت تسلط الفكرة على ذهني، يجب أن تتخلص منها.. لكنني لم أكن أستطيع.
احتد صوت السائق لأول مرة.

- ظننت أنني أساعدك. كانت البقع البيضاء تزحف على وجهك ويديك وكل جسمك. كان الجلد يتآكل يوميًا بعد يوم. كنت ألاحظ أن التآكل يتزايد مع تصاعد علاقتك بها. سألتك. إن كنت تحبها فأخذت تراوغ قائلاً إنك تبحث فيها عن شيء ما. قلت لك رأيي في العلاقة بينها

وبين البقع. لم تستمع إلي قلت لي: إنها الحساسية: وأصبحت تتجنب لقائي. حتى قابلتك يوماً وكانت البقع قد أوشكت أن تغطي وجهك تمامًا. قلت لي: إنك بحاجة إلى بعض التغيير، وإن هواء النيل سوف يساعد على أن تبت لك طبقة جديدة من الجلد مكان المتآكلة. نصحتك يوماً بأن تنقد ما تبقى من جلدك وتبتعد عنها. لم تستمع إلي.

- لم أكن قد فقدت الأمل بعد.

- لكن بحثك عن ذلك الشيء فيها استغرق وقتًا كان كافيًا لكي يتآكل فيه كل جلدك. وصدمتك النهاية.. فلجأت إلي:

كانت أصابعه تتحسس وجهه المتآكل. ثمة أطراف متدلية من الجلد الرقيق حول البقع. راح يتزعها قطعة قطعة، وهو يطحن أسنانه.

هدأت سرعة العربة. انحرفت إلى طريق مهجور لا يوجد به عمود نور واحد. وخشخشست على أرضه غير المسفلتة. أخيرًا توقفت في فضاء رملي بعد أن دارت دورة صغيرة، مسحت أثناءها المكان بشعاعي النور المندفعين من مصابيحها، فكشفا عن عربة صغيرة حمراء تقف مطلقاً الأنوار، أطل من نافذتها رأسان لشاب وفتاة، بدا واضحاً أنهما متعانقان داخل العربة. وسرعان ما غاصا ثانية غير قادرين على مواجهة الضوء الباهر.

أوقف السائق محرك العربة السوداء. نزل منها وفتح الباب الخلفي، لم يتحرك الزوج من مكانه، تناهى إلى سمعه صفير متواصل لصرصار بعيد، دار السائق حول العربة، فتح الباب المجاور له وهو يشير بيده كأمر بالزول. نزل في صمت. اتجه معه إلى الباب الخلفي المفتوح. أمره السائق

ياشارة أخرى أن يُخرج الجثة. ارتجف كل بدنه، كونت الصراصر جوقة
ملأت الظلام بصفيرها، نظر نحو السائق متوسلاً، لطمته النظرة الآمرة،
انحنى داخل العربة وراح يجذب الجسد المسجي من تحت الإبطين، صعقته
البرودة المنبعثة منه، وهاله ثقله المضاعف. انطرح رأسها على ذراعه
فانسدل الشعر الطويل مغطياً وجهها، وفاحت منه رائحته التي يعرفها جيداً
إلا أنه اختق بما، تمكن من إخراجها أخيراً وسجّأها على الأرض وهو
يلهث. أغلق السائق الباب الذي أخرجت منه الجثة واتجه إلى الباب
الأمامي ودخل منه، وقف الزوج أمام الجثة مدلى الرأس والذراعين، كانت
تصل إلى سمعه أصداء واهنة من جوقة الصراصر في جوف الظلمة، تحسس
العقد في جيبه بأصابع مرتعشة، أخرجه وجثاً بجوار الجثة، وضعه حول
عنقها ورفع رأسها قليلاً حتى تمكن من شبك العقد من الخلف وأراحه ثانية
فوق الرمال. لم يتضح لونه الأزرق في الظلام الشفيف، إلا أنه بدا لاثقاً بما
فوق القميص الأبيض. سوى خصلات الشعر الناعمة حول الوجه البارد.
انحنى عليه يتأمله، كانت الشفتان الباهتان تحملان ابتسامة أميرة فرعونية،
راح يبحث عن منبعها فلم يجد غير ظلال رخامية عند زاويتي ألم، تتدرج
إلى ما فوق الشفة العليا حتى تتلاشى فوق الخدين الشاحبين، وتعود برقة
لتحدد الأنف النبيل المستقيم، وتعمق كلما اقتربت من تجويف العينين حتى
تصبحا فجوتين تلمع داخلهما نظرة زجاجية بعيدة إلى لا شيء، أسدل
الجفنين عليهما برقة وهض في هدوء، اتجه إلى باب العربة الأمامي ودخل
منه.

أدار السائق محرك العربة وأضاء مصابيحها. فكشفت عن الفتاة والشاب ينظران من نافذة العربة في ذعر ما يجري. أغشى النور عيونهما فغاصا داخل عربتهما الحمراء.

اندفع السائق بالعربة السوداء نحو الطريق غير الممهّد الذي جاءت منه، خاضت فيه بأقصى سرعة مخلّقة وراءها زوبعة من الغبار.. وفي داخلها ظل الرجلان صامتين، لم يلتفت أحدهما إلى الآخر، أو إلى الخلف.

المملوك

١- القلعة:

فجأة أفقت على هزة من يد جاري. انتبهت بدوار. كنت منذ لحظات - أو منذ ساعات لا أستطيع أن أجزم - أقاوم النوم بصعوبة. الآن، الصمت. وهج الضوء. وجه نادبة الساكن على يساري، يثبت نظراته الساهمة على حقيبتي السوداء. العيون.. عشرات العيون والعوينات الزجاجية. لامعة، محدقة، ومبتسمة بشكل ما، تحاصرنني، تغرقني بترقب مصهور، يلهب أطراف أذني.

- أنا لست مهياً للكلام.

همستُ بذلك لجاري الذي أيقظني، فأخبرني هامساً أيضاً، لكن بحروف واضحة جداً، ومبتدئاً بقوله: "بيني وبينك" .. إن ذلك غير ذي أهمية، وأن المهم أن أقول أي شيء ما دام الدور علي. وأن هذا هو نفس ما فعله كل الجالسين.

ألقيت عليهم نظرة خاطفة، صفان طويلان متقابلان تفصل بينهما المنضدة المصفولة، تكسر حدة خطوطها المستقيمة سواعدهم المترعة فوقها

كطريق الكباش، هزوا رؤوسهم هزات منتظمة موافقين على كلام جاري.
تبين لي أن ما ظننته ابتساماً في عيونهم وعويناتهم ليس إلا إحساساً متضخماً
بالرضا عن النفس. همست لجاري.

- لكن ماذا يجب أن أقول؟

خجلت أن أخبره أنني نعمت خلال الجزء الأخير من الجلسة؛ لأن
الطين المتواصل للكلمات، ونهايات الألفاظ المشابهة في الجمل المتساوية
المقاطع من خطب المتحدثين، علاوة على حرارة جو هذه القاعة الأثرية
ذات المشربيات العالية المحكمة الإغلاق.. كل ذلك كون في النهاية مزيجاً
دافئاً مخدرًا سرى حثيثاً في كل أوصالي.

مال جاري بجذعه كله نحوي، حتى لفحت أذني أنفاسه المشبعة بدخان

الباب وقال:

- بيني وبينك ليس مهمًا أن تقول شيئاً، وكفي أن تظهر لهم الرسوم
التي أخذتها لتجري عليها بعض التعديلات.

بحركة تلقائية امتدت يدي وقبضت على الحقيبة. أجفلت نادية. مدت
يدها وضغطت على يدي المسكة بمقبض الحقيبة. لم أفهم. سألتها بعيني.
مالت على أذني هامسة فأفعمني عطرها المميز.

- حذار أن ترفض، حتى لا تجعلهم يتمسكون بها أكثر.

جذبني جاري الأيمن من ذراعي وفتح في أذني:

- بيني وبينك..

لم أحتمل رائحة أنفاسه. فضلت عطر نادية الخائق. ملت نحوها. كانت قريبة جداً مني. حركت في أنفاسها الدافئة وبحة صوتها بعض النشوة. وكان ذلك يذكرني بنجوى على نحو ما.

- دعهم يفتحونها. لن يفيدهم ذلك ولن يضرک.

ولكني لظمتها بنظرة جانبية حادة، فخفضت عينها. إنها الوحيدة التي تعرف ما في الحقيقة. أردت أن أسألها عن حقيقة شعورها وهي تحمل إليّ المظروف الكبير الذي أعطته لها نجوى. قدرت أن ذلك سوف يجعل موقفني أسوأ.

كانت عيونهم جميعاً على الحقيقة، تسج حولها - ببطء ومن جميع النواحي - شبكة من خيوط غير مرئية، وتسحبها بليونته، لكن بقوة لا تقبل التراجع، كقرار تم اتخاذه بالإجماع. وهومت في جو القاعة - مع سحب الدخان المنعقدة - جملة واحدة باترة، لم تعد في حاجة لان تُنطق: "الأفضل لك أن تسلم".

قررت أن أتکلم...

خيم على القاعة صمت سميك يتذبذب فوقه الصدى. لم أفلح - حتى بعد أن تنحنت مرارا - في أن أجد الفرصة للتفكير في بداية مناسبة للكلام.

فكرت أخيراً في أنه ليس لزاماً عليّ أن أتکلم، أو أن أبرر رفضي لفتح الحقيقة. وأني حضرت إلى هنا - إلى أعلى مكان بالقلعة - بمحض اختياري، ولم تكن هناك شروط من أي نوع منذ البداية، أو هكذا أوحوا

إلى. كما لم تعد تشغلني المشروعات الكلامية التي يشغلون بها أنفسهم... وإنما جئت اليوم فقط لألتقي بنادية، على أمل واحد، أن تدلني على عنوان نجوى، التي أرسلتُ إليَّ معها كل خطاباتي طوال سنوات حيناً، وسافرت بعيداً عن المدينة من غير أن تترك لي عنوانها... هكذا فجأة دون أن تبرر هذا القرار، أو أن يحدث بيننا ما يستوجب ذلك، باستثناء تلك الخلافات التي كانت تدب بيننا - بين الحين والآخر - بسبب انشغالي الدائم باجتماعات القلعة، التي حضرتُ بعضها منها في البداية. كان يماكني ألا آتي ومعني حقيقتي اليوم، أو أن أحضرها وبها الرسوم التي يريدونها. لكني - ومنذ أن أعادت إليَّ نجوى كل خطاباتي - أخرجت منها كل الأوراق القديمة، ووضعت مكانها تلك الخطابات، أحملها معي أينما ذهبت، على أمل أن أعثر على نجوى يوماً، لأسألها: هل كنت كاذباً في أي كلمة من بين كل هذه الرسائل؟

حصار العيون يزداد إحكاماً. يدي تستميت على مقبض الحقيبة، انفلت غضبي فجأة:

- ماذا تريدون مني؟

أفرعتني الصرخة. ظل صداها المعدني يتكاثر مرتجفاً ثم يتلاشى بسبطه. وأحسست أنني أفيق من كابوس.

صدرت عن أحدهم (إحم) خافتة، ثم قال برقة وهو يمسخ صلعته اللامعة:

- أنت تعرف جيداً ما نريده.

- لا أحمل أية رسوم.
- لماذا تخشى على الحقيقة إذن.
- لأن فيها أشياء تخصني.
- والرسوم.. ألا تخصك؟
- لم تعد الآن تخصني.
- تقرر ذلك من جانب واحد؟
- هذا من حقي.
- ومن حقنا أيضًا أن نحصل على الرسوم.
- قلت إنما ليست معي.
- دعنا نر إذن.
- لا...

انفلتت مني ال (لا) كالاستغاثة، وأنا أحتضن الحقيقة بقوة. استدركت بصوت واهن، كالاعتذار.

- إن فيها أسراري الخاصة جدًا.

- وماذا يمنع أن نراها؟

- ماذا يمنع؟ .. وماذ يفيدك أن تقرأ خطاباتي العاطفية؟

- طالما كانت في هذه الحقيقة، فلاحتمال قائم باستمرار بأنما قد تتعلق بعملنا.

أوشكت أن أصرخ مرة أخرى، لكن صوتًا حلقياً غليظًا انطلق من صدر المائدة.

- بصراحة أكثر، نحن لا نستبعد أن تكون هذه الخطابات وسيلة لنقل أسرارنا إلى الخارج، خاصة وأن نجوى انقطعت فجأة عن حضور اجتماعاتنا.

عاجلني صوت ثالث من الطرف الآخر للمائدة.

- كما أن عدم إحضار الرسوم اليوم يقدم الدليل على توفير النية لديك لاستغلالها ضدنا.

وانطلق صوت رابع، من أي مكان لست أدري.

- وقد اعترفت بنفسك منذ قليل بأن الرسوم لم تعد تخصك، وأنت تقصد بالطبع عملنا كله. واعترفت أيضًا بأنك اتخذت هذا القرار من جانب واحد، بحجة أن ذلك من حقك. بمعنى أنك اتخذت قرارك مع سبق الإصرار وسوء النية..

عاد ذو الصلعة اللامعة يقول بلهجته الرقيقة.

- لكن بإمكانك بالطبع أن تثبت براءتك من هذه الاتهامات، إذا أطلعنا على الخطابات التي بالحقية... ما قولك؟

خيم على القاعة صمت مشحون بالتآمر. ملأ الدم رأسي. قفزت فجأة بعيدًا عن المقعد والحقية في يدي، اندفعت إلى المشربية. كنت قد لحت - خلال مناورة الصمت - الفتحة الصغيرة في جزئها العلوي. تسلفت قضبانها الخشبية. مرقت من الفتحة. أفرغتني الشمس والارتفاع الهائل. أغمضت عيني على الوهج الأحمر، فاندلعت فيه حزمة من شرارات سوداء.

٢- الطريق:

انطلق الصوت من خلفي: حرامي!... وكنت قد تجاوزت آخر أبواب القلعة. التفت نحو رجل يغزل الكتان على مغزل يدوي وهو يسير بظهره إلى الخلف. كنت أتبادل معه وعددًا من أهل الحي بعض الأحاديث الودية كلما حضرت. فكرت أن أحتمي بهم. عادت الصيحة مرة أخرى أكثر قريبًا. حاول الرجل أن يتخلص من الخيوط الكثيفة التي تشد وسطه إلى عجلة المغزل. لم يستطع. ردد الصيحة.

- حرامي!

انشق الطريق المنحدر فجأة عن عشرات الأشخاص بجلايهم البلدية. اندفعوا خلفي يتصاحون ويثيرون الغبار. بحقد وعدائية ثار قديم. انتهى المنحدر فجأة إلى سلام حجرية عريضة لا ثمانية العدد. اندفعت اخطف كل عدة درجات في قفزة واحدة. كانوا ينتون فجأة على الدرجات كأنما ينشق عنهم الحجر، ويقابلونني بالعرض. لم أكن أدري بأية قوى تتحرك ساقي. انحنى السلام فجأة إلى منحنى جانبي. التفتُ خلفي. كنت قد تجاوزت المطاردين بمسافة كافية لأن أختفي الآن في أي ركن. خلف جدار أثري مهدم ألقيت بنفسي. ومن محبني رحمت أشاهد جحافل المطاردين تندفع بدمدمة.

بعد ساعة خرجت إلى الهدوء الرائق، أهبط بقية الدرجات خطوة خطوة، أحتضن الحقيبة تحت إبطي، أخترق في رصانة، حوارى حي القلعة والخليفة، يقظًا حتى أدق شعرة، لا ألتفت مطلقًا إلى الخلف.

٣- النهار:

أمام السلام الحجرية الهابطة إلى النيل أصابني الدوار. كانت الشمس الغاربة تختفي خلف عمارة بعيدة في الشاطئ الآخر. لكن أشعتها التي تتقافز كالأسماك الفضية على صفحة النيل، كانت تدعوني، تشدني.. فهبطت.

بينما كنت أغسل وجهي وجروحي، وأدلك فروة رأسي بالماء البارد، وأتيح لديب الخدر المنعش أن يصل إلى أقصى نخاعي، وأسبل عيني وأصيح السمع للضخ الصامت لجريان النهر، يصب في ويحتويني في دواماته الغريبة ذات الأزيز، ويطفو بي بعد قليل فأندفع معه، موجة صغيرة في مجراه... كنت في نفس الوقت أفكر في أنه على بعد درجة حجرية واحدة توجد حقيقتي السوداء، وبما ترقد خطاباتي إلى نجوى. وعند نهاية الدرجات من أعلى، فوق سطح النجيل الأخضر، توجد الأريكة الخشبية ذات الشرائح الرفيعة المتجاورة والظهر الخدب باستدارة. وسوف أسند عليه ظهري ووجهي للسماء وعياني مغمضتان وذراعي ممدوتان بكل طولهما فوقه. وسوف تكون هناك بجواري - قبل ذلك أو بعد ذلك - نادية، في نفس المكان الذي كانت تجلس فيه نجوى، على بعد مسافة قصيرة مني تكفي للحقبة السوداء. بدأت أصعد. صفعتي زجاج نوافذ "الهيلتون" ببقايا أشعة الشمس المتوهجة. مع توالي الدرجات ظهرت حافة القوس العلوي الأسود من شعر نادية، ثم وجهها المستدير الأبيض، ثم ذراعها المنسابان في حجرها كطفلين نائمين. وكانت تجلس - ياشعاع ميمز - على الطرف البعيد من الأريكة الخشبية ذات الشرائح الرفيعة المتجاورة والظهر الخدب باستدارة. جلستُ بجوارها في هدوء. وضعتُ الحقبة السوداء في الفراغ

الذي يفصل بيننا أسندتُ ظهري على ظهر الأريكة. رفعتُ وجهي
للسماء وعيناى مغمضتان ومددت ذراعى بكل طولهما فوق الظهر.
لا يقطع هسيس الصمت غير صوت السيارات التي تمرق من خلفنا
على الكورنيش، وثمة، من بعيد، لغط أليف لبعض الصبية وبانعات اللب
والترمس.

قلت، وما أزال مغمض العينين:

- أنت قلت لهم على ما فى الحقيية.

...

- ماذا تريدان؟

...

- أود أن أكتب لنجوى.

- لن تردا

فجأة أمسكت بيدها فى حجرها. صحت دون أن يخرج الصوت.

- لماذا؟

أجفلت نادية. ازدادت يدي ضغطاً وسخونة. أحسست بسخونة يدي،
كما أحسست ببرودة يدها. شدت قبضتي عليها، على ارتعاشها، لكن
صدرها النافر استمر يرتفع وينخفض بلهفة. صوتى يتهدج. أنتفض
بالرغبة.

- لماذا يا نجوى؟ ... لماذا؟

انطلقت عيناها. خفضتهما. أخذت يدها تنسحب من أصابعى برفق،
بنعومة، كقطرات فاترة.

٤- الميدان:

صرخت فرامل السيارة، بعويل رج ميدان التحرير. توقفت مشلولاً.
النور الأحمر. السيارات. الزحام. السيارات. الأصفر والأحمر. الأحمر
والأزرق. الأحمر والأخضر. على قمم جبال الميدان "سافروا على...".
مددت قدمي. أرجعتها. بعضهم اندفع وسط السيارات رغم النور
الأحمر. حاولت مرة أخرى. لم أستطع. النور الأخضر. يندفعون كسيول
كانت محتجزة. يدفعونني. أقاوم. في قلب الصخب الضريع. وحدي. إلا
من حقبة سوداء تحمل خطابات حب ليس لها ردود.

أغنية الدمية

أخذ المترو يغوص تدريجياً في ممر عميق، يحده جسران شاهقان من أحجار صلدة، يعلوهما من الجانبين سور ممتد من شبك الأسلاك السمكية. كانا يجلسان صامتين، مستسلمين لهددة العربة وصوت العجلات، هي بجوار النافذة لا ترفع بصرها عن وجه الطفل على ركبتيها، وهو يمد بصره عبر زجاج النافذة، يتابع الإعلانات التي تملأ جدار الممر الحجري تفر مسرعة إلى الخلف: (انتخبوا.. خير من يمثلكم.. كوافير زيزي.. سهرة الموسم مع نجوم.. الأوكازيون السنوي الكبير لمحلات... عند حدوث غارة لا تترك.. شهادات الاستثمار..) وكانت أصابعه تعبت داخل صندوق من الورق المقوى.

رفعت وجهها تشع منه ابتسامة. قالت وعيناها على الصندوق في يده:

- لم أتصور أن يكون التشابه بينهما إلى هذا الحد.

.... -

- أتعرف؟.. لقد كنت أظن أنك لن تفرح به.

.... -

- لهذا فوجئت بأنك اشتريت له هذا الأنيس..

.... -

- سيكون أنيسًا لطيفًا له.. أليس كذلك؟

.... -

- على فكرة... لم تقل لي رأيك في اسمه.

.... -

- لكنه أصبح اسما شائعًا جدًا.. كنت أفضل أن أختار له اسما جديدة...

غريبًا..

- قالوا لي ليس أمامك غير "ارق" أو "عمرو".. لك أن تختاري منهما

ما تشائين..

- أعلنت احتجاجي على ذلك طبعًا.. لكن أحد من المسؤولين في المستشفى لم يلتفت إلي.. بل إنهم سجلوا الاسم في شهادة الميلاد دون أن أختار حتى أحد الاسمين... جاءت إحدى الأمهات وهمست لي بأنه يمكنني أن أسميه الاسم الذي أريده لو غمزت الممرضة بقرشين.. وقبل أن أذهب إلى الممرضة فوجئت بامرأة ذات عيون شرسة تهجم على الطفل وهو في حجرى وتصيح.. ابني ابني.. صرخت أنا الأخرى وتشبثت به.. تجمع علينا كل العنبر.. اختلفت آراء الأمهات والمريضات فيما إذا كان الطفل ابني أو ابنها.. أخيرًا حضرت الممرضة.. استنجدتُ بها وأنا أبكي.. تأملت الممرضة طفلى لحظة ثم غادرت العنبر. إلى العنبر المجاور.. بعد لحظات عادت وهي تحمل طفلًا وليدا تجهت به إلى المرأة المعتدية وقالت لها: هذا طفلك يا

ست.. نظرنا جميعًا إلى وجه الطفل... وجدناه مسخًا مشوهًا له وجه كوجه القرد.. اصفرَّ وجهها.. انتحت بالمرضة جانبًا وأخذتا تتهامسان.. كانت المرأة تعاتبها على تصرفها وتقول لها إنها ضيعت على نفسها مبلغًا كبيرًا من المال كانت ستعطيه لها لو أنها سكت.. بدا الندم على الممرضة ونظرت نحوي بغيظ ثم راحت تلقي باللوم على المرأة لأنها لم تخبرها من قبل بما تريد..

.... -

- طبعًا لم أجرؤ بعد ذلك على أن أكلّمها في مسألة تغيير الاسم وإلا لكانت أكلتني..

.... -

- ولكن لا قتم يا حبيبي.. سوف نناديه في البيت بالاسم الذي نحبه..

- لكنه لن يبقى في البيت كما تعلمين.

- وأين سيبقى إذن؟

- لقد اتفقنا على أن نسلّمه إلى دار الحضانة.. وهي لا تبعد عن البيت غير محطة واحدة.

التفتت إليه بعينين تلتمعان في تمر:

- لم تنفق على شيء.. هذا ما تريده أنت.. إنك لم تكن تريده أن

يأتي... والآن تريد أن تتخلص منه.. أنا أعرف ذلك.. لكنني لن أترك ابني أبدًا..

ولاذا كلاهما بالصمت.

كانت العربة محشوة بالركاب، ومع ذلك لم تكن تصدر عنها أية ضوضاء... كان الجميع إما نائمين - جلوساً أو وقوفاً - محتضين أكياس الفواكه والخضر، أو دافئين وجوههم داخل الصحف والمجلات، أو مستغرقين في حل الكلمات المتقاطعة.

بدأ المترو يهدئ سرعته للوقوف في المحطة التي سيرلان فيها. هضت وهي تحمل الطفل، وقبل أن تتحرك كان أحد الواقفين قد ألقى بنفسه مكانها وهو يدور بعينه على الوجوه بارتياح وبلاهة، وعشرات العيون تسلط عليه في حسد.. أخذت تتحرك بمشقة نحو الباب وسط الكتل المتلاحمة. هض خلفها في تباطؤ، فاندفع أكثر من شخص لاحتلال مكانه الخالي، مكديسين فوق بعضهم البعض. كادت تحدث معركة.. اختل توازنها.. أسرع إليها وتناول الطفل وأعطاهما الصندوق.

تدافع الناس في المحطة على الصعود قبل أن يزل الراكبون.. انحسر الجميع في الباب... انضغطت وانبرمت بينهم كالحبل.. أخيراً وجدت نفسها على الرصيف، في اللحظة التي تحرك فيها المترو مواصلاً طريقه..

تجوب المحطة.. تنفرس في الوجوه منخلعة القلب. العيون مشغولة عنها بالنظر إلى الأفق تفتش عن مترو قادم.. بعضها كانت مشغولة بتسلق السيقان المشوقة والمكترة.. البيضاء والسمراء والخمرية.. تتجاوزها أحياناً إلى ما فوق الركب الدسمة للابسات الميني جيب.. أما العيون الباقية فكانت هناك هائمة على قمة السور الحديدى المرتفع فوق جدار النفق..

- عمن تبحثين يا ست؟

التفت مباغثة.. وجدت أمامها امرأة شابة ذات وجه وديع، تحمل شيئاً ملفوفاً بالقماش كأنه طفل. قالت لها بلهفة مشوبة بالحنين..

- ابني..

بدأت المرأة في فك اللفافات القطنية الكثيرة في أناة.. الواحدة تلو الأخرى.. ثم فجأة قربت ما بداخلها من عيني المرأة الأخرى...

وقالت:

- ها هو ابنك..

ندت عنها شهقة وتراجعت مذعورة، كان هو نفس المسخ الذي رآته في المستشفى بوجه كوجه القرد. أسرعت مبتعدة، تطن في أذنيها ضحكات المرأة.. الآن تذكرت أنه نفس صوت المرأة التي حاولت اغتصاب طفلها في المستشفى..

توقفت عند طرف المحطة تحاول تركيز ذهنها.. فكرت في أن تذهب إلى البيت فرمما سبقها بالطفل إلى هناك، لكنها تذكرت أنه قرر الذهاب إلى دار الحضانة. اتخذت قرارها بالذهاب إلى هناك فوراً.. سيرا على قدميها دون انتظار المترو... استدارت لتصعد السلم، وجدت المرأة أم المسخ تقترب منها وقد امتلأت عيناها بنفس التصميم الذي كان يملأهما في المستشفى.

اندفعت تجرى بين القضبان اللامعة تحت الشمس، تنتزع بمشقة كعسى حذائها من الحصى والزلط، ثم تنتقل إلى العوارض الخشبية بين قضيبين لتجنب التعثر، تصيها العوارض الخشبية المتساوية والمتوازية بالدوار، فتخطى قدمها المهيوط فوقها، وتغوص في الفراغات بين العوارض الخشبية

المليئة أيضاً بالحصى والزلط، تتعثر من جديد، تضم الصندوق إلى صدرها بقوة لتوقف لهاثها... تتوقف لحظة لتتدرك أنفاسها، تنظر خلفها لترى إذا كانت المرأة ما زالت تلاحقها أم لا.. لم تر المرأة لكنها رأت شبح المترو منطلقاً في أثرها.. في تلك اللحظة فقط سمعت الجرس الذي كان يذقه منذ فترة دون أن تشعر. فاجأها لحظات شلل خاطفة وتوقف ذهنها عن العمل.. ظلت فقط تجرى بأقصى ما تملك من سرعة بين القضيين وقد تلاشى كل تعبها.. ازداد دوى الجرس من خلفها مختلطاً بصيحات الركاب الذين أطلوا من النوافذ يحذرونها.. فجأة وجدت نفسها تلتصق بالجدار الحجري الشاهق بظهرها، وذراعاها ممدوتان فوقه على شكل صليب.. تتابع أمامها نوافذ المترو بسرعة خاطفة، تختلط فيها وجوه الركاب وأيديهم الممدودة نحوها، تريد اختطاف الصندوق من يدها التي تستميت عليه فوق الجدار، تمتزج ألوان الوجوه والأيدي بألوان الملابس ببريق الزجاج بأزرق المترو.. تندفع الألوان مشوشة وكأنها تدلق من أوان مليئة بأصباغ مختلفة تتناثر بقعاً ورذاذاً، يفرقها الالهمار اللوني، ويملأ أذنيها دوي العجلات مختلطاً بصيحات الركاب.. حين عم الصمت أخيراً أرخت ذراعيها، وانزلت بظهرها على الجدار الخشن، جالسة، فظهر الإعلان الذي كانت تخفيه بجسمها: "إنها حقاً منعشة!"

* * *

فتحت الصندوق المصنوع من الورق المقوى.. أخرجت منه الطفل الدمية في قهيب.. وضعت على ركبتيها، تتأمله بعينين مسبلتين تسيلان عذوبة.. يكتسي وجهها بصفاء نوراني مشع..

تمرر أناملها الشاحبة على وجهه.. لا .. لا تمر عليه.. لا تكاد تلمسه..
إنما فقط تنجذب إليه.. تقترب وتقترب.. وحين توشك أن تلمسه تراجع
بقوة طرد غامضة لتنجذب من جديد - في نفس اللحظة - بقوة أكبر..
وتظل الأنامل معلق في مجال مغناطيسي.. مرتعشة.. محتفظة بفراغ لا يكاد
يلحظ.. مخلخل الهواء.. بينها وبين سطح الطفل الدمية..
"يا طفلي الجميل المسكين... يا حي الأول... أنت الشيء الحقيقي
الوحيد الذي ملكته.."

أخيراً أصبح لشقائي معنى.. أصبح هناك ما أعيش له..
لست أقدر حقاً على أن أبني لك حصناً يحميك.. فيداي الهزيلتان لا
تعودان بغير قروش.. قلبي سيكون حصنك.. إنه أبدع من كل الحصون.
ولكن.. يا طفلي الجميل المسكين..
يا حي الأول..
يا بكر ثماري..
لماذا يخطفونك مني؟.."

وقفت أمام البوابة الضخمة تنتظر من يفتح لها... من بين قضبانها
وزخارفها الحديدية الدقيقة رأت الاتساع الهائل للفناء الخالي، إلا من بعض
شجيرات يابسة تتناثر هنا وهناك.. كانت الشمس تمحو كل الألوان، حتى
أخضر الشجر، ولا يبقى - ثمة - غير الأبيض والأسود.
جاء البواب أخيراً.. حدة الأبيض والأسود أيضاً في العمامة والوجه.

فتح الباب في صمت.

- أليست هذه دار الحضانة؟

أوماً بكتلة الأبيض فوق رأسه، وأشار بيده السمراء في صمت على امتداد الفناء.

سارت تحتضن الصندوق الذي يحوى الطفل الدمية، ينبعث الصهد من التراب الساخن، يربض أمامها ظلها الأسود، لا تفتز فيه شعره من ظل شعرها، المساحات المرامية المجدبة، الحشائش الجافة وأشجار الشوك، هنا إذن يلعب الأطفال؟.. ولكن أين هم؟

أخيراً لاحت أمامها واحة ظل تحت أكمة من الشجر. نحت أطيافاً بشرية تتحرك خلالها. استمدت من ذلك طاقة جديدة وأسرعت تعدو. خرجت من بين الأشجار مجموعة من النسوة الشابات، يتأودن شبه عاريات. لم تقع عينها على طفل واحد. توقفت أمامهن حائرة. تجمعن حولها في دائرة وقد تشابكت أذرعهن، يتأملنها يامعان وترقب.

- أين يوجد الأطفال من فضلكن؟

فجأة انفجرت مجموعة النسوية في ضحكة طويلة منغمة ذات ذيول. تماثلت نفسها بصعوبة كيلا تسقط من الدوار. عادت تسأل:

- أليست هذه دار الحضانة؟

انفجرت ضحكتهن من جديد. أحست بالاختناق. اندفعت محاولة النفاذ من حصارهن. أحكمن أغلاق الدائرة عليها والضحكات تتعالى. توقفت دانحة..

- كيف يأتونكن على الأطفال وأنتن بهذه القسوة؟
ارتفعت الضحكة الجماعية.

- هل أنتن الحاضنات أم الأمهات؟

واستمرت الضحكات... ضحكات غريبة.. ليست تعبيراً عن مرح أو سخيرية أو دهشة أو جنون.. إنها تبدو كما لو كانت كلمات في لغة خاصة بمن يتفاهمن بها وحدهن.. ولو لم تسمع في النهاية - بعد أن خيم الصمت نسبياً - إحداهن تسألها عن شكل الطفل، لظنت أنهن مخلوقات من كوكب آخر لا يعرفن لغتنا.

انتشلها السؤال، فانتفضت واقفة تحاول أن تصف لهن شكله، لكنهن قاطعنها بالضحكات. تذكرت الصندوق. أخرجت منه الطفل الدمية. عرضته عليهن قائلة أن طفلها يشبهه تماماً.

كأنما انقضت عليهن صاعقة.. توقفت ضحكاهن فجأة.. جمدن في أماكنهن مذهولات.. أخذن يقتربن منها في بطء وعيونهن على الطفل الدمية.. عيونهن التي تبدد منها أي أثر للعبث وتوهجت بحنان غريب. مدت إحداهن يدها نحو الطفل الدمية في تردد وهمست:

- هل تسمحين لي أن أحمله لحظة؟

ناولتها الطفل الدمية غير مصدقة.. حملته المرأة بكل ما تملك الأم من رقة.. قربته من وجهها المائل على كتفها، تثبت عليه عينين تفيضان أمومة، تسكبها فوقه كأنها تملك منها مخزوناً كبيراً يؤلمها الاحتفاظ به منذ زمن طويل. مدت إحدى النسوة يدها نحو الطفل الدمية تريد أن تحمله بدورها،

إلا أن المرأة الأولى تشبثت به وضمته بقوة إلى صدرها. استبد الغيظ بالمرأة الثانية. شاركتها بقية النسوة الشعور بالسخط. ارتفعت ضجتهن مطالبات المرأة الأولى أن تترك لهن الطفل الدمية حتى تأخذ كل واحدة فرصتها في هله. انتزعت المرأة نفسها من بينهن ابتعدت به تخفيه في أحضانها.. اندفعت الأخريات خلفها في حقد يحاولن اختطافه منها دون جدوى. انقضت عليها إحداهن من الخلف وألقته على ظهرها. استطاعت امرأة أخرى انتزاع الطفل الدمية منها، لكنهن جميعاً كن قد هجمن عليها لاستخلاصه.

جن جنون الأم وهي ترى طفلها الدمية يكاد يتمزق بين أيديهن. اندفعت نحوهن تصرخ، تشد شعورهن، تمد يديها ضارعة، لا أحد يلتفت إليها، والطفل الدمية ينتقل من امرأة إلى أخرى، وهي تدور بينهن ملتاعة. فجأة رأت إحدى ساقيه مخلوعة في يد امرأة. صرخت مروعة، لكن الصراع بين النسوة استمر، حتى تحول الطفل الدمية بين أيديهن إلى أشلاء ممزقة...

* * *

قال البواب العجوز الأسود:

- كلا يا ابنتي.. لم يأت اليوم أي رجل هنا، ربما ذهب إلى دار حضانة أخرى.

- هل توجد دار حضانة أخرى قريبة من هنا؟

- ربما.. الله أعلم

- لكن بأي حق تسمون هذه دار حضانة؟

- كنت أعلم ما سوف يحدث لك بالداخل.

- ومع ذلك تركتني أدخل.

- لست إلا بوابا يا ابنتي.

- يا لمن من متوحشات.

- لقد كانت فيما مضى دار حضانة عظيمة الشأن.. أترين كل هذه المساحات الخالية؟ كانت كلها حدائق وملاعب للأطفال، يأتي بهم أهلهم من كل مكان. أما الآن. فهذا أنت ترين.. لم يعد إلا هؤلاء الشكالي، يأتين إلى هنا كل يوم، بحكم العادة لا أكثر.

- هل مات أطفالهن؟

- لا .. بل خطفوا.

- ومن خطفهم؟

- الله أعلم يا ابنتي.. يقولون إنهم يباعون في الخارج بالعملة الصعبة.

نهشت الكلمة قلبها. اندفعت نحو الطريق العام. عبرته. هبطت السلام قفزا نحو محطة المترو. لم تستطع الانتظار لحظة. انطلقت مع القضبان. طريق القضبان مرة أخرى.. الشمس جهرات ملتهبة فوق رأسها وتحتم قديمها. لو جاء المترو فلن يأتي من الخلف بل سوف يواجهها. غاص حذاؤها في الزلط والخصى. خلعتة. راحت تقفز باندفاع فوق الجمرات الملتهبة، بجوار القضبان الحديدية المتوهجة، الممتدة إلى مالا نهاية.

قبل أن يغلق زوجها الباب خلفها قالت لاهثة:

- أين طفلي؟ ..

وأرعبها صمت الشقة الثقيل.

- أي طفل؟

لم تستطع أن تتبين ملامح وجهه في ظلام الصالة. صاحت:

- لا تراوغ... ماذا فعلت به؟.. تكلم.

لم يتكلم. تركته في ذهوله واندفعت إلى داخل الشقة تبحث فيها حجرة حجرة عبثًا تحاول.. قواها تخور.. ترجع بوجه صخري.. تتحامل على المقاعد والجدران.. تغوص في المقعد الكبير مفتوحة العينين.. تحديق أمامها ولا ترى شيئًا.

جلس فوق مسند (الفوتيل) وأحاط كنفها بذراعه. همس:

- إنك لست على ما يرام.

بجمود صخري وما زالت تحديق أمامها:

- هل بعته؟

- عم تتحدثين؟ .. إنني لا أفهم شيئًا.

- كنت أعلم أنك سوف تقول ذلك.

- كان المترو كيوم الحشر.. أين ذهبت؟.. لم أصدق أنك استطعت

الزول من باب الجحيم. كدت أسقط تحت العجلات حين أردت أن أقفز

خلفك.. خفت عليك.. إنك ما زلت ضعيفة وقد أمرك الطبيب بالراحة.

لكن على فكرة.. أين الدمية؟

بنفس الوجه الصخرى تنهض.. تفتح باب الشقة.. تجتاز الممر نحو
السلم... قبط ببطء... درجة درجة... الدرجات مظلمة.. تغوص...
يتلعتها الظلام البارد.

طريق الكثبان الرملية

أضيت الإشارة الحمراء، انطلقت طوابير العربات. لم تطلق آلات التنبيه، كانت تزوم فقط، تندفع بلا مبالاة، تحترق الخطوط البيضاء المتوازية على الأسفلت، ألقى بنفسه بينها. بدأت لا مبالاته تهتز وأطلقت التحذيرات. لم يهدئ من اندفاعه. اضطرت أكثر من عربة لاستخدام الفرامل.. والشتائم... أصبح على الرصيف الآخر.. كانت عينه - ككلب الصيد - تثبت بالبقعة الرمادية البعيدة في طرف الميدان وساقاه تندفعان في اتجاهها، مصطدماً في طريقه بالمارة. لكن البقعة الرمادية كانت - كالسراب - تحتفظ بنفس المسافة بينها وبينه، متآمرة مع المارة وإشارات المرور. بدأت قواه تتخلى عنه وهو على بعد أمتار من العربة ذات الغطاء الرمادي، وكان بوسعه أن يرى أصحابه من الفتحة الخلفية للغطاء. كانت قد تجاوزت الميدان وانطلقت في طريق لا تعترضه إشارات مرور. لوح بذراعيه صائحاً بأسمائهم، بدأت العربة تهدئ من سرعتها حتى توقفت. عادت إليه قواه أكثر حيوية، وأشرق وجهه المنطفيء بوهج الشمس والعرق. أخيراً تثبت بمقبض السلم الخلفي للعربة وقفز وسطهم، سألهم

لاهنأ عما إذا كانوا قد نسوا الموعد. شخصوا إليه صامتين كأنهم لا يعرفونه. جوبةً بجدار بينه وبينهم، حاول اجتيازه قائلاً إنه انتظرهم في المقهى ساعتين بعد الموعد، وكان من الممكن ألا يرى العربية لولا المصادفة. لم يتلق غير الصمت.

تجاوزت العربية حدود المدينة، واتجهت إلى الطريق الصحراوي. جعل يركز نظراته على رقعة الأسفلت التي تخلفها العربية في اندفاعها الجنوبي، الرقعة البازلتية المفتتة وهي تنجرف دوماً - وبشكل شلالات أسفلتية - إلى الاتجاه المضاد. تعبت عيناه فانتقل بهما إلى المدى البعيد لشريط الأسفلت الملتوى وسط المساحة الرملية الشديدة البياض، لا يقطع استمراره الثعالبى غير سيارة تتجاوزها عربته بين الحين والآخر. أحياناً يكتفه بعض الغموض، حين يخترق أكمة من الأشجار الكثيفة تبدو غريبة وسط مساحات الفراغ والصمت.

كان انفلات الشريط من بين العجلات يترك في حواسه خدراً عملياً يطفو على سطحه شعور بالاختطاف، ومع الأزيز العذب للعجلات فوق الأسفلت، تملكته الرغبة في أن يغنى، أغنية بلا كلمات، صوتاً واحداً متصلًا جارقاً صاعداً هابطاً كهذا الشريط الأسفلتي. وفاض قلبه بحنين معربد إلى أن يحضن امرأة أو يسبح في البحر أو يمتطي جواداً أو يضغط على زناد مدفع سريع الطلقات.

لم يشعر بأنه كان يضحك إلا حين انتبه إليه أحد الرفاق بوجه مسطح. وغاص فجأة كل شيء.

هؤلاء جميعًا أصحابه. استبدت به الحيرة. أوشك أن يسألهم لكن الحرج
منعه.

(... قال المهدي متحمسًا فجأة:

– لن نستحق الحياة لو ضاعت منا هذه الفرصة!
تيقظت كل حواسه وهو يسمع الشرقاوي يقول من بين شاربه الكثيف:
– سنضع حدًا لفقهاء المقاهي وكذابي الزفة.. و..
قاطعة المهدي:

– إسمع.. نحن لا يعيننا كل هؤلاء.. المسألة أساسًا: تبع الحقيقة أم
الوهم؟

قال منصور بمبدء:

– المسألة أساسًا: ما هي الحقيقة؟

– ولن تعرفها ولو عشت مائة عام وأنت تبحث عنها في المقهى.

كان يتابع الحوار صامتًا. هتف من أعماقه:

– رائع...)

التفتوا إليه بجدة كأنهم بوغتوا بوجوده. تردد صوته في أذنيه غريبًا
بانخًا. راحوا يحاصرونه بالنظرات. ألقى ببصره إلى الطريق ولاذ بالصمت.
إنهم يعرفون أنه يفضل الصمت، لهذا يدهشون حين يتكلم فجأة. لعلهم
لهذا كانوا دائمًا يستهينون به. كان يرضى بموقعه في الظل مشفقًا على
نفسه من سخريتهم، بينما يحلم بفرصة يثبت لهم فيها ملكاته التي لا تجد

وسلنتها الكلام. وقد جاءت هذه الفرصة بالأمس حين وافقوا على أن يكون رفيقهم في الرحلة. ومع ذلك فما أغرب أمرهم اليوم!

بحث في نهاية الطريق عن عربة قادمة. لم يجد. انتظر أن تأتي واحدة من الاتجاه المضاد، أو أن يرى حيوانًا أو شجرة أو قناة.. لم يحدث شيء، ليس غير الفراغ العريض الصامت والأعمدة المندفعة إلى الخلف ووجوههم الراكدة وأزيز المحرك الريب وشعور مقبض بالاختطاف..

توقفت العربة أمام نقطة المرور. بدأ رفاقه يهبطون. لم يبق غيره. رآهم يخرجون أوراقًا وحواظ من جيوبهم، يتسلمها جندي المرور ويفحصها يامعان. انكمش في ركن العربة، لم يكن قد احتاط لذلك. لحظات وكان الجندي يطل عليه ويشير إليه ليهبط. نزل متكلفًا الثبات. طلب منه الجندي بطاقته. اعتذر بأنه فقدت منه وأنه اتخذ الإجراءات لتجديدها. سأله عن إيصال التجديد. قال إنه تركه في المنزل مع كل أوراقه. فتشه بعناية: مندبل متسخ وبضعة قروش وتذكرة أتوبيس. سأله عن وجهته، فأشار إلى رفاقه.

— هل تعرفهم؟

— نحن أصدقاء.

هزوا أكتافهم وأنكروا أنهم يعرفونه. صرخ:

— أنتم لا تعرفونني؟

قال ذو النظارة السميقة:

– نحن نراك لأول مرة (ثم للجندى) لقد فوجئنا بشخص يجرى وراء
العربة ويلوح لنا. قلنا قد يكون في حاجة إلى معونة.

– الموضوع يا شاويش...

لكن الجندى لم ينتظر ليسمع، بل طلب منهم التوجه معه إلى رئيس
النقطة.

* * *

كان رئيس النقطة يجلس أمام منضدة في صدر الكشك، يجثم عليها
بذراعيه الضخمين المشمرين. انضم إليه بعد قليل موظفان مدينان معهما
أوراق وأقلام. راح يتفحصهم بعينين مبتسمتين رغم غلظة ملامحه. كانت
أسئلته هي نفس أسئلة الجندى تقريباً. شجعتة رقة الرئيس على أن يفكر
باستذانه في جلوسهم على المقاعد الخالية. عدل عن ذلك، قدر أن الأمر
لن يستغرق وقتاً طويلاً، وما هي إلا إجراءات روتينية.

قدم رفاقه لرئيس النقطة التصريح الذي يحملونه. وحين سأهم عن
علاقتهم به أكد له ذو النظارة السميكة عدم وجود أي علاقة تربطهم به،
وأشار إلى أن التصريح بأربعة أشخاص فقط.

قال كالمطعون:

– إذن كانت النية مبيتة !

– عم تتكلم؟ نحن لا نعرفك.

(... صرخ الفتى ذو الشارب الأخضر منتفضاً فوق ساق أمه:

– يا هوه...!...! أقطعوها!

وسقط شعاع مصباح الغاز على جبينه، فلمعت في تجاعيده قطرات العرق).

سأله رئيس النقطة:

- وما علاقتك أنت بهم؟

- أسأهم يا سيدي أين كنا بالأمس.

- لم نرك قبل اليوم يا سيد!

(.. فكوا الخرق عند قدمه المنتفخة. رفعوا البصلات التي يضمون بها جروحه. بدت القدم مسخاً متهرئاً يز سائلاً كالصديد. صرخ الفتى العاند على قدميه من صحراء سيناء:

- يا با ا ا ي.. اقطعوها أو اقتلوني يا أولاد الكلب!

وأخذ يضرب رأسه بجنون في ساق أمه).

قال رئيس النقطة:

- أين كنتم بالأمس؟

- كنا في منزلي يا سيدي. واتحداهم أن ينكروا ما قالوه.

- ماذا قالوا؟

(ضمت الأم رأس ابنها إلى صدرها وغسلته بالدموع. وضم الرجال ذراعيه إلى جنبه حتى تنتهي النسوة من وضع بصلات جديدة ساخنة وتضميدها من جديد).

اندفع ذو الشارب الكثيف قائلاً:

- يا أفندم إنه يكذب. نحن لم نره إلا منذ ساعة واحدة وهو يجري وراء
العربة.

نقر الرئيس على المكتب قائلاً برقة بالغة:

- أرجوكم.. الهدوء!.. حسنًا.. قلت ماذا قالوا بالأمس؟

(هدأ جسد الفتي بعد قليل وراح في غيبوبة. لحظات ثم اتقد بالحمى.

أخذ يتلوى ويهذي:

- النار.. نقطة ماء. حامد.. الدم.. أين ساقك؟ أمسك كتفى.. حاسب

قلمي تفوص. لن تموت.. اقتلني.. عطشان.. عطشان..

وعند الفجر كان الجسد قد همد للمرة الأخيرة. خرج "هو" مع الرجال

وصراخ النسوة يدور مع الحمام المفروع في سماء القرية).

- لماذا صمت.. إنهم قبلوا التحدى وأتمموا بالكذب. هيا واجههم بما

قالوه.

قال وعيناه على ذي النظارة السمكية:

- لن نستحق الحياة إذا ضاعت منا هذه الفرصة.

- ما المقصود بهذه الفرصة؟

- أن نضع حدًا لفقهاء المقاهي وكذابي الزفة..

- وما علاقة هذا برحلتكم؟

- المسألة أساسًا: نتبع الحقيقة أم الوهم.

- ما هي الحقيقة؟

- لن نعرفها ولو عشنا مئة سنة ونحن نبحث عنها في المقهى.
نظر رئيس النقطة إلى الآخرين. كانوا يتبادلون النظرات ويضحكون
سأهم:

- هل هذا كلامكم؟
ضحكوا بصوت مرتفع وأعلنوا أنهم يسمعون لأول مرة. سأله الرئيس:
- أين تعرفت بهم؟
- كان يقتلنا السأم في المقهى، وتستريح عقولنا المطربات ومكبرات
الصوت.

هز الرئيس رأسه كأنه فهم كل شيء. وسأهم عن وجهتهم. أجاب ذو
الشارب الكثيف أنهم ذاهبون لزيارة بعض الأقارب. وأضاف أن هذا ما
أدهشهم من سؤاله لهم عندما لحق بهم في العربة عما إذا كان قد حدث
تعديل في الخطة.

صرخ: أيها الأندال!

دق الرئيس على المكتب بعنف وقد اكتست ملامحه بتعبير جديد غريب.
تلاشت الرقة الخائفة واكتسحته نشوة وحشية. هُض وعيناه تنتقلان
بسرعة مجنونة بينه وبين الآخرين، وابتسامة غير مرئية تكاد تشف من تحت
جلده.

احتد صوته بالأمر لأول مرة.

- انتباه!.. لن أسمح بأي مقاطعة!

وخيم الصمت المشحون لحظات، قبل أن يتجه بحديثه نحو الشاب ذي النظارة بهدوء مستعار، بينما تحفز الموظفان لتسجيل كل حرف يصدر:

- وآلان أريد نص الحديث الذي دار في العربية.

وأعاد الشاب ذكر الكلمات التي قيلت بلا تحريف. غرس الرئيس نظراته في عينيه وقال بنفس الهدوء المتفجر:

- ما قولك؟

- كنت أعنى أن ...

- قلت ذلك أم لا؟

- ولكن طريقة ذكرهم للحديث ..

- قلت ذلك أم لا؟

وظل صدى الصرخة يتصاعد متلاطمًا ثم يتهاوى ثقيلًا مكتومًا فوق الرؤوس.

- حسنًا .. نعم قلت ... إذا كان هذا ما تريد.

التفت الرئيس بمحبة إلى الموظفين وقد توقفا عن الكتابة، وهما يتابعان الحديث مشدوهين، وفي دعر انكبا يكتبان بكل ثقل يديهما على السورق. ارتخت ملامح الرئيس بعض الشيء، لكن ما عاد شيء قط إلى ما كان عليه.

* * *

وجد نفسه وحيدًا أمام مكتب الرئيس.. لم يعد هناك أثر للرجال الأربعة، بل ولا للكشك. أصبحوا في قاعة هائلة الارتفاع، توجد على

جدرانها براويز كتبت داخلها عبارات غامضة، حين أمعن النظر فيها
وجدها مكتوبة بلغة غير لغة بلاده. وفي سكون القاعة لغبط غامض لا
يعرف مصدره. وكان الموظفان يجلسان الآن إلى يمين الرئيس وشماله. وحين
تكلم الرئيس كان لصوته رنين عظيم:

- والآن.. حدثنا عن المهمة التي كلفت بها.
- لم يكلفني أحد بأية مهمة.
- ما هي الخطة التي كنت تتحدث عنها؟
- لا أعرف خطة لأي شيء.
- كيف عرفت الرجال الأربعة بينما هم يرونك لأول مرة؟
- هذا يؤكد علاقتنا التي ينكرونها.
- وقد يؤكد أنك كنت تتعقبهم حتى تستدرجهم إلى هدف معين.
- لم أملك طوال حياتي القدرة على وضع أهداف.
- وهذا الكلام الخطير الذي ذكرته.. أليس أهدافاً؟
- إنه ليس كلامي.. إنه كلامهم الذي صدقته.
- وما هو دليلك على ذلك؟
- فوجئ بالسؤال. ظل يبحث عن إجابة فلم يجد. مال الرئيس على
الموظفين الجالسين إلى يمينه ويساره وتبادل معهما بضع همسات، واعتدل
قائلاً بلهجة قاطعة:
- أنت متهم بالتجسس لحساب العدو.
- أي عدو تعني؟

استمر الرئيس متجاهلاً سؤاله وهو يقرأ من ورقة أمامه :

- لقد ضبطت وأنت تحاول اختراق منطقة ممنوعة دون أن تحمل تصريحًا أو بطاقة تثبت هويتك، بينما كنت تتعقب أربعة من المواطنين وتحاول استدراجهم إلى مؤامرة اعترفت بأهدافها العامة، كما اعترفت بوجود خطة لها. بهذا تثبت عمالتك للعدو، وتوجه إليه تهمة الخيانة العظمى. هل لديك دفاع؟

أجمه الدهول. راح يتلفت حوله مستنجدًا بأي شيء، لم يكن هناك غير صدى صوت الرئيس وهو يعلن أن الحكم بعد المداولة، ثم هيباً هو والموظفان للخروج وقبل أن يفیق من ذهوله سمع ضجة تأتي من نهاية القاعة، وظهر عند بابها رفاقه الأربعة.

توقف الرئيس والموظفان في أماكنهم مستكرين، حتى اقترب الأربعة وهم يلهثون. صاح ذو النظارة السمكية:

- سيدى الرئيس. لقد نسينا شيئاً.

وتوقف لحظة يتدارك فيها أنفاسه ثم أكمل:

لقد نسينا أن نسترد بطاقاتنا الشخصية بعد التحقيق، ولن يتركونا نمر. نظر إليهم الرئيس مستاء من فوق المنصة، ثم هبط متجهًا إلى الداخل وفي أعقابهم الموظفان، بلا اكتراث.

الحارس

(١)

حين استيقظت لم أجد أحدًا بالحجرة. عرفت من تدافع الضوء الأصفر خلال ثقوب المشربية أننا في الأصل. استرخيت ووجهي للسقف. عدة دقائق أخرى. لم يأت أحدهم. السقف بنى حائلًا، قريبًا جدًا رغم أنه شديد الارتفاع. تركيب معقد من الزخارف والمقرنصات الدقيقة محفورة فيه.

مربعات ثلاثة متساوية، دائرة مفرغة في المربع الأوسط. دائرة مضيئة وسط الغموض المعتم، فوقها قبة ذات طاقات تشع بألوان متباينة من خلال الزجاج المعشق بالجلص... قفزت فجأة إلى وسط الحجرة. على الرخام المزخرف وقفت مندهشًا. "سنرى بقية القصر". قالوا ذلك، وكنت متعبًا ففضلت انتظارهم.

جلست مواجهًا لجدار الدنتلا الخشبية، أحرك رأسي يمينًا ويسارًا، فيتحرك الضوء ويتلاعب في غموض بين الثقوب الدقيقة. لا شيء كان حاضرًا هناك، في الداخل أو في الخارج، غير الضوء.. والصمت.

إلا أن ذلك لم يستمر، فقد سمعت وقع خطوات متباطئة بالقرب من
الحجرة.. نظرت من خلال الثقوب: لم أجد أحدًا اتجهت إلى المشربية
بالجدار الآخر. رفعت نافذة صغيرة بما ونظرت، وجدت أسفلها فناء
مهجورًا، وقبل أن أغلق النافذة، نحت هيكلًا خشبيًا عتيقًا لساقية مغلقة في
الجانب المقابل. أعرف أنواعًا شتى من السواقي، إلا أنها أول مرة أرى فيها
ساقية بالدور العلوى، ترسها الأفقي معلق في الهواء، وعلى الثور الذي
يجرها أن يدور تحتها مباشرة. لكن كيف يصعد الثور إليها؟.. ومن أين
يصلها الماء وإلى أين تدفع به؟

بحثت عن باب الحجرة كانت هناك عدة أبواب مغلقة، جربت فتحها،
الواحد تلو الآخر. أكتشفت أنها دواليب. أخيرًا أستجاب لى أحدها
وخرجت منه. وجدتني في صالة مستطيلة ذات جدران عالية بيضاء بلا
نوافذ، تسبح في ضوء حالم، كان مصدره السقف الزجاجى المكون من
دوائر متجاورة، مختلفة الاحجام والالوان، أزرق، أصفر، أخضر، أحمر،
ذابت جميعا في مزيج شفاف، انصب في أعماقي محدثا رجفة. عبرت الباب
الوحيد - بعد أن صعدت درجتين - إلى حجرة مربعة لها نفس الجدران
المساء الناصعة والسقف الزجاجى، بوحدات أقرب إلى شكل الزهرة،
كانت تبدو كمكعب كبير أبيض، قادتني بدورها إلى مكعب أصغر قليلا.
وهكذا رحلت أنساب بين المكعبات البيضاء المتداخلة، مأخوذا بقوة جذبها
الغامضة، إلى أن بلغت آخرها، وكان ضيقًا حتى ليوشك أن يطبق على.

(٢)

سمعت الهمهمة تعلو وتتضخم، مدومة. لم أصدق أنني مصدرها، فلم
أفعل أكثر من أنني أخذت نفسًا عميقًا، أو ربما كانت شهقة. لكن أن

يصبح للشهقة هنا كل هذا الدوي... إلا أنني أكاد أجزم أنه لم يعد صوت الشهقة فقط هو ما أسمعه الآن.. أنه يأتي من بعيد، كإنين خافت متصل. تسللت ملتصقا بالجدران الملساء إلى الخارج. أسلمتني كل حجرة إلى جاسها، حتى وجدتي - مرة أخرى - على باب الحجرة الكبرى التي كنت بها. أصخت السمع. تأكد لأذني الأئين المتصل المجروح، يأتي من جهة الساقية. خطر لي - في التو - الصوت الأبدى المألوف كأنما يصعد من داخل. ها هو يأتي، بكل الصدا المتراكم فوقه. اندفعت إلى النافذة. كنت أتوقع أي شيء إلا أن أجد أن الذي يدور في الساقية إنسان.

يقدر الصدمة، انتابني الفرح، لمجرد أنني لم أعد وحدي. لم أستطع أن أرى وجه الرجل. كان منحنيا إلى الأرض تحت كتلة الخشب الطويلة الغليظة، المثبتة على كتفيه كالصليب، وذراعا ممدودتان فوقها، وصدره مندفع إلى الأمام، يدور في وهن، تحت الترس الأفقى المعلق، في كل خطوة ينتزع من الأرض إحدى قدميه انزعاجًا ويحركها ستيمرات إلى الأمام، فيتعالى ذلك الصوت النائح المشروخ. كان ذلك يتم كأنه مشهد مصور بالحركة البطيئة.

- يا ريس!

خرجت مني في صيحة عالية مشحونة بانفعال لا مبرر له، فالمسافة بيننا صغيرة، بحيث يمكن أن يسمعي وكأنه معي في نفس الحجرة. وحين توقف الرجل فجأة وظهره تجاهي، أحسست بالهزل للمفاجأة التي أحدثتها له.

- مساء الخير.

خييل إلى أنني أسمع غمغمة الرد من خلال لهائه المرتفع.

- أنا آسف إذا كنت أزعجتك.
- واقفًا مازال، منحنياً، مدعناً في ترقب قلت.
- هل تحتاج مساعدة؟
- من أنت؟
- واهنة. بالكاد التقطتها أذني. في حرارة اندفعت:
- زائر للقصر. كنت مع بعض الأصدقاء. يبدو أنهم ذهبوا وتركوني. ألم يمحروا عليك؟
- أرى العشرات مثلهم كل يوم.
- مذهش!.. هل يخرج الماء الآن؟
- يأتون من كل مكان، يتكلمون بكل اللغات.
- أسألك عن الساقية.
- تريد أن تشرب؟
- لماذا تديرها؟
- أمر مولانا.
- مولانا مات من زمان. ألا تعرف؟
- لقد عطلتني بما فيه الكفاية.
- وكان صوته ملولاً خشناً قاطعاً.
- كنت أفكر أنك قد تحتاج لبعض المساعدة.
- بعد لحظات ثقيلة، مفرطحة قال:

- يمكنك أن تأتي إذا كنت تريد.

- دقيقة واحدة وأكون عندك.. لكن.. المشكلة.. أنني..

قاطعني، كأنه كان ينتظر ذلك:

- الباب الذي على اليسار بجوار الحمام.

الحمام!.. التفت. كان هذا الذي دخلته إذن! دفعت الباب الذي على يساره: كنت أحسبه دولابا... انفتح في الحال. عند عتبة مباشرة يبدأ سلم حجري ضيق ذو درابزين متهاك. رحت أهبط بلهفة، لكن بجزر، أخذ يتزايد باطراد كلما هبطت. كان الظلام يتكاثف مع استمرار الهبوط. انتهيت إلى ممر حالك. وقفت متجمدا وسط الموج الأسود. عاد وقع الأقدام فوق راسي تماما. اندفعت. فتحت أول باب لمستة أصابعي. بهرني الضوء الذي تدفق فجأة. قفزت جذبا إلى وسط الحديقة بالفناء الرحب. ملأت كفي من ماء النافورة المتلألئى وبللت وجهي. استندت بظهري إلى عمود رخامي ضخم وأغمضت عيني. ولم أعد أسمع وقع الأقدام.

(٣)

أيقنت أن أصحابي غادروا القصر. قررت الذهاب. عبرت البوابة العتيقة. فاجأني الزحام والضجيج. علمت أنه احتفال بمولد أحد أولياء الله. مضيت أشق الزحام في الدروب الضيقة، تزوفني من الخلف موجة وتلطمني من الجنب أخرى. أترنح، رافعا ذراعي إلى أعلى، كبيرق وسط عشرات الرايات والبيارق المرفوعة، تمثل مختلف الطرق الصوفية. كفت هائيا عن بذل أي مجهود، وتركت نفسي للتيار. كان ذلك لا يخلو أيضا من

بعض المتعة. استغرقتني متابعة المجاذيب بملاهيهم ذات الألف لون، يطوِّحون برعوسهم وأجسامهم إلى اليمين وإلى اليسار، يصدرون ذلك الزئير الجماعي الذي ينتهي بفحيح "أللا.. هه!" أو يلتهمون كرات النار المتوهجة بعد غمسها في الكيروسين، ويطوحونها بأيديهم في الهواء. فوق الرعوس، ويلتقطونها في مهارة بأفواههم، فتخرج مطفأة، ثم ينفثون النار من أشداقهم المنتفخة إلى الشعلات المطفأة فتشب فيها كالشهب. تدك صدرى الطبول، والمزامير، وصليل السيوف الصدنة. يسلبني الحواة لبي وهم يلقون الثعابين السوداء حول أعناقهم ثم يمزقونها بالأنياب، تخترقني السيوف حين أرى النائمين على الظهور يبتون نصالها الثلثة بالقبضات القوية على بطونهم العارية، ليمر فوقها الرجال الحفاة بخفة، تطوحني العمائم الحمراء والخضراء إلى اليمين وإلى اليسار مع حركة الرعوس الدائرية، يطعنني زئير ال "أللا..." حتى الأعماق، وتجرحني ال "هه" في نهايته وهي تخرج كانتزاع السكين، أدور وأدور، لاهتًا، متلاشيًا في جنون الصخب المرعب، متلاطما بين مختلف الدروب والشوارع الغريبة، محتنقًا في النهاية بالغصّة وسحابات الغبار المتصاعد.

انتزعت نفسي باستماتة عند تقاطع طريقين. أستند على جدار قديم ألتقط أنفاسي. حين مر الموكب أمامي تحركت، لأبدأ البحث عن طريق المخططة.

تعلقت عيني برجل ضخم، ذي لحية رمادية مهيبة، يفيض جسمه وجلبابه الحريري الأبيض على المقعد الذي يجلس فوقه. كان يجلس على ناصية الطريق، منهمكا في تدخين الشيثة. أعطاني الإحساس لأول وهلة بأنه شيخ الحارة. اتجهت إليه مباشرة. رد تحيتي في حفاوة وأوشك أن

يدعوني إلى الجلوس قبل أن أبادره بالسؤال عن الخطوة. صمت لحظات وهو يهز رأسه والشيشة ما تزال بين شفثيه. حاولت أن أملاً الصمت بأن أحكى له باقتضاب ما حدث لي منذ الصباح. هز رأسه موافقاً كأنه يعرف كل هذا، ثم قاطعني منادياً على شخص ما. خف إليه رجل قصير عريض الكتفين يتعمم بلاسة بيضاء. أمره الشيخ بأن يوصلني إلى الخطوة، ثم انصرف عنا إلى الشيشة.

انطلق دليلى - كأما أدير "بزمبلك" - يهرول بخطوات واسعة، في طريق ضيق مزدحم بالمارة والباعة وعربات الكارو. كنت أضطر إلى الالتصاق بظهري بالجدران ريثما تمر. وجدت صعوبة في اللحاق بالدليل، وفجأة فقدت أثره. رحت أعدو وأنا أشرب بعنقي. اصطدمت بعدد من المارة وتلقيت الكثير من الشتائم. توقفت في النهاية يائسا وفكرت في العودة إلى الشيخ. وفجأة وجدت الرجل القصير أمامي يلوح بقبضته في وجهي متسانلاً في غضب عما إذا كنت مسطولا، وراح يصب علي سيلاً من كلمات التوبيخ مذكراً إياي بمدى التعطيل الذي تحمله من أجلى. اعتذرت له وأنا أكظم غيظي، فأمرني، بخشونة قاطعة - أن أتبعه دون أن يفارق نظري قدميه. لم أفهم ما إذا كان غضبه حرصاً على وصولي أم ضيقاً بالمهمة المفروضة عليه. لكن الشيء الذي كان يلح علي أكثر هو أنني لا أسمع هذا الصوت لأول مرة. أجهدت ذهني في محاولة تذكر أين سمعته من قبل، لكنني انصرفت عن ذلك مركزاً نظراتي على قدمي الدليل قبل أن أفقده مرة أخرى. كان ينتعل حذاء ضخماً كالحا من أحذية الجيش المستعملة، وكان يحدث به صخبا عاليا على أحجار الطريق غير المتساوية.

ذكرني ذلك بوقع الأقدام الذي كنت أسمعه وأنا داخل الحجرة الكبيرة.
الحنى بنا الطريق المختاه مفاجئة ودخلنا فى مضيق ملتو لا يزيد عرضه عن
المترين، وتوقف الرجل بغتة أمام إحدى البوابات الأثرية. دفعها دفعة قوية
فانفتحت، لأجد نفسي مباشرة أمام النافورة التي غسلت منها وجهي منذ
قليل. قلت وأنا أكبت سخطى:

- لماذا أتيت بي إلى هنا ثانية؟

- أوامر المعلم.

- لكن المعلم أمرك بأن توصلنى إلى المخططة.

وهو يثبت على نظرات مرتابة:

- وماذ تكون هذه إذن إن لم تكن المخططة؟

- إنما قصر أترى فيما أظن.

ضحك الرجل من أنفه ضحكة صغيرة ساخرة، ثم جلجلت ضحكته بين
جنبات المبنى وهو يتقدم داخل الفناء.

- يا سعادة البية!.. لقد ولدت فى هذه المنطقة منذ خمسين سنة ولم
أعرف لهذا البيت اسما غير المخططة، منذ كنت طفلا وأنا آتى مع أبناء الحى
إلى هنا، نراقب من بعيد المسافرين ذوى الأشكال والألوان المختلفة،
يدخلون إليه كل يوم: بيض، حمر، سود. من كل جنس وكل ملة. يبرائيط.
بطرايش. بعمم. بعباءات. بفساتين. بلا فساتين أيضا لا مانع.. يمشون فيه
ساعات أو أياما ثم يخرجون ليأتى غيرهم. الجميع يعرفون بالطبع أنهم لا
يفعلون شيئا بالداخل، فقط يجلسون هكذا، فى انتظار مواعيد سفرهم إلى
بلاد أخرى. لهذا سموه المسافررخانة.

- قلت متصنعا المرح، كرشوة للرجل.
- يبدو أن المعلم حسن الظن جدا، إذ اعتبرني واحداً من هؤلاء.
- قال بدهشة: لكنك كنت تسأل عن المخطئة فعلاً.
- كنت أقصد بالطبع محطة الأتوبيس.
- هز الرجل كتفيه وهو يتجه نحو الباب. لحقت به في هلع:
- إنك لن تتركني هنا وحدي بالتأكيد.
- وماذ تريدني أن أفعل؟ لقد نفذت ما أمرت به.
- لكني لا أستطيع الذهاب وحدي إلى المخطئة، ولا أن أقضي الليل هنا كما تعرف.
- لا شأن لي بذلك. لقد نفذت ما أمرت به. عن أذنك.
- صحت في أثره متوسلاً:
- أرجوك. لن يكلفك شيئاً أن ترشدني على الأقل إلى طريق المخطئة.
- وهو عند البوابة:
- لا تعطلني أكثر مما عطلتني، فلدي عمل كثير، ثم إنه ليست لىدى أوامر بذلك.
- وقبل أن انطق، كان قد خرج وجذب البوابة خلفه، فانغلقت في صخب، وصرختني بلونها البني الكتيب.

ظل صدى النداء يتردد متلاطمًا بين جدران الفناء الموحش، وعبثًا انتظرت أن أسمع صوتًا أو أرى نافذة تفتح. كانت هناك عدة ممرات واسعة تتفرع من الفناء، حاولت أن أعرف أيها يؤدي إلى الساقية. سرت في أحدهما أملًا أن يكون هو طريقي إلى الرجل. كانت الأرض رخامية ذات مربعات عريضة، لكنني كنت أحس أنني أسير على صمت ذي رعوس مدبية. راحت سُدىّ محاولتي ألا أحدث صوتًا بجذائي على الرخام، وكنت أخبُّ في فراغ رمادي يزداد قتامة كلما توغلت.

انتهى الممر إلى سلم حجري معتم، لم أستعمله من قبل فيما أظن، رحلت وأصعد وأنحني بشدة مع الدرايزين الحلزوني كل عدة درجات حتى لا يرتطم رأسي بطن السلم المنخفض. خيّل لي أنني صعدت مئات الدرجات، قبل أن أصل إلى باب حجرة مظلمة، وبجوارها في الفسحة الواسعة عدة أبواب فاغرة سوداء لحجرات مشابهة. اندفعت هاربا من مكعبات اللون الأسود، أوقفني - في نهاية الفسحة - الجدار الخشبي المخرم؛ آه.. كان الباب بجواره مفتوحًا. دخلت مرة أخرى في حجرتي الفسيحة!.. أسرعرت إلى النافذة المطلة على الساقية، لم أجد الرجل هناك. صحت أناديه عدة مرات. لم أتلق غير الصدى. ألقىت نفسي منهكًا على الأرض الرخامية الباردة. فكرت أنه لا بد أن هناك خطأ ما، ولن يتركني أصدقائي لأبيت في هذا الية، كما لا بد أن يظهر الرجل مرة أخرى، وربما كان يقيم في هذا البيت. وفجأة تذكرت صوته.. نعم.. كان نفس الصوت الذي حدثني به

الدليل!.. نفس الصوت؟.. وكيف لي أن أتأكد.. لو كنت قد رأيت وجهه!.. لكنه كان يوليني ظهره وهو تحت العرق الخشبي. وكيف لي أن أتأكد، ما لم يظهر مرة أخرى؟.. حسناً.. وإذا تأكدت من... وانتهت على وقع الخطوات.. ثقيلًا... مكتوما.. صاخبًا.. يقترب... فوق صمت ذي رعوس مدبية.

نظرت، كان الظلام قد حل فجأة.

كونشرتو الناي

بقشرة من برتقالة غدائي كتبت على الجدار:

(أنت يا من ترقبني من خلف جداري.. أياً من كنت...)

كانت يدي قد كلّت من الدق على الجدار، وتلججت أذني من الالتصاق به، دون أن تظفر بغير همهمة غامضة.

تحرك المزلاج في باب زنراني، انتبهت، أترقب المستطيل الرأسى من النهار الموشك على الرحيل، يطل من الفرجة الضيقة عندما يفتح البساب، ذلك المستطيل الذي لا أكف عن أنظاره خلال اليوم الطويل.

بزغ أمامى شاب في حوالي العشرين، وقف حائرًا وسط الزنانة، أما مستطيل الضوء فقد حجبه الحارس بجسمه اللحيم، قبل أن يغلق الباب دوننا في ضجة حديدية.

وقفنا متقابلين في صمت لعدة لحظات، وهو ينظر نحوى بعيون حذرة متحفزة، تقدمت إليه بابتسامة مرحة، أشرت إلى فراشى المتواضع - الشيء الوحيد بالحجرة - ليجلس عليه، شكرني باقتضاب وأخذ يتمشى في الحجرة مطرقًا، متعمدًا ألا تلتقى عيوننا، لم يكن من السهل أن تنفادى

الاصطدام في المساحة ذات الأربعة في ستة خطوات، وكان لا بد لأحدنا أن يجلس، فجلست.

كان له وجه وسيم رقيق، رغم تجهمه الذي جعله يبدو كطفل حرون. سألته:

- هل أنت طالب؟

هز رأسه إيجاباً، قدمت نفسي إليه، لكنه بدلاً من أن يفعل نفس الشيء، اتجه إلى الباب وراح ينظر من "النظارة" الصغيرة فيه، بدأ يدق على الباب دقات عصبية، عاد يقطع أرض الحجر الأسفلتية الخشنة بحذائه الأسود، فيحدث صوتاً يجعلني أضرس، خاصة حين يستدير، صوتاً كتمزق قمماش سميك.

انفتح الباب ثانية. دخل الحارس حاملاً فراشا مكوناً من "برش" وبطائتين، وضعه في الركن الخالي بجوار فراشي، وخرج في صمت. ألقى الشاب بجسده على الفراش. أغمض عينيه في انقباضة الم. تهدل شعره الغزير على جبينه كتمثال أغريقي. سألته:

- هل كنت بالحجرة المجاورة؟

لم يرد. ظننت أنه استغرق في النوم، لكنه فتح عينيه بعد قليل وراح يحمق في السقف قلت:

- الوحدة هنا لا تحتمل.

...

- كنت ألع عليهم دائماً لكي يضعوني مع شخص ما، أظنهم هذا نقلوك معي.

- هل تضايقت لذلك؟

هز رأسه نفيا. استدرت جهة الحائط. رحت أكتب ببقايا قشر البرتقالة بعض أبيات من الشعر. التفت إليه فجأة:

- هل أخذوك من المظاهرة؟

رد بالنفي بحركة من رأسه. ألقىت بقشرة البرتقال من خلال النافذة العالية ذات القضبان المتقاطعة. هضت واضعا يدي في جيوبي، أخذت أصفر صفيرا خافتا وأنا أتجول في الحجرة بدبيب مسموع. فكرت أن أعود إلى لعبتي القديمة (قياس الحجرة بوضع أقدامى متلاصقة الواحد تلو الآخر) تبينت استحالة ذلك بعد وضع البرش الجديد. وقفت أقرأ الجملة الناقصة:

(أنت يا من ترقبني من خلف جداري.. أيا من كنت...)

فكرت في إكمالها فتذكرت أنني ألقىت بقشرة البرتقال الأخيرة.

بحث عن السماء عبر المربعات الصغيرة التي تحدها قضبان النافذة، عرفت من لوها الرمادي المشوب بالصفرة أن المساء يزحف.

فجأة انتهت على صوت غريب. كان الشاب منكفئا في الركن في نحيب مكتوم. أسرع إلى. أصبح لحيه نسيجًا. بدأ جسمه ينتفض. تكالبت أظافره على الفراش. صار لنشيجه دوى بين جدران الزنزانة. أخذ يتلاحق في هستيرية. بدا صوتا لكائن غير بشري، عواء قصيرا حادا متلاحقا مسعورا، انتفخت به الحجرة حتى كادت تنفجر. فجأة انقبضت يده اليمنى وشحب لوها، وما لبث ذراعه أن تصلب ممدودا بجواره. لم تُجد

محاولتي لتدليكه. خشيت أن ينتقل التشنج إلى بقية جسمه. أسرعت إلى نظارة الباب وناديت الحارس بأعلى صوتي. قفزت إلى النافذة ورحت أصبح من بين القضبان:

- دكتورا! .. دكتورا! ..

جاء الحارس أخيراً. فتح الباب وأطل مزجراً، لكنه إزاء منظر الشاب دخل متسائلاً - بلهجة أقل حدة - عما به. ويبدو أنه قدر خطورة الموقف فخرج مهرولاً دون أن يقول ماذا سيفعل.

كان صياح الشاب وصياحي قد ملأ كل نوافذ الزنازين بالمعتقلين، يرددون صيحة واحدة: دكتورا

مضت دقائق منتفخة بصرخات زميلي، قبل أن يعود الحارس ومعه أحد الضباط في بدلة مدنية قائمة، ممشوقاً أبيض البشرة والأسنان. رجوته أن يحضر طبيب السجن. قال بصوت هادئ ملئ إنه لن يأتي قبل الصباح - أرجوك. افعل أي شيء لإحضاره. هذه حالة انهيار عصبي.

غمز بعينه وقال هامساً:

- إنها مسألة عادية. لن يلبث حتى يهدأ.

كدت أصبح غاضباً، لكن صوت الشاب جاء من بين صرخاته:

- لا أريد أن أموت هنا.

مضيت أدلك ذراعه حتى بدأت تلين، ونظرات الضابط أحس بها تطل علينا من ارتفاع قامته الشاهقة. شينا فشيئاً أخذ الشاب يهدأ حتى عاد إلى النحيب. قال الضابط عدة كلمات تشجيع وهم بالانصراف.

صرخ الشاب مذعورا.

- لا .. لا تتركوني أموت هنا ..

عاد إليه الضابط وأثبه بخشونة. لكنه استمر كأنه لم يسمعه:

- كفاكم واحداً.. دعوني من أجلهن.. إهنن لا يصلحن حتى خادمت..

التفت الضابط نحوي وهمس وهو يغمز بعينه:

- بدأت الأسطوانة!

ثم قال متخائفاً وهو يضع يده فوق كتف الشاب:

- طيب. سوف أذهب وآتيك حالا بطيب ..

وهم بالتحرك نحو الباب. اندفع الشاب باكياً في توسل:

- لا .. لا أريد طيبا .. أريد أن أرى أمي قبل أن أموت. مضت ثلاثة

أيام وهي لا تعرف أنني هنا.

- سوف نبعث إليها ونخبرها برغبتك.

- لن تفعلوا.. أنا أعرف.

- طيب.. أكتب لها أنت بنفسك.. ما رأيك.. استرح حتى آتيك بورق

وقلم.. ربع ساعة فقط..

وأسرع إلى الباب وهو ينظر في ساعته وخلفه الحارس. وضع المزلاج

الحديدي في الباب، وهدأ كل شيء.

كانت الحجرة قد أصبحت معتمة. لم أنظر إليه في ركنه الذي أحسست

أنه بعيد جدا. بقيت واقفا قرب النافذة، أنظر إلى مربعات السماء الشاحبة

من خلال القضبان. شيء ما يعنى من أن أستدير فلتلقى نظراتنا. جنم على

الزنزانة صمت باهظ، لا يقطعه غير وقع خطوات حارس بالمر. أطبق الصمت أيضًا على كل الزنزانات. أجهدين ثقل الظلام.. ثقل الصمت.. ثقل ذلك الوجود المتراكم هناك في الركن، بنظراته التي أشعر بها تحترقني، لكن من المؤكد أنها ستهرب بعيدا عنى بمجرد أن أستدير، رحت أنظر من ثقب الباب لم أر غير أبواب الحجرات المتراصة برتابة بين جدرانها الشهباء المستقيمة، كجدران أحواش المقابر، والقضبان المتقاطعة في نوافذها المظلمة أشبه بصلبان مرصوفة، وثمة أوراق بالية تدفعها الريح على أرض المرر الموحشة.

أضيء المصباح الكهربائي فجأة في الحجرة. كنت أقف تحته مباشرة. أغرقني كحمام ساخن. وكان هناك.. في الركن.. ضئيلاً منطويًا في وضع الجين.. دهشت لأنني تخيلته في الظلام أكبر حجمًا. اكتشفت بقايا من قشر البرتقال أسفل الجدار. التقطتها مع إحساس بالخلاص. مضيت أرسم فتاة فرعونية محلاة بجواهرها. فجأة سمعت صوته، خفيضا، لكنه كان كافيا لأن يجعلني أضطرب.

- هل تظن أنه سيجيء؟

نظرت نحوه نظرة خاطفة، كان مقعيا بجذائه، يلف ذراعيه حول ركبتيه، أستأنفت الرسم، عاد صوته أعلى قليلاً:

- إنك تحترقني.. أليش كذلك؟

مسحت يدي في طرف البطانية، جلست موازيا له في صمت، لا يفصلنا غير شبر واحد من الأرض.

راح يخربش في الجدار الملاصق له بشيء ما. قال بصوت مبلبل أقرب إلى
الهمس وربما إلى الأنين.

- يصطادهم فرادى وغرباء.. دائما بأرض غريبة.

- من هو؟

- حين توقف ذراعى منذ قليل أحسست أنه جاء، هكذا جاء لأبي
أيضاً، كان وحيداً وغريباً في زنزانة كهذه، رفض أن يصرخ، جن جنونهم،
صاحوا: قل أنا امرأة! لم يقلها. ألقوه في الظلام وأغلقوا الباب، عند ذلك
فقط انفجر يصرخ. في الصباح وجدوه مشلولاً، ولم يعيش بعدها غير
أسابيع.

صمت طويلاً. انتظرت أن يقول شيئاً آخر، لكنه لم ينطق. كان الصمت
رقيقاً، لكنه محتق بصرخة مكبوتة. قلت:

- كنت طفلاً؟

هز رأسه إيجاباً، كانت ذقنه مرتكزة على ركبتيه، يسدد إلى الباب -
بالتحديد إلى النظارة - نظرة ثابتة، وانساب صوته.. مثل ناي وحيد.. في
الليل:

- "في ذلك الفجر رأيته فوق إحدى عمارات الميدان، يحلق ونيدا، هائلا
يملاً السماء الفجرية. أخذ يقترب، ويقترب، حتى أصبح بوسعى أن أناديه،
وكان يبدو كما لو كان يريد أن يقول لي شيئاً. انتفضت جالسا أرتجف.
أنني لم أره منذ مات إلا نادراً، وما أتاني قط على هذه الصورة. أردت أن أ
به رفاقي المتناثرين بجانبى حول القاعدة الرخامية، بعد أن هدهم السهر

والإرهاق، خشيت أن يغضبه ذلك. ظللت ممزقا بين خوفي منه وخشيتي أن يتركني.. وفجأة ظهورا، كأنما انشقت عنهم الأرض، يتقدمون نحونا بنادقهم في صفوف متراسة، يديون على أسفلت الميدان في خطوة سريعة يزأرون بصيحة الحرب مع خطواتهم. ابتعد أبي، أردت أن أستجد به فاختنق صوتي. هب رفاقي واقفين، تلاهت أذرعنا، وصنعنا بصدورنا جداراً أمام البنادق. كنت أرى الموت يطل من فوهاتها، لكنني لم أكن منهارا كما كنت اليوم حين تصلب ذراعي. كنت ساعتها أشعر بسلام يسرى في عروقي كالتمثيل، مع الدفاء الذي انتقل إلى من أذرع زملائتي. وحين أخذونا كنا هتف، وصوتنا يوقظ المدينة النائمة. وكنت أعرف أنهم قد يعدمونا في الميدان دون شهود، لكنني كنت أعرف أن أبي يشهدنا، وما أن وضعوني وحدي في زنزانة حتى شلني الرعب، ولاحقتني أمي باللوم والتأيب؛ لأنني تركتها مع أخوتي وحدهن.. ثم أخذ ذلك الإحساس يتسلط عليّ، بأنه سوف يأتيني وحدي، تماما كما أتى لأبي".

ظللنا صامتين.. أصغينا لصوت الريح يصفر في الممر، ولصوت غناء خافت يتسلل إلينا من زنزانة بعيدة. لم تمض لحظات حتى كانت بقية الزنازين تجاوبه في صوت جماعي. ارتعشت: كان هذا هو النشيد الذي اعتدنا ترديده في الشوارع وفي ليالي السجن، قفزت إلى جوار النافذة وأخذت في الغناء. شعرت بالصوت الجماعي العريض سحابة مضيئة تتجمع فوق سماء القلعة، تحملها الريح لتطوف بها فوق المدينة.. وفجأة التفت إليه: كانت شفتاه تتحركان بلا صوت، وعيناه تلمعان من بين

الاحمرار القاتم، واصلت الغناء دون أن أنظر إليه، إلا أن أذني كانت معه،
تلتقط بصعوبة طرف الخيط الحريري المبلبل: صوته الذي بدأ يتسلل واهتأ،
مشاركاً في الغناء...

أيقونات جبلية

مجلة إبداع، سبتمبر ١٩٨٨.

أيقونات جبلية

أيقونة الراعي:

ما كنت أدري - وأنا أصعد الجبل لاهئًا، عبر مدقات ضيقة تتلوى على حواف الصخور الزلقة، متبعًا نباح الكلب، متعلقًا، في مشقة، بتسويات حجرية تعصمني من التزحلق والسقوط إلى الوادي السحيق - أين ومتى أتوقف، ولم أسأل نفسي أيضًا هذا السؤال، فثمة اطمئنان يشملني، بأنني أمضي في الطريق الصحيح إلى لقاء حُدد لي، وكان الكلب يقودني إليه وينتظرني بين حين وآخر، مشربًا فوق صخرة عالية، محددًا نحوي حتى أدركه. أما التعب، فلدهشتي: لم يكن له بجسمي أثر، بل كنت أشعر بحيويتي تتجدد كلما صعدت.

تراجعت الكتل الصخرية أخيرًا، مُفسحة الأفق أمامي لسمااء وردية، تنبلج منها شمس برتقالية صغيرة، فوق بساط ممتد من الأعشاب الذهبية التي تتوهج شواشبهها في ضوء الشمس، وشريط بنفسجي غامض لجبل بعيد. تنفست بعمق هواء نقيًا معطرًا برائحة الأرض المعشوشبة المبللة

بالندى. بحثت عن الكلب فلم أجده. سمعت صليلاً نحاسياً يتردد خافتاً ويعلو ببطء، ترقبت مصدره، فرأيت في المدى البعيد قطيعاً من الأغنام البيضاء المرقطة بنقط سوداء، يسرى في غموض فوق خضرة صفراء متماوجة، ورأيت كلبى يتقاذف حولها جذلاً ويعيد شواردها إلى نهر القطيع. ظهر الراعي بقبعته وعصاه وكلبه الصغير، عندما اقترب منى سبقه الكلب إلى في حفاوة وراح يتشممى ويهز ذيله، وسرعان ما لحق به كلبى وأخذنا يلعبان في ألفة. صافحنى الراعي بيد قوية خشنة. لم أستطع تحديده عمره، فبرغم امتلاء صفحة وجهه بالتجاعيد إلا أن الدماء تتدفق فيها مثل شاب يافع.

جلسنا مستندين إلى صخرة ملساء، نظرت إليه مترقباً أن يخبرني بما دعيت إليه، تلفت حوله بحذر ثم دس يده في صدره وأخرج صرة من قماش قديم، فك عقدتها على الأرض بين أقدامنا... كانت هناك مجموعة من العملات المعدنية الصدئة، رحت أتأمل صور القياصرة المضروبة عليها. سألته: "كلها رومانية؟" ثم تذكرت أنه لا يعرف غير لغته المقدونية التي لا أعرف منها غير كلمات معدودة، فوجئت به يلتقط من بين العملات المتآكلة قطعة مخرومة ويقدمها إلي. تفحصتها فوجدت عليها كتابة بالعربية، حين دققت النظر أكثر استطعت أن أقرأ "ضرب في مصر" وكان هناك اسم سلطان لم أتبين حروفه، ولقد دق قلبى فرحاً بمهدية الراعي، فقبضت عليها بين راحتي بقوة حتى بللها العرق، وكانت التاعيد تتكاثر في وجه الراعي راسمة ابتسامة عريضة راضية...

أيقونة مارتينا،

وقفت مستندًا إلى الحاجز الخشبي الممتد، أستشق الهواء الطازج صباح لم يسبقني إليه أحد، وأطل على الامتداد اللانهائي المصعب لبيوت ذات أسقف فخارية حمراء على شكل أهرامات صغيرة، ومن ورائها خلفية رمادية لجبل أضح مضجعه الصخب الضوئي لنهار جديد، تطوف بخيالي شذرات ملونة من حلم البارحة، أو لعله كان حلم الصباح الباكر، سكران أتابه ما زلت، ليس تمامًا به، بل بمجرد أنني عدت أحلم، لا أذكر كم من السنوات مرت دون أن أحلم، أو بالأحرى دون أن أتذكر حلمًا، كانت هناك حقا شظايا مهشمة على فترات متباعدة لأحلام أقرب إلى الكوابيس، الآن أصبح بمقدوري أن أرى كل شيء بوضوح وبألوان قوية أيضًا، بعد أيام وليال معدودة عشتها بمسعمرة الفنانين فوق جبل ماركو بمقدونيا.

في الليل الطويل الذي يبدأ بعد الغروب، الليل الذي لا يقطعه غير نداء رتيب أسيان لطائر الشكشوك، بعد نهار طويل آخر في الرسم والتجوال بين الوديان الخضراء والجبال السمراء المبرقشة ذات عروق المرمر والصخور الوحشية - في هذا الليل لا يبقى ثمة حاجز أمام سيل الذكريات، وإذا توقف انسيالها كنت أستدعيها وكانت تطيع، أتلذذ بمشاهد من طفولتي بالقرية، وأتحسس وجوها طمستها السنين، وأصحو على عتاب أبي الميت منذ زمن طويل، وتباغتني ابنتي ياسمين التي سافرت منذ سنين، بإلقاء نفسها في أحضان فرحة بي، كما كانت تفعل في طفولتها البعيدة.

بجوار الحاجز الخشبي رأيت الآنية الفخارية الواسعة المليئة بالطمي الأسود، وقد بزغت فيها براعم خضراء جديدة، تحسست الوريقات

الوليدة الغضة بأناملى، تذكرت أن فاسكو - مدير المستعمرة - قد زرعها منذ ثلاثة أيام فقط، وعندما سألته عنها نظر إلى من خلف زجاج نظارته السميك، وحرك يده فى القضاة محاولا أن يقول شيئا بالإنجليزية التي لا يتقنها، ثم انصرف يائسا من العثور على الكلمات مشوحًا بيده.

الآن أشعر بعيون مارتينا، أني فى مجالها المغناطيسى، لم أرها أو أسمعها ولم ألتفت خلفي لأتأكد، لكننى واثق بحاسة عميقة بداخلى أنها تقف هناك، فى نافذة حجرتها، تأملى منذ لحظات. قالت وظهري إليها:

- صباح الخير يا محمد.

كانت تعرف أن اسمي ليس "محمد"، لكنها اختارت لي هذا الاسم لسهولته. التفت إليها، تفصلنى عنها الردهة الممتدة، فوق أرضيتها ألواح الخشب الناحلة، تتناثر فيها مقاعد الرهبان العتيقة المتقشفة، يوطر وجهها وذراعها العاريتين إطار النافذة الخشبية ذات الطراز التركي، على خلفية سوداء من ظلام حجرتها. قلت:

- صباح الخير.. هل نمت جيدا؟

- نعم.. كنت أحلم ببولندا.. ورأيتك معي بالجلابية!

وكان وجهها يشع نورا غامضا وسط ظلام النافذة، هل كان مبعثه ابتسامتها التي تجعل الوجه مستديرا كوجه طفلة؟.. أم هالة شعرها الأشقر المشعث؟.. أم عيناها الزرقاران الصافيتان بأهدابها الطويلة؟.. من يصدق أنها فى الخامسة والثلاثين؟!

اتجهت نحوها، أو شكت أن أقولها لها: "أنت فاتنة هذا الصباح!" لكنني تذكرت فجأة وقع خطواتها الخفيفة بعد منتصف ليلة أمس، عائدة إلى حجرتها من جهة حجرة فاسكو وهي تمس قائلة: تصبح على خير.

قالت: هل تأتي معي اليوم لنشتري عملات قديمة من الراعي؟

تذكرت حين سعدنا الجبل معاً بالأمس ساعة الغروب والتقينا بالراعي الذي أهداني في الحلم عُملة السلطان تذكرت كم كانت جميلة وجميمة إلى نفسي وهي تسلمني يدها الصغيرة، أساعدها على الصعود والهبوط، نتحدث بألفة عن كل شيء، إلا عن زوجها، وتقر علينا لحظات صمت تبادل فيها النظرات وبتسهم، فنقول خلالها أكثر مما نقول بالكلمات، خطر لي بدهشة: إنما لم تظهر معي في الحلم وأنا ذاهب إلى الراعي، هل كان ذلك بسبب ما سمعته بعد منتصف الليل؟

قالت: ألا تريد؟

قلت: سوف نرى بعد الإفطار.

مضيت حتى نهاية الردهة، ثم هبطت الدرج الخشبي إلى الباب الخارجي وفتحته صدمتني رائحة التخمير، واستقبلني حمام دافئ من أشعة الشمس التي تلتصق فوق حواف الصخور القريبة، لكن أكثر الأماكن لمعانا كانت مضخة المياه الحديدية العتيقة فوق الحوض المرمي الأشهب.

اتجهت نحو المضخة، كانت نسخة أخرى من طلمبة المياه في منزلنا القديم بالقرية، رحّت أحرك ذراعها المقوسة على شكل "فرسة النبي" صعوداً وهبوطاً لتضخ الماء دون جدوى، فقط كان هناك ذلك الصوت الترتيب

المبحوح لاحتكاك الجلدة بالحديد في تجويف المضخة، الصوت الذي كان يذكرني في الماضي دائماً بصوت جدى بعد أن فقد كل أسنانه. فجأة تذكرت أنه لا بد لي من بعض الماء أدلّقه في رأس المضخة حتى يتدفق التيار المائى من الأعماق. ملأت وعاء بالماء من الحوض المرمرى ودلّفته داخل الرأس وعدت أضخ، وشينا فشيئا بدأ الماء ينساب من الخلق، متألّقا رقرقا في ضوء الشمس، وضعت يدي تحته فاستشعرت برودته العذبة، انحنيت برأسى تحت السيل المتفق وأنا أواصل عملية الضخ، يرتعش كل جسدى تحت برودة الماء، مفتوح الفم أشهق مستسلما للذة الانتعاش الطفولى.

وكانت هناك نجوم من الماس أراها تتألأ خلف عيني المغمضتين.

أيقونة الأجراس:

فتحت باب الحظيرة الملحقة بالفناء، فانطلق الدجاج إلى الخارج صاحباً، واندفعت الديكة فى الصياح، وتزاحمت الكتاكيت تتعثر بين أرجل الكبار. وجدت فى الركن أربع بيضات، تناولت آنية الحب ونثرت منها أمام الدجاج، فاندفع كالقذائف يلتقطها فى فهم، وتباطأت الديكة التي كانت ما تزال منشغلة بالصياح تحية لليوم الجديد، قبل أن تحذو حذو الدجاج فى ترفع، وأما كبيرهم فقد ظل يقف عالياً متغطرساً فوق ماكينة فاسكو النحاسية لقطير "الراكية" التي تجعل رائحة التخمر النفاذة محيمة دائماً على المكان. ومألئى ذلك بشعور مفاجئ بالامتعاض من فاسكو.

رأيت الأجراس الضخمة للكنيسة القديمة معلقة على فرع شجرة فى الفناء، الكنيسة ذات السبعمئة سنة تحولت إلى مزار أثرى بلا قداسة، بينما

نرعت الأجراس منها وعلقت خارجها كالمشوقفة. اتجهت ورحت أدق..
أدق.. ملأني الصوت المباغت في البداية برهبة عميقة، وفي نفس اللحظة
استبدت بي رغبة متحمدة في التماذى، تلاشت الرهبة حتى توحدت مع
الأجراس في إيقاع موزون، دب الذعر في الدجاجات وتوقفت عن التقاط
الخب، وأمالت رؤوسها إلى أعلى وهي تقاقي مستشعرة خطراً داهماً، بينما
قفز ديك فاسكو من فوق الماكينة وانزوى مرعجاً.

وقفت مارتينا في الشرفة المطلة على الفناء، تظلل عينيها بيدها تحت
شمس يوليو القوية، صاحت:

- ماذا هناك؟

- جرس الإفطار.

- لكن بتريشيا لم تحضر بعد، ما زالت تحلب الشياه في الحظيرة.

- لا حاجة بنا للحليب اليوم. وجدت أربع بيضات.

- لكن الآخرين ما زالوا نائمين.

- أنا جوعان، ألسنت كذلك أيضاً؟

أطل من خلفها رأس فاسكو الأشيب لامعاً في ضوء الشمس، استند
بذراعيه الضخمتين على الحاجز الخشبي للشرقة، صاح بغضب مكبوت
بلغة إنجليزية مكسرة ومضحكة:

- محمد.. اذهب وتناول إفطارك إذا كنت جائعاً، لكن لا تزعج

الآخرين! أمسكت مارتينا ضحكها الطفلية الشامتة بصعوبة وهي توزع

النظرات بيني وبين فاسكو، وجلست أنا على الدرجات الحجرية في الشمس، أتعجل جفاف الملابس المبتلة.

أيقونة بتريشيا:

وضعت بتريشيا الشقراء ذات العشرين ربيعاً كوب الحليب أمامي، وكانت ترتدي بلوزتها البيضاء الفضفاضة المطرزة التي أحبها. من مكانها القريب بجوارى لاحظت أن بشرتها البيضاء ذابلة ويتأثر عليها حب الشباب، وأن بالعينين الخضراوين الضيقتين حزناً غائراً لا يذيه حتى الصباح المشرق. لاحظت أن لدينا اليوم ضيفان جديدان، ذكر فاسكو أهما مصور ونحات من أبناء المدينة المجاورة وقد انضمنا إلينا، أصبحنا الآن عشرة، عبء إضافي على بتريشيا.

يتصدر فاسكو المائدة كالعادة، راسخاً مسيطراً كجنرال، حيث يخيم الصمت أثناء تناول الطعام إلا من صوت أدوات المائدة في الاطباق، ذكرني بالسيد أحمد عبد الجواد في "بين القصرين"، ومن جانبه الأيسر القريب مني لاحظت أثر الجرح الغائر في جبهته فضاعف من تقطيه - ومع ذلك فإنه يدهشني أحيانا بتصرفات غريبة، فكثيرا ما يقوم بنفسه بإعداد العشاء ووضع الأطباق أمامنا، وأحيانا يفاجئنا بتقديم طاجن من اللحوم المسقية بالراكية بعد إخراجها من الفرن دون أن يطلب من أحدنا المساعدة، فيها عدا مارتينا بالطبع، وفي تلك الأوقات لا يبخل بإخراج أي عدد من زجاجات الراكية والنيبيذ التي يصنعها بنفسه، عندئذ فقط يتخلى عن وقاره ويسمح للابتسامه أن تمر على صفحة وجهه.

مال على مارتينا إلى يمينه وأخذًا يتها مسان بالبولندية، كانت تبسم، نظرت على عينيها فتحاشت أن تلتقى نظراتنا، صاح بعد قليل مناديا بتريشيا، وحين جاءت مسرعة أخذ يشرح لها شيئا، ثم أخذ صوته يعلو ويخمد حتى صار أقرب إلى الغضب. لم أفهم شيئا من حديثهما بالمقدونية، لكنها بعد قليل أخذت تردد: نعم.. نعم.. في صوت ضعيف جعلها تبدو أصغر حجما، استطعت أن أهن أنه كان يبلغها تعليماته حول غداء اليوم. اتخذ الطعام في فمي طعاما مرا، تخيلت كيف سيقوم فاسكو بعد قليل إلى حجرته المليئة بزجاجات الخمر، ويفرد أمامه على المنضدة أوراق اللعب، ويظل طوال اليوم يرصها على وجوهها ثم يقلبها واحدة واحدة ويعيد رصها متجاوزة، محاولا أن يستخرج منها معنى ما، وابتداء من العصر يشرع في عب الخمر وحيدًا أو وهو ينظر إلى جهاز التلفزيون وسط الشغالة بأوراق اللعب، وقد يخرج مع مارتينا إلى الجبل أو للتجول في المدينة القريبة وحدهما بسيارته.

قمت إلى المطبخ، طلبت من بتريشيا كوبا من اللبن الزبادى، ملأته لي، داعبت ذقنها اللدقيق بأناملى، فابتسمت في براءة طفلة وعينها تضيقان كعادتها حين تشعر بالخجل، أخذت كوب الزبادى وخرجت إلى الشرفة المطلة على القرية والجبل، رحت أرتشف اللبن في استمتاع وما زلت أفكر في بتريشيا، حاولت التعرف على كوخها وسط مئات الأكواخ البعيدة... إنها تغادره قبل السادسة صباحا ولا تعود إليه قبل الخامسة مساء، تظل طوال اليوم تكنس وتمسح وتطبخ وتجمع الخضروات من المزرعة وتنزل إلى السوق عدة مرات من أعلى الجبل وتصعد ثانية بحملها الثقيل.. وحدها

طوال اليوم تتلقى صياح فاسكو والآخريين: باتريشيا.. قهوة!.. باتريشيا..
شاي! باتريشيا الغداء.. وفي أوقات الراحة النادرة تجلس وحيدة - حتى
وهي معنا - تدخن سيجارها في صمت.. كان ينبغي أن تكون اليوم في
الجامعة، هكذا فهمت منها مرة بصعوبة شديدة، لقد حصلت على الثانوية
العامة، لكن لها ثلاثة إخوة أصغر منها، منذ أول يوم أحسست بالتعاطف
الأخوي معها، لكن جهلى بلغتها كان دائماً عقبة أمام التفاهم. كثيراً ما
تذكرني بأختي نادية، التي ظلت بالقرية دوننا جميعاً، نخدمنا في صبر لأننا لم
تكمل تعليمهما.

أيقونة الجبل:

وقفت أمام البوابة الأثرية للمستعمرة، تلك التي كانت بداية دير
الرهبان، تعلوها الأيقونة المرسومة بألوان الفريسك للقديس ميخائيل فوق
جواده مواجهاً قوى الشر، إنها مليئة بالحركة لكن الوجوه ساكنة أو
محايدة، وعيونها الواسعة خالية من أي تعبير. اتجهت حاملاً حافظة أوراق
الرسم والأدوات إلى الطريق الخلفي عبر ممر ضيق مليء بأشجار التفاح
والبرقوق البري الصغير، لم أرسم الأشجار منذ جنت، كنت أفضل دائماً
الصخور، ربما لأنها جعلتني أكمل ما بدأتها في سيناء.. ها هي صخرة تبدو
كحيوان خرافي يتحفز للانقضاض، وهذه كأنها نسريهم بالإقلاع، وهاتان
تتلاهما كجسدين متعانقين، وبينهما فراغ مظلم يرقد فيه حجر صغير
يبدو وكأنه طفلها، وذلك مسطح صخري شامخ مفروود كالشراع، عليه

رسم قديم حالت ألوانه لقديس فوق حصانه، قام برسمه بعض الرهبان يوماً كأيقونة في صومعة للعبادة كانت هنا منذ زمن سحيق.. أصبحت كل صخرة من هذه الصخور تحمل الآن علامة مستديرة بيضاء، تصنفها ضمن هذا المتحف المفتوح. استندت بظهري على إحدى الصخور أتأمل في الجانب الآخر علامات غامضة حفرت في الصخر بأيدٍ آدمية.. من هنا مر الرهبان والرومان، الفدائيون والعثمانيون، الجياد والعييد.. رأيت في زاوية متوارية حفرة مستطيلة داخل الصخر في قامة إنسان، من الذي دفن هنا؟.. وعلى أي مذبح تشهد هذه الصخرة؟.. العلامات الدامية في كل مكان، والسكون شاهد أخرس، متربص.

جلست محتماً بظل صخرة وبدأت الرسم، كان الجبل يبدو أمامي كتلاً من العجائن المتلوية المتشابكة حيناً، وسطوحاً حادة الزوايا متداخلة الأوجه، كمكعبات بللورية حيناً آخر، تخرقه طرق ثعبانية على مدرجات محفوفة بالصخر المتحفز للانقراض. أهتمكت أرسم بكل جوارحي، وكنت أرى صفوف العييد في أعالي الجبل حاملة قطع الأحجار الرخامية، يناوئها كل واحد للآخر، حتى تصل إلى موقع العمل في بناء قلعة الملك ماركو، وكنت أرى الجند العثمانيين بسياطهم يسوقون صفوفاً من التمرددين على مدارج الجبل... الصخور تتلوى بين أصابعي وأنا أرسمها على الورق، تصرخ متوحشة ومتأنسة معاً، لا تسعفني الألوان الشمعية فألجأ إلى قطع الفحم السوداء، أكتسح بها المسطحات البيضاء في جرات عريضة مسيطرة، أنقل من مكان إلى مكان بين ممرات الجبل، لا أبالي بالشمس التي توسطت السماء، أصبحت قطع الفحم جرات بين أصابعي لا يطفئها غير

لملمس الورق، لكنها ما أن تلامسه حتى تعود إلى الاشتعال فلا يخلصني منها أو يخلصها مني إلا تلاشيها بين أصابعي التي تحترق، فأعود إلى التقاط قطعة أخرى، يطفح أمامي على الورق وجه فاسكو، لحميا مترهلا غليظا، يصبح قريب الشبه من هذه الصخرة الجلاتينية، ما أكبر الشبه بين الملامح التي تتخلق الآن وسط الصخور وبين وجه ضابط الباحث المجسود منذ عشر سنوات، حين انتزعوني من مرسمي عند الفجر، وكانت فيروز تشدو للقدس من جهاز التسجيل وأنا أرسم محموما كما أرسم الآن...

توقفت عن الرسم لاهتا وغاضبا، استرخت مستندا إلى صخرة، شعرت بطعم الصديد في حلقي، بصقت، أغمضت عيني متسانلا عن فح منابع الصديد ويبي وبين بواباته جبال وبحور؟!

حاولت استدعاء حلم البارحة، فوجدت أنني قد نسيتَه تماما.

أيقونة فاسكو:

قبل أن أفتح عيني كنت قد رأيتها، ذلك أنها كانت تقف هناك، فوق قمة صخرة، حافية بجسدها المشقوق نصف العاري جزءاً من ضياء الشمس، وكان شالها الحريري يرفرف حولها، أشبه بألهة إغريقية.

اقتربت مارتينا على مهل، تزاح الغمة عن صدرى شيئا فشيئا، ومع ذلك فقد تصنعت الانشغال في الرسم متجاهلا أنها على بعد خطوة توقفت أمامي، كتلة معتمة عكس الضوء، فامتلا المكان بزخم وجودها الأنثوي، قالت:

— يبدو أنك رسمت كل صخور الجبل.. أليس كذلك؟

- ليس بعد.. وأنت؟
- إنك لم تترك لي شيئاً لأرسمه.
- اقتربت وجلست بالقرب مني، راحت تتصفح اللوحات على مهل،
وعيناها مقطبتان بنوع من الألم، مر وقت طويل قبل أن تقول:
- يا إلهي! .. إنك مأساوي! .. فظيع!
- ثم استخرجت في جلستها فاردة ساقها المكترتين وقد توردتا من حرارة
الشمس، وكان خذاها أكثر تورداً، وإن لم يكن بسبب الشمس وحدها.
- قالت بنبرة حاولت أن تكون حيادية:
- لم تركتني وخرجت وحدك؟
- قلت بعد تردد:
- كان يمكن أن تذهبي مع فاسكو.
- إنه مشغول بأوراق اللعب.
- قلت متهكمًا: يا له من قاس!
- قالت ضاحكة وهي تغمز بعينها: أنت تغارا!
- ممن؟ .. إنه في عمر أبيك.
- فعلاً .. ثم إنه يتكلم لغتي .. إنه الوحيد هنا الذي يفهمني وأفهمه.
- ها أنت قلتها بنفسك .. الوحيد!
- لا تكن أحمق!

- إنك لم تكلمي لوحة واحدة منذ جئت .. هل لي أن أسألك: لماذا جئت؟ فكرت قليلا، وقالت وهي تخطط على الأرض بإصبعها:

- جئت لكي أعرف ماذا أريد.

- وهل عرفت الآن؟

ثبتت ركبتيها وأسندت ذقنها إليها وسرحت بعيدا .. قالت بجديّة:

- عليّ أن أتخذ قرارات صعبة .. ولا أستطيع.

انتظرت أن تواصل، لكنها ظلت صامتة. فصل بيننا صمت طويل حتى قلت فجأة:

- مارتينا .. هل تحبين فاسكو؟

- نعم!

قالتها هكذا بعفوية، دون أن شعر بوجودي.

من وسط ذهولي كدت أقول لها: يا لها من نكتة! .. إنما لا بد أن تكون مختلفة العواطف حتى تقع في حب هذا السكر العجوز، إنه موهوب للموت بينما هي موهوبة للحياة، فكيف يلتقيان؟ ... لكنني لم أنطق بكلمة.

انتبهت إليها ترميني بحصاة في صدري وتقول ضاحكة:

- أين ذهبت؟

- لا شيء .. هذا شأنك على أية حال.

- لكنك ذهبت في الاتجاه الخاطئ.

واستأنفت بعد قليل بنبرة ناعمة:

- محمد.. أنت بالنسبة لى شيء مختلف.

وكان وجهها متوهجاً ياشعاع خاص لم أره من قبل، وشعرت بأن
ابتسامتها التي تتذبذب على استحياء تحمل رسالة دافئة إلى، استبدت بى
رغبة لا تقاوم لاحتواء وجنتها المتوردتين بين راحتي، وحين أطعتها
وفعلت، ضربتني بشدة وانفلتت تجرى وتسلق الجبل بمهارة.

اندفعت خلفها، تلفت باحثاً عنها فلم أجدها، صحت: مارتينا.. أجنبي
صدى الصوت، عدت أبحث عنها خلف الصخور القريبة، وفجأة صرخت
من خلفي ضاحكة وأفرعتني، وقبل أن أمسك بها فرت هاربة وأنا أطاردها،
أخيراً تمكنت منها واحتضنتها من الظهر، شعرت بحرارة جسدها وليونته
وهو يستكين للحظات قبل أن ينتفض متملصاً من بين ذراعي، استدارت
لحوى بفته وقد تحجرت ملامحها، وبدأ فى البزوغ من قرار عينيها الزرقاوين
مشروع صغير للغضب وهي تشهر سبابتها فى وجهي.

استدرنا نسير صامتين متباعدين ببطء متخاذل، وأنا ممتلى بفضاء
أجوف. أخرجت من حقيقتها صورة فوتوغرافية ملونة وقدمتها إلى، كانت
تضم صورتها مع طفلة فى السابعة ورجل شاب، وكان من السهل استنتاج
ألمما ابتها وزوجها.

قلت: إنه يبدو صغيراً.. ووسيماً.

- نعم.

- تحينه؟

صمتت مترددة مطرقة إلى الأرض، قالت كأنها تحدث نفسها:

- إنه لن يعود إلى البيت على أية حال.

التزمت الصمت لمسافة طويلة عبر الصحور، عبر أمامي وجه أميرة: كم مرة منعت نفسي من الكتابة إليها لتعود، بعد أن سافرت إلى الكويت ومعها طفلتنا ياسمين فور إجراء الطلاق... قطعتُ الصمتُ أخيراً:

- المشكلة من جانبه أم من جانبك؟

تنهدتُ وهي تغلق الموضوع:

- إنها حكاية طويلة.

واصلتُ حصارها:

- وفاسكو؟

- ماذا تعني؟

فجأة خاطرت باقتحام بابها المغلق:

- مارتينا.. هناك شيء لا أستطيع أن أخفيه عنك...

- ماذا

ليلة أمس، كنت ساهرة في حجرة فاسكو وحدكما.. أليس كذلك؟

توقفت عن سيرها ونظرت إلى لائمة:

- كنت تراقبي؟

قلت بسرعة:

- لا لا.. لقد كنت مستيقظاً في حجرتي وسمعتك عند خروجك..

صدقيني.

عادت تسير مطرقة..

- إذا صدقتك فلن تصدق ما سأقوله لك ..

- بل سأصدقك .. أعدك.

أمسكت بيدي وسارت في اتجاه آخر وهي تقول :

- تعال معي، سأريك شيئاً.

أخذنا نصعد الجبل ونسير على حواف الممرات، ومن تحتنا تبدو المدينة غامضة مثل ذكرى بعيدة، أخيراً توقفت مارتينا عند مجموعة من الصخور تكون فيما بينها فراغات أشبه بالمغارات، قالت لاهثة وهي تشير إلى إحداها:

- هذا الكهف ...

- ما شأنه؟

- إنه كهف فاسكو .

- لا أفهم .

- كان مخبأه مع رفاقه المحاربين منذ خمسة وأربعين عاماً .

- ضد من؟

- ضد جيش الملك والنازي، كان في السادسة عشرة، إنه يحمل وسام

البطولة.

- هو الذي أخبرك بذلك؟

- نعم

ابتسمت متشككا، قالت بانفعال :

- هل لاحظت أثر الجرح في جبينه؟ .. لقد أصيب في القتال.. وهناك جراح أخرى في جسمه، كان يمكن أن يُقتل، لقد رأيتها.

سرحت بعيدا، ثم التفت إليها أستجلى الحقيقة في عمق عينيها، قالت:

- ها أنت لم تصدقني كما وعدت!

- أني لا أكذبك، لكنني أتساءل: يا لها من حياة لانهة يبطل، تلك التي

يحياها الآن فاسكوا

قالت بعد لحظات وهي تعاني لتجد الكلمات الانجليزية:

- عندما تترفع عن أن تأخذ ثمن بطولتك، ثم ترى الآخرين يأخذون كل شيء بلا بطولة، ويكذبون، ويسرقون الهدف الذي كدت تموت من أجله حتى لا يبقى منه شيء، ثم إنك تفقد من أحببت.. الزوجة والابن والصديق... فماذا يبقى لك غير الخمر وورق اللعب؟

جلسنا صامتين لا نجد كلاما، أو لا نجد معنى للكلمات. لا أدري كم مر

من الوقت، لكنني أفقت على سؤاها:

- أألن تعود؟

قلت دون أن أنظر نحوها :

- أظن أنني سأبقى هنا قليلا.

قامت ومضت صامتا، متناقلة، تحت شمس يوليو العمودية.

أيقونة السلحفاة،

جلست في مواجهة كهف فاسكو - كما زعمت ريناتا - أتأمل فوهته المظلمة.

عاد الغضب يجتاحني، لكن دون أن أعرف مصدره، أو إلى من أوجهه. فكرت: ربما كان مصدره عجزى عن الفهم، كل شيء يحتمل الحقيقة والكذب... كل شيء؟... وخطرت بتريشيا على ذهني، فكرت: إنها الحقيقة الوحيدة حتى الآن بالنسبة لي، لكن من أين لي هذا اليقين؟.. أني في الحقيقة لا أعرف حتى ماذا يعمل أبوها!

استرعى انتباهي شيء في مدخل الكهف، عند الحافة بين الضوء والظلام، قمت وأمسكت به، كان سلحفاة جبلية ميتة، وقد نهمشها حيوان فلم يبق منها غير صدفتها المقسمة غلى معينات ملونة بالأصفر والأسود وفي أحد جانبيها بقيت بعض أرجلها الجافة، شممتها فلم أجد لها رائحة، فعرفت أنها ماتت منذ زمن. وضعتها أمامي على طرف الصخرة ورحت أتأملها.

كان الصمت ثقيلًا وعميقًا في قلب الوجود، إلا من نداء.

متقطع لطائر الشكشوك، يرسله من بين ثنايا شجر البر في أعالي الجبل إلى إلفه الذي هجره. حملت أوراقى مع بقايا السلحفاة ونزلت منحدرات الجبل، وعلى المدى البعيد رأيت حصانا أسود يرعى العشب فوق الجبل، وفجأة رفع رأسه عن العشب ومد عنقه ورأسه إلى الفضاء كأنه يريد أن يسهل لكنه لا يستطيع، كان واقفا هناك بجسمه الرشيق النبيل الممتوسط، في مواجهة الشمس، ومن خلفه أفق بنفسجى مضرب لجبل بعيد، غارق في الوحدة.

المحتوى

5	بدلاً من المقدمة
7	القصة... هوائى الأول
9	أيام العز
11	- الشحم
23	- الضربة الأخيرة
35	- الباب
45	المثلث الفيروزى
47	- المثلث الفيروزى
59	- ظل السكين
67	- السجن والحارس
77	- نهاية اللعبة
87	- البحث عن لون
97	- القطار
105	- أم شوقى
113	- قمر الليلة السابعة
127	أغنية الدُمية
129	- مشهد من وراء السور
139	- قطار الشمال
153	- الزوايا
173	- التفاحة والسكين
183	- عقد من الخزف الأزرق
193	- المملوك

- 203 أغنية الدمية. -
- 217 طريق الكشبان الرملية. -
- 229 الحارس. -
- 241 كونسرتو الناي. -
- 251 أيقونات جبلية
- 253 أيقونات جبلية. -